سلسلة الأخلاق والعرفان

4



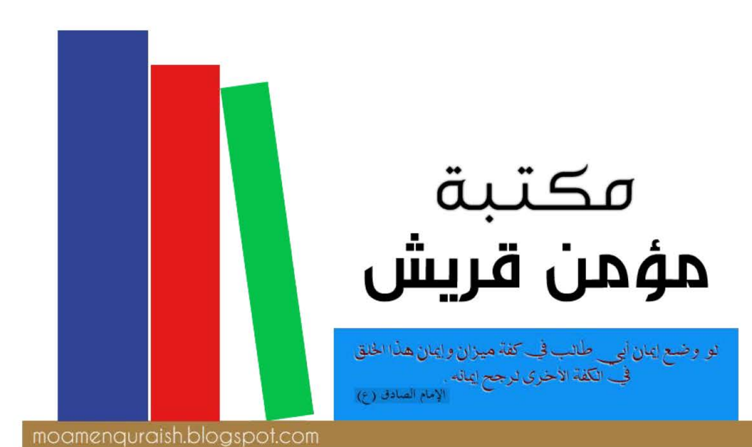
التجلّي

في كشف الأنوار الإلهيّة والسّير في آفاق معرفة الله

الجزء الأول

كريم محمود حقيقي




مكتبة
مؤمن قريش
لو وضع إيمان أبي طالب في كفة ميزان وإيمان هذا الخلق في الكفة الأخرى لرجح إيمانه .
الإمام الصادق (ع)
moamenquraish.blogspot.com

التجلي

الطريق إلى كشف الأنوار الإلهية

و السير في آفاق معرفة الله


بسم الله الرحمن الرحيم

سلسلة الأخلاق والعرفان
(٤)

التجلي

الطريق إلى كشف الأنوار الإلهية
والسير في آفاق معرفة الله

(الجزء الأول)

تأليف:
كريم محمود حقيقي

ترجمة:
زهراء يگانه



ابداع للنشر

الطبعة الأولى

١٤٣٤هـ - ٢٠١٣م



للطباعة والنشر والتوزيع

هاتف: ٠٣/٢٥٧٩٨٤ - فاكس: ٠١/٥٥٣٤٥٦ - ص.ب: ٢٥/٣٥٥ - غبيري - بيروت

Daralkatebalarabi@hotmail.com

«الطريق إلى معرفة الله»

المقدمة

باسمك، أنت الأول، يا مطلع كل بداية
وباسمك أنت الآخر، يا خاتم كل نهاية
يا من لظاهر كل متجلٍ أنت ظاهر
يا من لباطن كل غيب أنت باطن

* * *

وصلنا في بحثنا إلى ما يتطلب الحديث عنه دقة زائدة، فالهفوة والتهاوي حاصلان دون شك لولا العون والإسناد. إلهي! ألتجىء إليك وأعوذ بك من كل هفوة يا ملجأ من لا ملجأ له.

عزيزي القارىء:

قدمت لك حتى الآن الحلقة الأولى من هذه السلسلة خلال بحثين: البحث الأول: «التخلي» في آداب تطهير الباطن، وتحقيق نزاهة يتطلبها الوقوف في ساحة كبريائه المقدسة، والبحث الثاني: «التزكي» في

الأدران والتلوثات لتعتصم بما يحصنك إزاء التلوث بـها وأنت تـجتاز طريقك في الحياة، ثم جئتك بالحلقة الثانية من مبحث «التحلي» لتزين قلبك ووجودك بمختلف المحاسن وتغدو بها أهلاً لنظر الحبيب إليك.

والآن حان أوان وداع لوعة الفراق بتجلي المحبوب، ولكننا مازلنا في وسط الطريق وأنت ما دمت عالجت قلبك من تلوثاته وأضفيت صفاء على مرآته لا بد أن ترسم فيها صورة لحبيبه، صورة لا يكون لها زوال أبداً.

فليسكرنك السقاء حتى يراق الشراب من يدك. ولكـي لا تـتصور أنني أثرثر ليس إلا، آتيك بحديث شريف:

في تفسير «مجمع البيان» يذكر العلامة الطبرسي عند تفسيره الآية:

﴿وسقاهم ربهم شراباً طهوراً﴾[١]

حديثاً عن الإمام الصادق عليه السلام حيث يقول:

«يطهرهم عن كل شيء سوى الله إذ لا طاهر من تدنس بشـيء مـن الأكوان إلا الله».

في هذه الحلقة من سلسلتنا يأتيك بحث في المعارف، معارف يضيف كل صفحة منها الى علمك كماً ويهديك كنزاً حتى يجعل لنفسك مثل عظمة السماوات ولقلبك استيعاب عظمة المحبوب، ولكن أولاً أحدثك عن:-

---

١ ـ سورة الإنسان، الآية ٢١.

«القرآن الكريم واستيعاب الإنسان»

لتدركن عظمة ذاتك ولا تتخذها ألعوبة أذكرك بما جاء في القرآن الكريم:

يقول تعالى:

﴿وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة﴾[1].

وتعلم أن المستخلَف حتى وإنْ لم يكن على مثل شأن مستخلِفه وقدرته فإنه يتمثل به ولكن على منزلة أدنى. بمثل هذا يكون المعاون لائقاً بالرئيس وولي العهد بالملك. وإنك بمراجعة التاريخ تجدنّ الإنسان قد فرض هيمنته بالفعل على سائر المخلوقات جميعاً على مر العصور وإن كانت الأرض خلالها عرصة لسكنى ملياردات من المخلوقات. وهيمنة الإنسان عليها في عالم الظاهر لا تبلغ أهمية تذكر بل ما نريده في بحثنا هو قدرته على التعالي والتحليق حتى يصل مقام قرب حضرة كبرياء الله فيخلف جبرائيل امين الله ما دون مستواه إذ

---

١ ـ سورة البقرة، الآية ٣٠.

عجز عن مواصلة التحليق وكان لسان حاله ما جاء في بيت الشاعر سعدي الشيرازي:

اگـر يک سـرموي برتر پرم فـروغ تـجلى بسوزد پرم[1]

ولأزيدنك تقديراً لذاتك ولأمنع انخداعك بما تقدمه لك كتب علم الأحياء من معلومات حول الإنسان، باعتباره أحد الثدييات شأنه شأن البغال والأبقار والخراف مع ارتفاع وزن دماغه نسبياً، وأنهيك عن الاستخفاف بنفسك، أنوه لك بأنك أنت مرآة جمال مالك الكون والكائنات، وأنك أنت مظهر الأسرار الإلهية.

والإشارة الثانية تتنبه لها بقراءة القرآن وأنت تأتي على الآية: ﴿وعلم آدم الأسماء كلها﴾[2]

فلفظة «كلها» تجعلك تلتفت إلى عظمة المزية التي توج بها النبي آدمعليه السلام، فكل من موجودات عالم الإمكان يمثل مظهراً لتجلي مجموعة من الأسماء الإلهية. ليس من بينها موجود قادر على استيعاب كل الأسماء إلا الإنسان حيث كانت هذه الموهبة مدعاة تعجيز الملائكة ووقوعهم سجداً له مما أغاض الشيطان وأثار حسده.

إذاً، الإنسان هو المخلوق الوحيد الذي يتمتع باستيعاب وقابلية

---

١ ـ معناه:

«لو أحلق على قدر شعرة، ضياء التجلي تحرق أرياشي»

٢ ـ سورة البقرة، الآية ٣١.

لتقبل جميع الأسماء والصفات الالهية. لم تكن قابلية نابعة من جسمه الواهن وهيكله المترهل بل من روحه، حيث يقول سبحانه وتعالى:

﴿فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين﴾.[١]

كانت لك زينة منه ونفخة من روحه وكيف يكون للملائكة أن تأبى السجود لحضرتك؟!

***

وأنت تحاول تفسير الآية:

﴿إنا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان، إنه كان ظلوماً جهولاً﴾[٢].

قد يتراءى لك أن الله سبحانه وتعالى يذم فيها تعالي همة الإنسان او يشير الى أن تقبله لهذه القضية كان من باب الجهل والظلم. ولكن بعض الباحثين يرون أن تقبل هذه الأمانة إنما هو مؤشر لقمع النفس الإنسانية وقابلية الإنسان ذاته على الحؤول دون الانقياد التام لها، هكذا كان ظلوماً لنفسه الأمارة بالسوء، ثم أنه يتمتع بقابليته على أن يكون بالله عالِماً وبمن سواه جاهلاً. فغدا هذا الظلم والجهل كرماً وهبة نالها من الله لا نقصاً وذلة، وإلا ما كان الله سبحانه وتعالى يقول:

---

١ ـ سورة الحجر، الآية ٢٩.

٢ ـ سورة الأحزاب، الآية ٧٢.

﴿ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات﴾[١]

لفظة الإكرام في هذه الآية لا يراد منها ما يتحدد بحركة السفن في البحار ونمو المزروعات في البراري وتناول الأرزاق، فالحيوانات هي الأخرى تنعم تقريباً بمثل هذه النعم. بل تحمل الآية بشرى بهيمنة الإنسان على جميع العلوم المادية والمعارف الإلهية وعلى جميع أرزاقه التي وهبها له ربنا على كلا الصعيدين الجسمي والنفسي.

* * *

وهذا أبو يزيد البسطامي يوضح عظمة روحه بأنه لو تجلى العرش وما فيه مئات آلاف المرات في ركن من قلب العارف لما شعر به.

لا تعجبن من ذلك فأنت أدركت من قراءة الآية أن قابلية آدم استوعبت جميع الاسماء الإلهية وأحدها «المحيط». فلما كان محيطاً بالعالم، فكيف يثقل عليك تقبل هذا الكلام، وها هو الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام يقول:

«كل وعاء يضيق بما جعل فيه إلا وعاء العلم فإنه يتسع».

فعدم إحساس أبي يزيد البسطامي بكل تلك العظمة المتجلية في قلبه إنما كان باعثه انشغاله بتلك العظمة التي استصغرت عظمة السماوات إزاءها. وكل هذه العظمة لم تؤثر في ليلة المعراج على قدر جناح ذبابة على قلب النبي صلى الله عليه وآله وهو الذي عظم الله تعالى شأنه في

١ ـ سورة الإسراء، الآية ٧٠.

الآية: ﴿ما زاغ البصر وما طغى﴾[1]

يروى أن يحيى بن معاذ كتب إلى أبي يزيد البسطامي بأنه قد ثمل لكثرة تناوله من شراب الحب، فرد عليه البسطامي بأن غيره كرع بحار السماوات والأرض في لحظة ومازال يشعر بالعطش.

حَسْبَ الإنسان عظمة أن الله قد خلقه واجتباه لقربه، وأوحى إليه نهج السلوك إليه حتى بلوغ جنة لقائه، وبشّره بحسن مقامه:

﴿في مقعد صدق عند مليك مقتدر﴾[2]

ويخاطب نفسك إن أنت التحقت بركب عباده:

﴿.. وادخلي جنتي..﴾[3]

وبشرك بأن تلقى مكتوباً من ربك في جنته تقرأ فيه:

«يا ابن آدم! أنا حي لا أموت، اطعني فيما أمرتك حتى أجعلك حياً لا تموت.

يابن آدم! أنا أقول للشيء كن فيكون، أطعني فيما أمرتك، اجعلك تقول للشيء كن فيكون»[4].

وهل هنالك عظمة أكبر من هذه؟!

---

١ ـ سورة النجم، الآية ١٧.

٢ ـ سورة القمر، الآية ٥٥.

٣ ـ سورة الفجر، الآية ٣٠.

٤ ـ ميزان الحكمة، الحديث ١١٦١٨، عن مستدرك الوسائل، المجلد ١١، ص٢٥٨، الحديث ١٢٦٢٨.

«الروايات وعظمة الإنسان»

جاء في أحد الأحاديث القدسية:

«كنت كنزاً مخفياً فأحببت أن أعرف فخلقت الخلق لكي أعرف».

سبق لك أن التفت إلى أن المعرفة التامة لا ينالها إلا الإنسان الكامل. إذاً، الانسان هو المستهدف من خلق الكون. وأي إنسان؟ الإنسان الكامل. من هنا قال تعالى:

«لولاك لما خلقت الأفلاك».

وبهذا يتجلى معنى الآية:

﴿ما خَلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾.

من هنا نفهم ما يذهب إليه الجميع بأن العبادة أساسها المعرفة. فالخلق هدفه المعرفة وصاحب المعرفة هو الإنسان أي أنه هو المستهدف من الخلق.

نقرأ في حديث قدسي آخر:

«لا يسعني أرضي ولا سمائي ولكن يسعني قلب عبدي التقي النقي».

فافهم عظمة قلبك وروحك. لست ذاك الذي تعتلي ميزاناً فتشير عقربته إلى أنك تزن (٦٠) كيلوغراماً، وطولك لا يقاس بالمتر ويتحدد بأنه مثلاً متر وستون سانتميتر بل أنك لعلى عظمة أدهشت السماوات، وقد رأيت عجزها عن حمل الأمانة وتزيّنت بطاقة اليانصيب باسمك أنت لتحملها.. فقدرة استيعابك تتجاوز ما للمجرات جميعاً.

استمع إلى الإمام علي بن أبي طالب (ع) يحدثك عن شأنك ومنزلتك:

دواؤك منك وما تشعر وداؤك منك وما تنظر
وتحسبُ أنك جرم صغير وفيك انطوى العالم الأكبر
وأنت الكتاب المبين الذي بأحرفه يظهر المضمر

أما رسول الله ﷺ فانه يقول:

«المؤمن مرآة المؤمن».

مما فُسر به هذا الحديث هو أن لفظة المؤمن الثانية هي من أسماء الله الحسنى أي أن عبده المؤمن هو مظهر تجلي اسمائه وصفاته عز وجل لينظر إليه كلما أراد النظر إلى ذاته ولينظر العبد المؤمن إلى الله متى ما أراد تفهم عظمة ذاته.

واستناداً لما حدثتك به آتيك بأحاديث أخرى:

- قال رسول الله ﷺ:

«قلوب العباد الطاهرة مواضع نظر الله، فمن طهر قلبه نظر إليه».

- وعنه ﷺ أيضاً:

«ان الله تبارك وتعالى لا ينظر إلى صوركم ولا إلى أموالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم»[١].

جاء في الكافي عن الإمام الصادقعليه السلام أنه قال:-

«المؤمن أخو المؤمن كالجسد الواحد، إن اشتكى شيئاً منه، وجد ألم ذلك في سائر جسده، وارواحهما من روح واحدة، وإن روح المؤمن لأشد اتصالاً بروح الله من اتصال شعاع الشمس بها»[٢].

الآن وقد التفت إلى كل هذه العظمة تمهل لتعرف لمن كل هذه العظمة؟ أي مؤمن وأي إنسان؟

من هو صاحب كل هذه العظمة؟

كل ما عددته لك يعود للإنسان، للإنسان الذي لأجله خلق الخلق ولمن تأسوا به وحذوا حذوه وساروا على نهجه من بعد ذلك:

﴿لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة﴾[٣].

وإلا فإن مصيرك يؤول إلى ما يشير به القرآن الكريم في الآية:

﴿والعصر إن الإنسان لفي خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر﴾[٤].

---

١ ـ ميزان الحكمة، الحديث ١٦٩١٧.

٢ ـ الكافي، المجلد ٢، ص١٦٦، الحديث ٤، باب اخوة المؤمنين بعضهم لبعض.

٣ ـ سورة الأحزاب، الآية ٢١.

٤ ـ سورة العصر.

فحدود الموجودات جميعاً حدود محددة والمسافة بين حسنها وسيئها غير بعيدة بينما مسير الإنسان يتراوح بين أعلى عليين حتى أسفل السافلين، فقد يكون ممن يخاطبهم الله سبحانه وتعالى في الآية:

﴿يا ايتها النفس المطمئنة إرجعي إلى ربك راضية مرضية فادخلي في عبادي وادخلي جنتي﴾[١].

وقد يضج متضرعاً إلى ربه وهو يتلوى بين ألسنة نيران جهنم من الحرقة والآلام وعناء الفراق أن ينقذه منها، ولكنه تعالى شأنه:

﴿قال إخسئوا فيها ولا تكلمون﴾[٢].

فذاك مآب إلى الرب الرحيم وهذا رجاء من الخالق المنتقم.

الأول يقيم بمنتهى العزة والكرامة في ساحة ملك مضياف:

﴿إن المتقين في جنات ونهر. في مقعد صدق عند مليك مقتدر﴾[٣].

والآخر يسحب على وجهه بذل وهوان إلى مربط البهائم:

﴿اولئك كالأنعام بل هم أضل﴾[٤].

فهذا الفاصل العظيم إنما هو ساحة تضم إليها جميع بني الإنسان. فمن ياترى من شأنه التعالي وانتشال نفسه من وضعه في سورة «والعصر» حتى يستظل شجرة «طوبى» في جنات النعيم؟

---

١ ـ سورة الفجر، الآيات ٢٧ - ٣٠.

٢ ـ سورة المؤمنون، الآية ١٠٨.

٣ ـ سورة القمر، الآيتان ٥٤ و٥٥.

٤ ـ سورة الأعراف، الآية ١٧٩.

خلق الإنسان على أمثل هيئة واستقامة ثم ردّه ليقبع في حضيض عالم الطبيعة.

قال تعالى:

﴿لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم. ثم رددناه أسفل سافلين﴾[1].

ولكنه لم يترك وشأنه بل أغيث من رب الهداية بحبل الوحي، خوطب أن لا تلبث في وادي الذلة، اتركه لتنعم بالعزة، اخترق شرنقة الهوان لتتزين بعظمة الرحمن، فأنت كالنبي يوسف عليه السلام لا يليق بك مقام البئر فسلطان مصر للقائك في انتظار:

﴿واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا﴾[2].

فما طائل إمساكك بالحبل وأنت ترتضي قعر البئر موقعاً؟ تسلق الحبل وانتشل نفسك من البئر. انطلق من قعر عالم الطبيعة وعالم الملك إلى علياء الملكوت وعالم الأمر. وهذا ما يمكّنك منه اعتصامك بحبل الله.

تعلم أن المَضيف لا بد أن يليق بالضيف والعالَم مضيف الإنسان، فعالم الماديات محطة لبدنه وعالم المعارف يليق بوعاء روحه. إنما الضيف يكون دوماً أعز من المَضِيف. هكذا يعتبر الانسان العالم الأكبر.

يذكر القيصري في شرح الفصوص أن الباحثين يسمون الإنسان الكبير العالم المفصل.

---

١ ـ سورة التين، الآيتان ٤ و٥.

٢ ـ سورة آل عمران، الآية ١٠٣.

ونبينا الكريم ﷺ يؤكد أن لله عـباداً ليس مـن الأنـبياء ولكـن الأنبياء يغبطونهم ويتحسرون على مالهم من شأن ومقام.

ويشير ﷺ في حديث آخر إلى أن علماء أمته أفضل من أنـبياء بني إسرائيل.

وأنت تقرأ في القرآن الوجه الآخر لهذا الواقع في الآية:

﴿لقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس﴾[1].

---

١ ـ سورة الأعراف، الآية ١٧٩.

«وصف الأبرار في حديث المعراج»

استمع لي لألفت انتباهك إلى أنك وإن كنت ترى نفسك قد سقطت في البئر وتلوثت بالطين في قعره، ولكن لا بد أن تعرف ما هي قيمتك؟ فقد تعرض نفسك بأبخس الأثمان أحياناً ولا تجدن راغباً بالشراء. أمهلني آتيك بنبأ من بئر مصرك أنت.

يذكر الديلمي في إرشاد القلوب ما دار من حوار بين النبي محمد المصطفى ﷺ وربه ليلة المعراج. انقل لك منه ما يهمنا في هذا المقام:

«.. يا أحمد هل تدري أي عيش أهنأ وأي حياة أبقى؟

قال: اللهم، لا.

قال: أما العيش الهنيّ فهو الذي لا يفتر صاحبه عن ذكري، ولا ينسى نعمتي، ولا يجهل حقي، يطلب رضاي ليله ونهاره، وأما الحياة الباقية فهي التي يعمل لنفسه حتى تهون عليه الدنيا، وتصغر في عينه، وتعظم الآخرة عنده، ويؤثر هواي على هواه، ويبغي مرضاتي، ويعظّمني حق عظمتي، ويذكر عملي به، ويراقبني بالليل والنهار عند

كلّ سيئة ومعصية، وينقي قلبه عن كل مـا أكـره، ويـبغض الشـيطان ووساوسه، لا يجعل لإبليس على قلبه سلطاناً وسبيلاً، فإذا فعل ذلك أسكنت قلبه حبّاً حتى أجعل قلبه لي. وفراغه واشتغاله وهمّه وحديثه من النعمة التي أنعمت بها على أهل محبتي من خلقي وأفتح عين قلبه وسمعه حتى يسمع بقلبه وينظر بقلبه إلى جلالي وعـظمتي، وأضـيّق عليه الدنيا وأُبغّض إليه ما فيها من اللذات، واحذره الدنيا ما فيها كما يحذر الراعي غنمه من مراتع الهلكة، وإذا ما كان هكذا يفر من الناس فراراً وينتقل من دار الفناء إلى دار البقاء، ومـن دار الشـيطان إلى دار الرحمن.

يا أحمد ولأزيّننّه بالهيبة والعظمة، فهذا هو العيش الهنيّ، والحياة الباقية، وهذا مقام الراضين، فمن عمل برضائي ألزمه ثـلاث خـصال: اعرفه شكراً لا يخالطه الجهل، وذكراً لا يخالطه النسـيان، ومـحبّة لا يؤثر على محبتى محبة المخلوقين، فإذا أحبني أحببته وحببّتهُ، وأفتح عين قلبه إلى جلالي، فلا أخفي عليه خاصة خلقي، فأناجيه في ظلم الليل ونور النهار حتى ينقطع حديثه مع المخلوقين ومجالسته مـعهم، وأُسمعه كلامي وكلام ملائكتي، وأُعرفه السرّ الذي سترته عن خلقي، وأُلبسه الحياء حتى يستحي منه الخلق كلهم، ويـمشي عـلى الأرض مغفوراً له، وأجعل قلبه واعياً وبصيراً، ولا أخفي عليه شيئاً من جـنّة ولا نار، وأُعرّفه ما يمرّ على الناس يوم القيامة من الهوان والشدة، وما أُحاسب به الأغنياء والفقراء والجهّال والعـلماء، وأنـوّر له فـي قـبره، وأنزل عليه منكراً ونكيراً في حين لا يسألانه، ولا يرى غمّ المـوت

وظلمة القبر واللحد وهول المطلع، ثم أنصب إليه ميزانه، وأنشر له ديوانه، ثم أضع كتابه في يمينه فيقرأه منشوراً، ثم لا أجعل بيني وبينه ترجماناً، فهذه صفات المحبين[١].

إذاً، عرفت فيم تكمن العزة الحقيقية؟ وأية سعادات تنتظرك؟ فلم تتماهل؟ تأس بيوسف عليه السلام لتجلس على كرسي الحكم.. إبسط جناحي حظك. لا تكن كإخوة يوسف ظلموه وانتهى أمرهم أن يستجدوا منه.

فيوسفك هو دقائق عمرك الثمين وساعاته. وأنت قد تلقى به في غياهب العدم لاهياً لاعباً ثم تعود لتستعطي عودة ساعة منه يوماً ولكن لا يُلبى طلبك.

ورأيت كيف يمكنك أن ترقى إلى بهاء وعلياء تجعل الملائكة تتنزل عليك ويحدثك الله دون أي وسيط.

فلنعد إلى القرآن ونقرأ معاً:

﴿إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وابشروا بالجنة التي كنتم توعدون﴾.[٢]

خاطبك بأنك مربوب وليس لك انفكاك عن يد ربوبية الله ولو للحظة واحدة. فلا تغفل عن هذه الحقيقة قط ولا تشح بوجهك عن ربك. وهذا لا يحدث إلا إذا التزمت نهج عبودية الله وحده دون سواه.

---

١ ـ ارشاد القلوب، المجلد ٢، ص ٣٧٩ - ٣٨٠.

٢ ـ سورة فصلت، الآية ٣٠.

«مقام العبودية»

كان مطلع الشباب وطموح معرفته يعم وجودي وأنا في غفلة من كل شيء. أرشدني أحد الأصحاب لأتوجه إلى ديار ما وأزور فيها أحد العرفاء. قبلت يده ومدمعي سائلاً ولساني عن طموحات قلبي معبّراً لعله يرويني بقطرة من شراب سقاه به الحبيب. ألقى إليّ نظرة، نظرة العاقل إلى السفيه، وبذل لعينيّ المتوهجتين ابتسامة مليحة، ثم قال:

- في منتهى البساطة، ما تطلبه نهتدي إليه برمته بتطبيق عبارة واحدة: إفعل ما يأمرك به وانته عما ينهاك عنه. ثم أدار وجهه وهو يمسح دموعه عن عينيه ونفسه تعتلج الشعور بالرضا وكأنه مفلس أعيدت إليه ثروته كلها ثانية. انصرفت من عنده وسذاجة الشباب تخيل إليّ قد أصبحت عارفاً زاهداً، وأنا قد عقدت العزم على أن التزم بتنفيذ وصيته طوال حياتي. ولكنني كلما ازددت توغلاً في هذا الطريق وجدته أكثر ضيقاً وأصعب سلوكاً.

على أية حال، يتركز هذا التأكيد حول لفظة «العبودية» فإن كانت منك لله غدوت ملكاً وسلطاناً وإن ارتضيتها لغيره فمتسولاً. إحن رأس العبودية في حضرته وارتدع عن الركوع أمام سواه. خذ درس العبودية عن ذاك الغلام البسيط الذي أتيتك بحكايته في مبحث «التخلي». دعني أكررها عليك فالنكهة لا بأس بها مع كل طعام.

يقول سهل «التستري» إنه اشترى غلاماً فجاء به إلى داره فسأله عن اسمه، قال: ما تسميني به. سأله عما يأكل، قال: ما تقدمه لي. سأله عما يرتدي، قال: ما تأتيني به! سأله عما يريد، قال: وأنّى للعبد أن يطلب؟!

هذا هو نهج العبودية وهو في الحقيقة تسليم الأمر للمولى وهو من شأن الأنبياء والأولياء وأنت تقرأ مراراً كل يوم في صلواتك أثناء التشهد: أشهد أن محمداً عبده ورسوله. فشرفه كان في عبوديته قبل أن يناله برسالته. فما اجتباه ربه لحمل الرسالة لولا سموه في عبوديته. وأنت تقرأ عن سيد والهي العالم الإمام أبي عبد الله الحسين عليه السلام قوله في تضرعه لله:

«كفى بي فخراً أن أكون لك عبداً».

والشيخ عبد الله الأنصاري يترنم لله إن هو ناداه مرةً واحدةً يا عبدي، فسوف يخترق صدى ضحكه (ابتهاجاً) العرش.

إلهي لا ترفع سلسلة عبوديتك عن عاتقي فإنها عبودية أسمى من الملكية.

إلهي ما زلت امسك بقوة بعروة بابك فإن لم تتقبلني ضيفاً فحسبي

فخراً أن ألبث ببابك وكأني عروته وما أعظمهُ من اعتزاز.

اسمع مني حديثاً عن الإمام الصادق ﷺ آتيك به من كتاب «مصباح الشريعة»:

«العبودية جوهر كنهها الربوبية، فما فقد من العبودية وجد في الربوبية، وما خفي من الربوبية أصيب في العبودية».

قال الله تعالى: «سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق او لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد». أي موجود في غيبتك وفي حضرتك.

وتفسير العبودية بذل الكل، وسبب ذلك منع النفس عما تهوى وحملها على ما تكره، ومفتاح ذلك ترك الراحة وحب العزلة، وطريقه الافتقار إلى الله تعالى.

قال النبي ﷺ: أعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك.

وحروف العبد ثلاثة (ع ب د)، فالعين علمه بالله، والباء بونه عمن سواه، والدال دنوه من الله تعالى بلا كيف ولا حجاب..».

***

والآن وقد التفت إلى قيمتك ومنزلتك وإلى أن أهداف وجودك لا تتحدد بالدنيوية المنحطة.. الآن وقد هديتك إلى معرفة ضالتك، أمهلني لأرشدك إلى سبيلك إليه وطريقك لبلوغ غايتك. انتعل بما يكفك النصب في مسيرك، واحمل زادك، واتخذ أولى خطواتك على الطريق،

واشدد حزامك، وابدأ السير بخفة، فربك في انتظارك.

أما قرأت في دعاء أبي حمزة الثمالي، عبارة:

«واعلم أنك للراجين بموضع إجابة وللملهوفين بمرصد إغاثة..».

«نكهة»

لا أراني الله زادك في مائدة ضيافتك دون نكـهة. لأزيـدك رغـبة وشهية خذ عني هذه النكهة:

قلت: ملوث أنا.

قال: ادخل من باب التوبة فإنه مفتوح على مصراعيه دوماً.

قلت: أريد قربك.

قال: خرّ ساجداً.

قلت: أنصرني.

قال: كن ناصراً لديني.

قلت: ورحمتك؟

قال: وسعت كل شيء.

قلت: وقدرتك؟

قال: ذل لها كل شيء.

قلت: ونور وجهك؟

قال: أضاء كل شيء.

قلت: وما المسافة إليك؟

قال: إني اقرب إليك من حبل الوريد.

قلت: أريد أن أكون لك.

قال: وأنا أيضاً لك.

قلت: متى أبدأ؟

قال: أنت متأخر حتى لو بدأت اليوم.

قلت: والهدف الأسمى؟

قال: الجلوس في مقعد صدق عند مليك مقتدر.

قلت: أريد قلباً هادئاً مستقراً.

قال: ألا بذكر الله تطمئن القلوب.

قلت: ماذا أفعل بلوعة حبك في قلبي؟

وردُ الشقيق ردَّ ساخراً: لا تبلغ ما بي منها.

قلت: شفاهي تترنم بتسبيحك.

الرعد هدر: لا تقوى على ما لتسبيحي من صدى.

قلت: ماذا أقول متى ما أتيتك؟

قال: ما يحلو لك ويريح قلبك المحزون.

قلت: شغلني همك.

قال: ينتهي بعد حين.

قلت: فأما تأخذني إليك في هذا السبيل أو تجعل الشهادة فيه

نصيبي.

قال: فأما أخذتي فطرب وأما الشهادة في سبيلي فشرف.

«معرفة الله»

ايها العزيز السالك!

لما لم تهتد المخلوقات إلى نهاية العالم ويحدد أمثال الشاعر «أبي شكور البلخي» مدعاة اعتزازه بعلمه بأنه اطلاه على جهله حيث يقول:

«تــا بـجائي رسـيد دانش مـن

كه بدانـم هـمي كـه نـدانـم»[1]

أنّى لك ان تقتنع في معرفتك لعالم الخلق بعدة كلمات قرأتها فـي كتاب ما أو سمعتها من منبر؟! فالقناعة في مجال المعرفة هي جـهل محض. فإن كنت عازماً على المضي في هذا السبيل فخطوتك الأولى هي معرفة الطريق ومعرفة المبتغى ومعرفة السالك. تحدثنا إلى حد ما عن معرفة السالك وسوف نأتي عـلى الحـديث عـن مـعرفة النـفس الإنسانية بتمامها لاحقاً إن شاء الله. أما الآن فأنت متلهف لمعرفة الله. فاعلم أن الإمام علياً عليه السلام يصفها في قوله:

---

١ ـ معناه: «علمي بلغ حداً، نبهني بأنني لا أعلم شيئاً».

«معرفة الله أعلى المعارف».

وأنت تعرف أن قيمة أي علم وتفرعاته تتحدد بحسب موضوع العلم. فلا علاقة لعلم الأرض (البايولوجي) بعلم الطب ما دام موضوع ذاك الأرض وهذا جسم الإنسان. وكيف لك أن تعرف قيمة علم لا يدرك العقل ذروة عظمته وذاك هو معرفة الحق تعالى وكنه وجوده وصفاته وأفعاله. فإن كان الناس على علم بقيمة هذه المعرفة ما تقصوا غيرها وما أعاروا اهتماماً لأي أمر آخر لأنهم يستخفون من بعدها بكل شيء سواها.

في حديث له يؤكد الإمام الصادق عليه السلام أنه لو كان للناس إدراك بقيمة معرفة الله عز وجل لما انشغل بالهم بما وهب لأعدائهم ولَتَضاءل بهاء النعم المادية في أعينهم إلى ما دون ما تطأه أقدامهم. فمن ظفر بمعرفة الله كأنه من أمثال المقيمين في روضات الجنة مع أحباء الله. فللإنسان، بمعرفة الله، في كل رهبة سكينة، وفي كل وحدة أنيس، وفي الدياجير نبراس، وعند الضعف قوة ولكل ألم علاج.

واعلم أن قيمة العبادات تقدر على قدر المعرفة، مما جعل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول بأن نوم العلماء أفضل من عبادة المتعبدين وإن كان العالم راقداً في سريره والعابد يجلس على سجادته.

لو أغفلت روحك وقلبك عن نعم المعرفة يبدو لك العالم ظلمانياً ولو كانت أعين رأسك صفحتين تؤديان وظيفتهما بجد.

يقول حبيب الله المصطفى محمد صلى الله عليه وآله وسلم:

«... وشر العمى، عمى القلب»[١].

قد يموه لك الشيطان بأنه شفق عليك ويقول: أيها المسكين العاجز! مالك ومعرفة الله؟ رد عليه:ايها الماكر! لو لم يكن في طلب العلم اعتزاز لما تتالت الأوامر والتوجيهات هكذا لاكتسابه ثم أن استحقاق الطلب بحد ذاته دليل على وجود المطلوب. فلا يخيلن لك قط أنك تبتغي معدوماً؟

يقول الله تعالى:

﴿أمّن هو قانت آناء الليل ساجداً وقائماً يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه، قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون إنما يتذكر أولو الألباب﴾[٢].

تعمق في الآية، تنبه فيم أتى بحث العلم وأي موضوع سبقه؟ فلا تنسبن هذه القيمة لأي علم كما يفعلون. فموضوع البحث في الآية هم القانتون الساجدون القائمون آناء الليل، الذين يخشون ربهم ويرجون رحمته. وهو القائل بأنه أفضل معرفة يبلغها العالم هي خشية الله.

﴿إنما يخشى الله من عباده العلماء﴾[٣].

إذاً، لو لقيت من أصحاب المؤهلات والمتغربين تحاملاً على الدين واغتراراً بأنفسهم واقتناعاً بالعلوم المادية، ووجدتهم يأبون السجود في حضرة الحق تعالى فلا تحسبنهم علماء فقد وصفهم الباري عز

---

١ ـ من لا يحضره الفقيه، المجلد ٤، ص٤٠٢.

٢ ـ سورة الزمر، الآية ٩.

٣ ـ سورة فاطر، الآية ٢٨.

وجل في الآية:

﴿مثل الذين حمّلوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفاراً بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله والله لا يهدي القوم الظالمين﴾.[١]

* * *

التفت رسول اللهﷺ ذات يوم إلى حلقتين عقدتا في المسجد، فمجموعة انشغلت بالدعاء وأخرى بتحري أغوار الدين والفقه، فأشار إلى أن كلا الفريقين يحسنان عملاً ولكن المتعلمون أفضل، منوهاً بأنه بُعث لأداء مهمة التعليم.

فيا أيها العزيز!

إعلم أن فقدان البصر مَصاب جلل ولكن الأدهى منه عماء البصيرة: عماء عين القلب والروح.

في حديث له، يقول الإمام علي ﷺ:

«إنما الأعمى عمي القلب، فإنها لا تعمى الأبصار، ولكن تعمى القلوب التي في الصدور».

وتعمق في مفهوم حديث آخر للإمام جعفر الصادق ﷺ حيث يقول بأن الله العظيم يجمعن الجميع إليه يوم القيامة ويضع الميزان: في كفة منه دماء الشهداء وفي الأخرى حبر دواة (مداد) العلماء فيثقل المداد إزاء الدماء.

---

١ ـ سورة الجمعة، الآية ٥.

ويروى عن الإمام موسى بن جعفر الكاظم عليه السلام أنه قال لهشام:
«يا هشام! ان لقمان قال لابنه:
تواضع للحق تكن أعقل الناس. وإن الكيّس لدى الحق يسير. يا بني! إن الدنيا بحر عميق، قد غرق فيها عالم كثير، فلتكن سفينتك فيها تقوى الله، وحشوها الإيمان. وشراعها التوكل، وقيّمها العقل، ودليلها العلم، وسكانها الصبر».[١]

وعنه عليه السلام أيضاً، أنه قال لهشام بن الحكم:
«يا هشام! نُصب الخلق لطاعة الله، ولا نجاة إلا بالطاعة. والطاعة بالعلم، والعلم بالتعلم والتعلم بالعقل يُعتقد، ولا علم إلا من عالم رباني ومعرفة العالم بالعقل...»[٢].

إذاً، ايها العزيز! إجهد في طلب العلم وثبّت خطاك في طريقك إليه فقد بشّرك الله بعظيم بشرى في الآية:

﴿وَأَلَّو استقاموا على الطريقة لا سقيناهم ماء غدقاً﴾.[٣]

يفسر الإمام الباقر عليه السلام العبارة: (ماء غدقاً) في الآية الآنفة بأنه العلم الوفير المتأتى من قبل الائمة عليهم السلام.

حدثتك بأنك خزان العالم، وخزانك يستوعب جميع العوالم. فمهما

---

١ ـ ميزان الحكمة، الحديث ٢٢١٣٧.

٢ ـ ميزان الحكمة، الحديث ١٣٨٧٥، ومستدرك الوسائل، المجلد ١١، ص٢٥٨، الحديث ١٢٩٢٦.

٣ ـ سورة الجن، الآية ١٦.

تعبىء من العلم في روحك تتقصى منك المزيد.

يقول الإمام علي عليه السلام:

«كل وعاء يضيق بما جعل فيه إلا وعاء العلم فإنه يتسع».

والعلم المطلوب لا هو علم الصرف والنحو، فبدو الحجاز يتقدم حتى جهلتهم عليّ وعليك بفصاحتهم وبلاغتهم، ولا هو الفقه، فإنه وإن كان ضرورياً ولكنه يمثل مقدمة لا هدفاً، ولا هو علم الفلسفة او العرفان فقد يتحول الالتزام الزائد بمدلولات نفس هذه العلوم إلى حجاب يعيق سلوكك. كل هذه العلوم غايتها انتشالك من حضيض الطبيعة الإنسانية إلى علياء الحقيقة الربانية. فاكتفاؤك بهذه العلوم قبل اتصالك بالمعلوم الحقيقي وتعلقاتك الزائدة بها، كلها تتحول حجباً في طريقك فلربما يظفر بمعرفة المعلوم من لم يتقصه من دور العلم، فنبينا صلى الله عليه وآله وسلم لم يدرس علماً ولكنه كان معدن المعرفة.. فبطرفة عين تقدم تلميذ الوحي الإلهي على مئات الأساتذة والعلماء.

ولتعلمن أن طريق بلوغ هذه الحقيقة هو إدراك معارف القرآن وتطبيقها والتحول من ثم إلى قرآن ناطق. وهذا مقام أولاه الله سبحانه وتعالى للأزكياء الأطهار في قوله: «لا يمسه إلا المطهرون»، لم يقل «إلا العالمون» كما أنه حدد السبيل إلى الفلاح بتحقيق التزكية حيث قال: ﴿قد أفلح من زكاها﴾ و﴿إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾ ولم يقل «أعلمكم».

بالطبع لا يتعارض هذا الكلام مع قيمة العلم ولكي لا تستشكل عليّ فتقول: بدأت كلامك في البحث بالحديث عن قيمة العلم فما بالك تهدم قصراً بنيتَه؟ فاعلم أني ما بنيته إلا لتقف على سطحه فتصبح أكثر

قرباً إلى سماء معرفة الحق. فلولا الوقوف على هذا السطح لا يكون لك من هذه المعرفة إلا وبالاً، لأنه اما يُصبحك عبداً للدنيا والجاه أو يزيدك عجباً.

والشاعر «مولوي» كان يقول «صنع هذا السلم لتخرج به من البئر لا أن تنزل به إلى بئر غيره بعد خروجك».

فلتعلمن أن بئر عبودية الدنيا وحب الجاه والتكبر لأخطر وأكثر عمقاً بكثير من بئر الأمية.

ما زال بنو الإنسان منذ ألف عام يتابعون ضرب زيد لعمرٍو ليفهموا إعراباً ويستمع كل منهم لاحكام الشكيات عشرات السنين من منبر المسجد طالباً للشبهات فهماً، والملفت أنهم ما أن يستوعبوها حتى يخيل لهم أنهم غدوا علماء.

يقول تعالى:

﴿وما يستوي الأعمى والبصير ولا الظلمات ولا النور ولا الظل ولا الحرور وما يستوي الأحياء ولا الأموات﴾.[١]

و

﴿أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه فويلٌ للقاسية قلوبهم من ذكر الله، اولئك في ضلال مبين﴾[٢].

قرأت بحث الآيات حول إشعاعات النور الالهي وانتشاره في

---

١ ـ سورة فاطر، الآيات ١٩ ـ ٢٢.

٢ ـ سورة الزمر، الآية ٢٢.

القلوب المتفتحة، الواعية للحقيقة، الراغبة في اتقاء الغفلة. فاعلم أن الغفلة ضلال جلي، وقد أكد الإمام الصادق ﷺ أن كل ما يمنع الإنسان عن الله فهو صنمه (إي إلهه الذي يستعبده).

بسلوكنا هذا غاب عن الأذهان سوء فعل «آزر» فإن كان ينحت في الشهر وثناً فإننا ننحت العشرات منها يومياً، والملفت أننا نتبجح مع ذلك بانتمائنا إلى زمرة الموحدين.

«الحب نكهة تُستذوق لا موضوع يُدرس»

لا شك أن القرآن خزان لجميع المعارف الالهية.. ولكل شخص نور من فيضه، ولكن وكما أخبرتك لا حظّ لك من قبساته إلا بعد تزكيتك لنفسك. وقد قال عز وجل أن إدراك معارفه لا يكون إلا للمطهرين. لا تعجب من ظهور حالات خاصة لدى البعض أثناء قراءة القرآن مثل تلك التي كانت لرسول الله ﷺ عند نزول الوحي عليه.

إنهم مثال لحديث الإمام الصادق عليه السلام إذ يقول:

«إن الله قد تجلى لعباده في كلامه ولكنهم لا يعلمون».

لا تتصور أن هذه الحالات خاصة بالأنبياء حيث لم يوصد الله أبواب معرفته في وجه مخلوقاته.

أنت تستوحي هذه الحقيقة من قول الرسول الكريم ﷺ بأن له عباداً ليسوا من الأنبياء لكن الأنبياء يغبطونهم على ما لهم من مقام عند ربهم.

لا يغيبن عنك قوله ﷺ أيضاً:

«علماء أمتي أفضل من أنبياء بني إسرائيل».

وقد جاء وصف حال هؤلاء في الآية:-

﴿وإذا سمعوا ما أُنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق، يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين﴾[١].

ولكن مع ذلك كثيرون هم الذين كانوا يصغون لهذه الآيات فيتخذونها هزواً ويحسبونها لهواً وعبثاً.

ونمط الإفادة من القرآن هو الآخر لم يكن متماثلاً على طول الخط لعدم تماثل الناس في مستوى تطهرهم ومعرفتهم. وفئة كبيرة من جهلة الناس يخيل إليهم أن القرآن هو بالتحديد ما يظهر من مفهوم كل عبارة من عبارات آياته بينما جاء في المقدمة الثامنة من تفسير الصافي الحديث النبوي الشريف:

«إن للقرآن ظهراً وبطناً. ولبطنه بطناً إلى سبعة أبطن».

فخطاب القرآن يستوعبه كلٌ بحسب أحوال قلبه. هذا ما تؤكده الآية:

﴿إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد﴾[٢].

ربما تقول: الائمة هم مفسرو القرآن. هذا ما لا ننكره ولكنهم وضعوا أسس التفسير بما ينسجم وشأن السامع أو السائل. جاء في الكافي أن رجلاً أشار على الإمام جعفر الصادق عليه السلام أنه رد على كذا سؤال له

---

١ ـ سورة المائدة، الآية ٨٣.

٢ ـ سورة ق، الآية ٣٧.

بنحو وعلى نفس السؤال لفلان بنحو آخر، فأجابه ﷺ أنه قد يجيب عليه إن سأله ثالث بنحو آخر لأنهم يتحدثون إلى الناس بحسب قابلياتهم وقوابلهم.

وإننا نعلم أن ليلة القدر حددت بأحد ليال ثلاث من ليالي شهر رمضان المبارك إلا أن الإمام الصادق ﷺ حدث شخصاً ما بأن ليلة القدر هي جدته الزهراء ﷺ. تعمّق فالتباين بين هذين التفسيرين شاسع كبعد السماء عن الأرض.

ويؤكد ابن سينا في رسالته «المعراجية» ان رسالة الأنبياء كانت تفرض عليهم أن يبيّنوا كل معقول يدركونه من خلال المحسوسات ليدركه عامة الناس فلا يبقى خطابهم مخفياً.. وليعلموا أن كلام النبي وأقواله إنما هي رموز عقلانية تستشف منها المعقولات.

نفس هذا المضمون يتبين لنا من خلال الحديث التالي:

«أُمرنا أن نكلم الناس على قدر عقولهم».

وفي بحث توحيدي للإمام علي بن أبي طالب ﷺ جاء:

«وليس كل العلم يستطيع صاحب العلم أن يفسره لكل الناس، لأن منهم القوي والضعيف، ولأن منه ما يطاق حمله، ومنه ما لا يطاق حمله».[1]

لم يكن للرسول ﷺ كثرة من الصحابة: وقلما كان منهم عنده بمنزلة سلمان الفارسي وأبي ذر الغفاري، ومع أن كليهما كانا من اتباع

---

١ ـ ميزان الحكمة، الحديث ١٩١٣٣.

نهجه، وليس هنالك أدنى شك في حقيقة قربهما إليه وصدق إيمانهما بدينه، قال رسول الله ﷺ أنه لو علم أبو ذر بما في قلب سلمان لقتله.

فيما يخص هذا الحديث لنا أن نتساءل:

- هل كان ذلك لحسد من أبي ذر إزاء سلمان؟

من المسلم به أن قلب أبي ذر كان يخلو من الحسد فهو أسمى من هذه التلوثات.

- فهل كان ذلك لإشكال في دين سلمان وإيمانه؟

لو كان هكذا لماذا قال رسول الله ﷺ: «سلمان منا أهل البيت».

إذا، لا يبقى أمامنا مجال او تفسير يوضح به مغزى الحديث إلا ان نتيقن من أن ادراك نمط ايمان كل منهما كان مستعصياً على الآخر، بل قد يبدو له كأنه ضرب من الكفر.

ما نريد ايضاحه في هذا البحث هو أن القرآن نهر فياض يمر بالجنبات والطحالب والأشنات والأشجار، الصغيرة منها والعملاقة، كلها أحاطت بهذه المائدة السماوية. ولكن كل منها ينهل منها على قدر استيعابه، فأحاديث الائمة عليهم السلام وإن كانت كلها في منتهى الصحة ولكن كل منها يتلاءم مع قابلية المستمع او السائل.

فالأدعية، وهي الأوراد المتضمنة لتضرعات الائمة، هي الأخرى شأنها شأن القرآن جديرة بالتعمق على هذا الصعيد. وكثير منها يفيض بالمعارف العرفانية البحتة. فأدعية كدعاء كميل ودعاء أبي حمزة

الثمالي ودعاء السحر والمناجاة الشعبانية وأدعية الصحيفة السجادية زاخرة بهذه الكنوز الثمينة.

«لا إدراك للمعارف الإلهية دون تزكية النفس»

قرأت في القرآن الكريم أنه ﴿لا يمسه إلا المطهرون﴾، وأنت تلقى الأحاديث المروية عن الائمة عليهم السلام وأولياء الله باعتبارها هي الأخرى هكذا أيضاً حيث لم يكونوا إلا مبلغين دعاة للمعارف القرآنية. من هنا لا بد من الالتزام بهذا الشرط (التطهر) في التعامل مع أحاديثهم أيضاً.

ولكن لا يتيسر للإنسان التعمق إلى أغوار هذه المعارف ما لم يشع نور التزكية في وجوده فينير أرجاء روحه وقلبه. فكما لا تتم رؤية الأشياء المادية إلا عن طريق النور فالمعارف الالهية هي الأخرى رؤيتها تتطلب اشعاعات الأنوار المعنوية.

هذا ما تتوثق منه بقراءة الآية:

﴿أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه﴾[1].

وأنه النور الذي يظفر به العبد المؤمن في ظل ولاية الحق تعالى.

---

١ ـ سورة الزمر، الآية ٢٢.

إقرأ معي قوله تعالى:

﴿الله ولي الذين آمنو يخرجهم من الظلمات إلى النور﴾.[1]

قد تعقد جلسات حول هذه المعارف ويتم التحاور حولها ثم ينهض المتحاورون وينصرف كل إلى جهته، ولكن هذه الأحاديث، في مثل هذه الحالة، تنطلق من الحناجر فقط، فلا يكون لها أي صدى في القلوب والنفوس. والمؤشر على ذلك انعدام الانسجام عملياً بين أقوالهم وافعالهم. فتوحيدهم على اللسان وشركهم في القلوب. لهم في الرضا برضا الله والتسليم لأمره مائة حكاية ومع كل أذى مائة شكاية. دعنا من هذا الكلام لنعد إلى موضوعنا.

إلهي نور قلوبنا بما وعدت أحباءك من النور، لنمضي في سبيلنا إليك بضياء إدراك المعارف الحقة حتى نبلغ مقام لقائك فلولا ذلك النور، أعيننا عمياء لا تبصر شيئاً.

يقول الله تعالى:

﴿ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور﴾.[2]

وفي باب الإخلاص من كتاب الكافي نقرأ حديثاً للإمام الباقرعليه السلام يؤكد فيه أنه ما كان لعبد إيمان خالص بالله أربعين يوماً حتى أزهده الله في الدنيا وأظهر له آلام الدنيا ودواءها وأقرّ الحكمة في قلبه وأنطق بها لسانه.

---

١ ـ سورة البقرة، الآية ٢٥٧.

٢ ـ سورة النور، الآية ٤٠.

هذا هو ما ينص عليه حديث «الأربعين» الشريف حيث يقول رسول الرحمة محمدﷺ: «من أخلص لله أربعين صباحاً ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه».

ولكن تنبه إلى أن ينبوع الحكمة لا يجري في قلب المؤمن إلا في ظل الإخلاص وتزكية النفس. من هنا لا يكون لنا سبيل إلى هذه الحضرة محملين بالتلوثات.

يروى عن النبي عيسى ابن مريم روح الله عليه السلام حديث رائع قال فيه: «معشر الحواريين! لم يضركم من نتن القطران إذا أصابتكم سراجه، خذوا العلم ممن عنده، ولا تنظروا إلى عمله».

وفي حديث آخر له عليه السلام يمنعهم ان يقولوا (أن العلم في السماء فمن يقوى على الصعود إليه أو أنه في أعماق الأرض فمن يستطيع النزول إليه). ويردف أن العلم في قلوبهم، ثم يأمرهم ان يتأدبوا بآداب الروحانيين ويتخلقوا بأخلاق الصديقين ليتجلى العلم المكنون في قلوبهم ويعمهم بأنواره.

إستزد بكل طاعة ذخرك لتكسب قدرة استيعاب معرفة الحق تعالى، فالمعارف الإلهية لا تُعبّأ في الأقفاص الضيقة.

ولهذا توجه كليم الله عليه السلام إلى ربه متضرعاً أن: ﴿رب اشرح لي صدري﴾. وخاطب ربك نبيه محمد ﷺ بالقول: ﴿ألم نشرح لك صدرك﴾، فما طلبه كليم الله ناله حبيب الله تلقائياً. ونحن بدورنا نطلب من الله أن يزيدنا شرحاً للصدر واستيعاباً بفيض من نور الولاية المحمدية ﷺ لنكون جديرين بتلقي معارفه الحقة، فانا وأنت إلى كل

علم فقراء ونعلم أن نفوس الأبرار بمئات الكنوز منها أغنياء.

جاء في صحيح مسلم الحديث التالي:

«إن قلوب بني آدم كلها بين أصبعين من أصابع الرحمن كقلب واحد يصرفه حيث يشاء».

فقلب المؤمن أحب شيء إلى الله تعالى من بين المخلوقات أجمعين، فكل قلب لا يغفل عنه في خضم هذه المعمعات يزداد استيعابه إطراداً حتى يغدو مقراً لله تعالى حيث أن «قلب المؤمن عرش الرحمن».

أسرار ومعارف لم يجر البحث حولها:

يروي كميل بن زياد أنه رأى الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام وقد أدخل رأسه إلى فوهة بئر وهو يتحدث، فساله إن كان هنالك أحد في البئر فأجابه بالنفي ثم وضع يده على صدره وهو يقول بأنه (صدره) معدن الأسرار وأنه لا يعثر على متنعم بقابلية تؤهله لتقبلها فاضطر للتحدث إلى البئر.

أوَ تعلم أية مأساة مضنية أن يتصدع صدر ما من ضغط فوران المعارف ولا يعثر الإمام علي عليه السلام في عهده على من يقوى على تقبلها؟!

يروي الديلمي في «إرشاد القلوب» عن سفيان الثوري أنه قال:

«قصدت جعفر بن محمد عليهما السلام فأذن لي بالدخول، فوجدته في

سرداب ينزل اثنتي عشرة مرقاة، فقلت:

- يابن رسول الله! أنت في هذا المكان مع حاجة الناس إليك.

فقال:

- يا سفيان فسد الزمان، وتنكر الاخوان وتقلبت الأعيان، فاتخذنا الوحدة سكناً، أمعك شيء تكتب؟

قلت:

- نعم.

فقال:

- اكتب:

لا تجزعن لوحدة وتفرّد ومن التفرد في زمانك فازدد

فسد الإخاء فليس ثَمّ اخوّة إلا التملق باللسان وباليد

وإذا نظرت جميع ما بقلوبهم أبصرت ثَمّ نقيع سم الأسود

فإذا فتشت ضميره عن قلبه وافيت عنه مرارة لا تنفد».[1]

كما يروى أن الإمام الحسن المجتبى عليه السلام رفع يديه وهو يقسم بأنه لو كان له بعدد هذه الأنامل أنصار لما تقبل الصلح مع معاوية.

وكم كان عدد أنصار الإمام علي عليه السلام يوم اغتُصب حقه في الخلافة؟ وكم من هؤلاء الأشخاص كان يستوعب معارف علي عليه السلام؟

١ ـ الديلمي، إرشاد القلوب، المجلد ١، ص١٩٦ - ١٩٧، الباب ٢٦: في الخمول والاعتزال.

ونحن نقرأ في حديث «الحقيقة»، الذي سآتيك به لاحقاً، أن كميل بن زياد (ره) كان منفرداً مع الإمام علي عليه السلام في البيداء يوماً فسأله عن الحقيقة، فأجابه ماله والحقيقة؟ رد عليه كميل متسائلاً أو لا يعتبره الإمام عليه السلام من أصحاب سره ولكنه ما حصل منه إلا على جواب غامض.

يتبين من هذا الحديث:

- أن الإمام علي عليه السلام ما كان يحدث الجميع بكل شيء،
- كان كميل موضع اسرار علي عليه السلام،
- ربما لم يكن لكميل استيعاب لتقبل جميع الأسرار.
- من المستبعد أن يكون كل ما بثه الإمام علي عليه السلام وبقية الائمة عليهم السلام إلى الآخرين سراً، قد وصلنا عن طريق الروايات.

ويقول صدر المتألهين في تفسيره لسورة الحديد أن هذه السورة قد حازت على قدر أكبر من تفكيره وتعمقه لما تشتمل عليه من الأسماء الالهية، مما دفعه لتفسيرها أولاً حتى أطلع على حديث للإمام السجاد عليه السلام يؤكد فيه أن الله سبحانه وتعالى لما كان يعلم أنه سوف يحيا في آخر الزمان أناس يتعمقون في التفكير أنزل آيات سورتي التوحيد والحديد. ويعقب صدر المتألهين على كلامه بأن دموع الوجد أندت وجهه برؤية هذا الحديث.

ومن الأمور الأخرى التي تستوحى من هذا الحديث هو أن الاطلاع على المعارف يتطلب خلفية زمنية أيضاً، فبذور المعارف نثرت في

قلوب المسلمين مع نزول القرآن، بذور سقاها الائمة عليهم السلام، وبالطبع كل بذرة تتطلب مرور فترة من الزمن لتعطي ثمارها.

وللشيخ شلتوت أحد رؤساء جامعة الأزهر المعاصرين لآية الله البروجردي (قده)، وهو صاحب خطوات بناءة اتخذها على طريق اتحاد المجتمع الإسلامي بجميع أطيافه، فيما يخص الآية:

﴿سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق..﴾.

رأي خاص حيث يذهب إلى أن هذه البشرى المستقبلية تتعلق بتكامل المعارف الآفاقية والأنفسية وهو مما يتطلب زماناً خاصاً وفاعلية وتقصي عدة أجيال، وانه لفي منتهى الوضوح أن الرؤية الكونية لأي عالِم معاصر تختلف بدرجات عمن سبقه بألف عام.

لنعد إلى نهج البلاغة فنقرأ بتعمق العبارات التالية عن الإمام علي عليه السلام:

«العلماء باقون ما بقى الدهر، اعيانهم مفقودة، وأمثالهم في القلوب موجودة، هاه (آه آه) إن هاهنا – وأشار بيده إلى صدره – لَعلماً جمّاً لو أصبت له حملة بلى أصبت له لقناً غير مأمون، مستعملاً آلة الدين في طلب الدنيا، ومستظهراً بحجج الله على خلقه، وبنعمه على عباده ليتخذه الضعفاء وليجة من دون وليِّ الحق. أو منقاداً لحملة العلم، لا بصيرة له في أحنائه، ينقدح الشك في قلبه بأوّل عارض في شبهة.

ألا، لا ذا، لا ذاك، أو منهوماً باللذات، سلس القياد للشهوات، أو مغرماً بالجمع والإدّخار، ليسا من رعاة الدين، أقرب شبهاً بهما الأنعام السائمة!

اللهم! بلى لا تخلو الأرض من قائم لله بحجة إما ظاهراً مشهوراً وإما خائفاً مغموراً لئلاً يبطل حجج الله وبيناته، وكم ذا وأين أولئك، أولئك الأقلون عدداً الأعظمون عند الله قدراً؟[١]

بلى، هذه هي آلام علي عليه السلام وشواغل قلبه. والآن فكر ماذا عساه يكون بلغنا من هذا المحيط العميق بعد ألف وأربعمائة سنة إلّا قطرات من ندى؟!

ودوماً وجِّه التأكيد إلى أصحاب المعارف أن يتكلموا على قدر عقول المخاطبين وقابلية فهمهم. هكذا عليهم أن يبلّغوا معارف الائمة إلى الآخرين.

إقرأ معي الأحاديث التالية:

قال الإمام علي عليه السلام:-

«أتحبون أن يُكذَّب الله ورسوله؟ حدّثوا الناس بما يعرفون، وأمسكوا عما ينكرون».[٢]

ومن كلام للإمام علي عليه السلام وجّهه إلى حذيفة بن اليمان:

«يا حذيفة! لا تحدث الناس بما لا يعلمون فيطغوا ويكفروا. أن من العلم صعباً شديداً محمله لو حمل على الجبال لعجزت عن حمله. ان علمنا أهل البيت سيتنكر ويبطل وتقتل رواته ويساء إلى من يتلوه بغياً

---

١ ـ ميزان الحكمة، الحديث ١٣٨٧١.

٢ ـ ميزان الحكمة، الحديث، ٣٣٨٩.

وحسداً لما فضل الله به عترة الوصي، وصي النبي ﷺ».[١]

وعن الصادق عليه السلام:

«إن احتمال أمرنا سرَه وصيانته عن غير أهله. فاقرأهم ويقصد الشيعة السلام ورحمة الله، وقل لهم، يقول لكم: رحم الله عبداً اجترّ مودة الناس إليّ وإلى نفسه يحدّثهم بما يعرفون، ويستر عنهمماينكرون».[٢]

ايها العزيز!

المعارف بحار، ولا بد لك أولاً إعداد في الدار ثم للحديث عن البحر انطلاق وإلا استنكرت ودعيت كافراً، وقلما تجدن في العالم الإسلامي عظيماً لم يُكفَّر ويتهم بالإلحاد.

«رحلة في البحر»

إذا، يا عزيز النفس! الرحلة رحلة بحرية تتطلب رباناً عليماً وربانك العليم هو ذاك الفقيه العارف الذي خاض هذه الرحلة مسبقاً.

قلت: حسبك القرآن ولكن لتلقي الحجب السبعة وراء ظهرك وتظفر باستيعاب كنه كلام الائمة، لا سيما أدعيتهم، تكون لك في صحبة مثل هذا الربان غنيمة كبرى، وفي تركها خطر بليغ.

يقول الإمام علي بن الحسين عليه السلام:

---

١ ـ بحار الأنوار، المجلد ٢، ص٧٨، الباب ١٣ - «النهي عن كتمان العلم و...»، وكذلك بحار الأنوار، المجلد ٢٨، ص ٧٠، باب اخبار الله تعالى نبيه و...

٢ ـ بحار الأنوار، المجلد ٢، ص٧٨، الباب ١٣، النهي عن كتمان العلم و...

«هلك من ليس له حكيم يرشده».

يذكر الاستاذ الكبير حسن زاده العاملي، فـي كـتابه العـظيم «ألف إشارة»، الإشارة (٢٦)، حديثاً للإمام علي بن أبي طالب عليه السلام نقله عن «الأنوار النعمانية» للسيد الحائري يؤكد فيه عليه السلام أن الأرض لا تـخلو أبداً من قطب وأربعة أوتاد وأربعين من البدلاء وسبعين من النـجباء وثلاثمائة وستين من الصلحاء. ثم أننا نقرأ في مادة «قطب» من كتاب «سفينة البحار» للكفعمي ما ينص على وجود مثل هؤلاء الأشخاص دوماً.

تضرع إلى الله أن تلقاهم والتـزم أولاً القـطب وهـو إمـام العـصر والزمان (عج) وبقية الله الأعظم في الكون والكائنات. فإن لم يكن لك نصيب من لقائه فبأحد أبرار زمانك وقد وعدك الله.

﴿والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وان الله لمع المحسنين﴾.[1]

* * *

لما كنت حدثتك في مبحث التحلي عن المقتدى والأسوة لا أطيل عليك المقام هاهنا، فجل استنادي الآن يتركز على نفسك الزكية، فإن طهرت يتأسى بك حتى الواله والعارف.

قرأنا في نهاية الآية الآنفة وعد الله تعالى بان يسند المحسنين دوماً كما أننا ذكرنا في حديثنا عن اكتساب المعارف أن معارف القرآن ﴿لا

---

١ ـ سورة العنكبوت، الآية ٦٩.

يمسه إلا المطهرون﴾، فالمطلوب تزكية تامة ومنتهى الطهر بما يتجاوز ما وصفته لك في مبحث «التخلي»، فرائد الفضاء يعرض أولاً قبل الرحلات الفضائية إلى فحص دقيق للقلب لقياس مدى تحمله أجواء الفضاء. وهاهنا كذلك للسالك حاجة أكيدة إلى قلب سليم، فالرحلة يجتازها في السماوات والهدف هو بلوغ حرم الحبيب العظيم.

يقول تعالى:

﴿يوم لا ينفع مال ولا بنون. إلا من أتى الله بقلب سليم﴾.[1]

إذاً، لنتحدث عن الطهارة والتزكية:

---

١ ـ سورة الشعراء، الآيتان ٨٨ و ٨٩.

«الطهارة»

في عالم المعرفة ينعت كل ما سواه بـالنجاسة وقـد أكـد الإمـام الصادق عليه السلام أن: ﴿شراباً طهوراً﴾ هو ما يطهر المؤمن ويزكيه عـن كـل شيء سوى الله وأن لفظة «لا» في عبارة الشهادة نافية الالوهية عـن كل ما سوى الله فهي طهارة عامة شـاملة. فـلا تـحسبن الالهـة قـد تحددت بأربعة أوثان، فالقرآن يعتبر كل هوى وثناً وإلهاً.

﴿أرأيتَ من اتخذ إلهه هواه﴾[1].

وهي نهاية حديثه يقول الإمام الصادق عليه السلام: «لا طاهر إلا الله».

إذاً، الطهر الحقيقي هـو المـتعلق بـذات البـاري تـعالى ثـم يـليه المتطهرون بطهره وهـم الأنـوار الأربـعة عشـر، الذيـن أذهب عـنهم الرجس، وقال في شأنهم:

﴿إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً﴾[2].

---

١ ـ سورة الفرقان، الآية ٤٣.

٢ ـ سورة الأحزاب، الآية ٣٣.

أما تعلم أنهم اكتسبوا صبغة الهية بهذا الطهر:

﴿صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة﴾[1].

وأنت، بدورك، لا بد أن تصطبغ بصبغتهم إن كنت راغباً أن تحذو حذوهم.

يقول تعالى:

﴿لقد كان لكم في رسول الله أُسوة حسنة﴾[2].

فكما أعرضت عن نجاسات تُلوث ظاهرك المادي في إطار تطبيق الشريعة، لا بد لك، خلال مراحل سلوكك إلى الله، إعراض مثله عن نجاسات باطنك.

أنظر في حال ذاك القروي الجاهل لا يبالي أن يرى روث الحيوانات إلى جانب تنوره أو يغمس يديه في التراب والروث ويضع بهما من الروث في التنور ثم يصنع بنفس تلك اليدين عجين خبزه مما يثير التقزز في نفسك. ولو تم توجيهه تجده ينتهي عن مثل هذه الأفعال، فيتجنب كل هذه النجاسات والتلوثات، بل أنك تجد ذلك الشخص الذي ظفر بالإطلاع على ما يخفى عن الإحاسيس المألوفة، يعجل بغسل يديه بالصابون بعد مصافحة بعض الناس فيذهب في تجنب التلوثات حداً يفرض عليه الالتزام بتجنب التلوثات إلى هذا المستوى. والسالك الواعي كذلك يدرك ما يأتيه الذنب عليه من تلوث

---

١ ـ سورة البقرة، الآية ١٣٨.

٢ ـ سورة الأحزاب، الآية ٢١.

فلا يكتفي باعتزال الذنب فاراً بل يكون حتى للمكروهات متجنباً، فأدران الظاهر تغتسل بالماء ولكن ماذا عن أرجاس الباطن، وقد يتلوع قلبك بآثار ذنب ما لسنين وسنين. ومَنْ وفّقه الله لصقل قلبه وروحه عن هذا التلوث غدا محبوب ربه:

﴿إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين﴾[1].

فمَنْ صاحب هذا الحظ العظيم؟ ربما أنت الذي مازلت ممسكاً بعروة بابه تدقها عسى ملائكة تطل عليك فتبشرك باصطفائك وتطهيرك. هذه هي حقيقة ما جرى لمريم بنت عمران. لك أن تستوحي حكايتها من الآية:

﴿وإذ قالت الملائكة يا مريم إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين﴾[2].

---

١ ـ سورة البقرة، الآية ٢٢٢.

٢ ـ سورة آل عمران،الآية ٤٢.

«مراحل التطهير»

لكي يتسنى لك أن تعتلي قمة هذا السلم العظيم، دعني اطلعك على مراحلها لتقوى على التعالي إلى مستوى أعلى بعد أن تستقر في أي من مرتباته.

المرتبة الأولى: مرتبة التطهر من الأدران الظاهرية. وهذا ما تهديك إليه الرسائل العملية. فأنت لو تهاونت بشأنها أفسدت صلاتك مثلاً.

المرتبة الثانية: أن تكون على وضوء لا أثناء الصلاة او عند مس القرآن فقط بل على الدوام. عسى أن يألف لسانك ترديد اسم الله وذكره باستمرار فتنساق آيات من القرآن عليه وأنت في طريقك او في السوق والمنزل. فإن فعلت دون وضوء ما التزمت الآداب المطلوبة.

خرج أحد العرفاء من دورة المياه فتيمم، قيل له: الماء على مسافة أقدام منك. رد قائلاً: أعلم، ولكني أخشى أن ألاقي حتفي قبل أن أصل هناك، فأرد على ربي دون وضوء.

ولا بد لك في هذه المرتبة أن تسبغ الوضوء قبل لجوئك إلى

الفراش.

قال رسول الله ﷺ:

«يحشر الله عز وجل امتي يوم القيامة بين الأمم غرّاً محجّلين من آثار الوضوء»[1].

وفي المرتبة الثالثة يتوجب عليك أن تجهد لصقل تلوثات الذنوب عن نفسك أيضاً مثلما تطهّرت من التلوثات الظاهرية المادية. فتمنعن قدميك من ارتياد مجالس المعصية ومن التقدم نحو الإثم، ولسانك من الكذب والغيبة والنميمة واللغو، ويديك عن الإيذاء، ونفسك من الظلم واغتصاب الأموال، وعينيك من النظر إلى غير المحارم وأُذنيك من استماع اللغو حتى تكون أحرص رقيب على أناملك أن لا تكتب حتى لفظة واحدة فيها شيء من الإيذاء أو المعصية أو اللغو. ولما تستقر في هذه المرتبة خذ استعدادك لتطهير باطنك.

واما مرتبات تطهير الباطن فهي:

- تطهير الخيال من العقائد الزائفة والأوهام العابثة ومن صولات الآمال والطموحات الفاسدة. فلربما تجلس باتجاه القبلة وأنت على وضوء أيضاً، وقد أوصدت بابك معتزلاً الخلق أجمعين، ومع ذلك يسرح بك الخيال إلى ما لا يحسب له حساب ويجرّك إلى أبعد مسالك اللهو.

والمرتبة الأخرى: تطهير الذهن من الأفكار الضارة ومن كل ما يرد

---

١ ـ ميزان الحكمة، الحديث ٢١٩١٣.

إليه من أمور لفي منتهى النأي عن الحقيقة أو الإفـادة. وأنت بـالطبع تسلك طريقاً يتوجب فيه تجنب كل علم لا طائل لك منه، حيث مـر رسول الله ﷺ ذات مرة برجل يعدد أنساب الطوائـف العـربية فـي الجاهلية فنصحه بأن يكف عن ذلك فإنه لا يجني منها نفعاً.

وكثير من العلوم الحديثة تنساق في هذا المجرى. فصحيح لا تخلو من فائدة معرفة ما يبلغه طول نهر أمازون وارتفاع جبال الالب او ما تتغذى منه الصراصير وكم بيضة تبيض السنونو سنوياً وفي أي فصل تبدأ طيور البحر الأبيض المتوسط رحلتها، وكم شـهر يسـتمر النـوم الشتوي للزواحف وما إليها. ولكن ما دمنا نعجز عن تعلم جميع العلوم فَلِمَ، لا ننتقي الأنفع منها وأن لا نطمح لاكتساب كل علم مفيد، فالعمر بأسره لا يكفي لتحقيق مثل هذا الطموح.

ومنها: تطهير القلب من ذكر كل ما سوى الله، فسماحك لما سواه بالدخول إلى قلبك ظلم فـي حـقه. ولا يكـون لك ذلك إلا بـتقليص التعلقات وأن لا تعمق جذور أي من تعلقاتك في قلبك ولا تجعله مقراً لأي مخلوق وموجود.

دعني أقرأ عليك كلاماً للإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام:

يقول عليه السلام:

«القلب حرم الله فلا تسكن في حرم الله إلا الله».

ولما لم يكن هنالك طاهر سواه فإن دخوله إلى القلب يدنس القلب.

إذاً، طهّر قلبك من التدنسات حيث يقول الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام:

«قلوب العباد الطاهرة مواضع نظر الله سبحانه فمن طهر قلبه نظر الله إليه».

ولما سُئل الإمام جعفر الصادق عليه السلام عن مفهوم القلب السليم، أجاب بأنه قلب ذاك العبد الذي يلقى الله ولا يكون فيه ما سواه.

أما تطهير الروح فإنه من النعم الكريمة التي يتلهف قلب كل سالك لنيلها كما شأنه مع المعرفة والقرب والمشاهدة. ولكن إياك أن تتخذها هدفاً يسد عليك الطريق إلى مطلوبك الحقيقي، لأن «العلم حجاب الله أكبر».

عسى أن تكون حكايتك في هذه المرتبة حكاية استقرار وثبوت لا انهيار وسقوط.

إذاً، أطلب الخدمة لا النعمة وليكن ذلك منك ازاء نهج العبودية التزاماً لا استنكافاً، ففيه كمال الطهارة وبه تتجرد حتى عن نفسك فلاترى إلا ربك فإن تهامست معك نفسك بأن دع عنك هذه الأفكار فسبيلك إلى ذلك لجد بعيد وعمرك قصير، إقرأ لها هذه الأنشودة:

«أنشودة ايها الطاهر»

أمامك مشاهد التزايل الخريفي والريعان الربيعي!

أنت ترقب في ذلك، التساقط والانتقاص وفي هذه، التنامي والانتعاش. الأغصان بتتحول من طور الحيوية والتكامل إلى الاكتئاب والتخشب، والأوراق يعيث الذبول فيها فيجعلها سماداً ينمي آلاف الرياض، فترفع أعبق الأزهار هامتها من بين أكثر الأتربة تلوثاً.

مراتع الملح تصير الكلب المدفون ملحاً قد يوظف لمنع التلوث بينما للملح نفسه مذاق لا يستساغ في الحلق. هذه هي حكاية الطاهر. إذاً، ترنم مع نفسك بأنشودة ايها الطاهر المتنزه من كل دنس، خلصنا من تدنساتنا.

- يا من أظهر الجميل وستر القبيح.

- أنت الطاهر وأنت المطهّر، جعلت الماء مظهراً لاسمك «المُطهِّر. فكم تلوث يصيب أيدينا كل يوم فيزيلها ماؤك المطهر، شمسك هي الأخرى وظفت أشعتها في سلك التطهير، والأمطار اختارت لقطراتها مهمة

التطهير والتزيين معاً. وكيف لي أنا المتلوث أن أقف آيساً خائباً في بابك أنت المطهر.

«إلهي إن كنت بئس العبد فأنت نعم الرب. قبح الذنب من عبدك فليحسن العفو من عندك. إلهي ظلّل على ذنوبي غمام رحمتك وارسل على عيوبي سحاب رأفتك».

***

إلهي!

أرى فقري وأنا واثق من كمالك وليس للفقير كفاف إلا من لدن الغني، وأنت لا ترضى لدنسي بالزوال فقط بل تعطيني بدلاً عنه أضعافاً من وسائل الزينة والجمال، فأنت من ﴿يبدل السيئات بالحسنات﴾، فأنّى للعبد أن يقطع الرجاء في حضرة مثل هذا الكريم المعطاء.

***

أتوقف في هذه المحطة على الطريق وأعيد النظر فيما سلكته منه فلا أجدني تقدمت لأكثر من خطوتين أو ثلاث. أفكر فيما فضل أمامي منه فأراه لجد طويل والعمر يناديني ضاحكاً أن يا أيها السالك ما بقي مني إلا أمد قصير. فمالي حيلة إلا أن تندى مقلتاي وأنا أردد:

لهفي على عمر ضيّعت أوّله
وغال آخره الأسقام والهرم
كم أقرع السن عند الموت من ندم
وأين يبلغ قرع السن والندم
هلا انتبهت ووجه العمر مقتبل
والنفس في جدة والعزم مخترم

واستنصح بقول الشاعر، وكأنه يخاطبني:

اني أرى رقم البلاء في قود رأسك قد نزل
وأراك تعثر دائماً في كل يوم بالعلل
والشيب والعلل الكثيرة من علامات الأجل
فاعمل لنفسك ايها المغـ ـرور في وقت العمل.

«وبال تقليد ذوي الأذهان الضيقة»

- «خذ عن الكبار كل ما ينصحونك به، لا ترد إلا قائلاً: سمعاً وطاعة».
- ينبغي عليكم أنتم الشباب أن تتجنبوا الخوض في المعقولات.
- الناس يعرفون أكثر منا بالتأكيد.
- اسلك كما يسلك الناس لكي لا تنعت شاذاً.
- من يكبرك بيوم يتقدم بعلمه لسنة.

***

كم سلطت عليك محقنة اللسان مثل هذه التطعيمات حتى صرت الآن على مناعة ازاء حرية الفكر وانطلاقه. تقبلت صحة كل ما تم ضخه إلى دماغك دون نقاش او تفكير! فلم لا تلجأ إلى القرآن فتنظر فيه لترى أن أعظم سد أعاق نهضة الأنبياء كان التقليد الأعمى للأجيال السابقة من قبل معاصريهم. فتأمل كيف اتخذوا دعوة رسول الله ﷺ،

وهو يرفع نبراس الهداية في طريقهم، هزواً ولعباً.

يقول تعالى:

﴿وإذا قيل لهم اتبعوا ما انزل الله، قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أوَلَو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون﴾.(١)

ويقول أيضاً:

﴿وكذلك ما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة وانا على آثارهم مقتدون﴾.(٢)

والآن تعمق في مدى تزمتهم:

﴿قال أوَلَو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم، قالوا إنا بما ارسلتم به كافرون﴾.(٣)

ويل لمن غرقوا في لجج التقليد الأعمى، فلم يأذنوا لأنفسهم بالتقدم على آبائهم ولو خطوة واحدة. فما كان من مثل هؤلاء الأشخاص إلا التقيد بأن لا يتفوهوا إلا بما نطق به أجدادهم وأن لا يفعلوا إلا كما فعلوا:

﴿وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما انزل الله وإلى الرسول قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءَنا أوَلَو كان آباؤهم لا يعلمون شيئاً ولا يهتدون﴾.(٤)

---

١ ـ سورة البقرة، الآية ١٧٠.

٢ ـ سورة الزخرف، الآية ٢٣.

٣ ـ سورة الزخرف، الآية ٢٤.

٤ ـ سورة المائدة، الآية ١٠٤.

***

فديت نفسي لخليل الله ونبيه، ابراهيم ﷺ، الذي خرق شرنقة الجهل والتقليد وتصدى بثبات لأبناء زمانه وعمه نحات الأوثان فاتخذ أصنامهم ألعوبة، فمتى وكيف؟

يحدثنا القرآن الكريم عن ذلك في الآية:

﴿إذْ قال لأبيه يا أبت لم تعبد ما لا يسمع و لا يبصر ولا يغني عنك شيئاً﴾.(١)

وكذلك الآية:

﴿ إذْ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل التي انتم لها عاكفون﴾.(٢)

ثم يتابع سرد تفاصيل حواره في الآيات التالية:

﴿قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين. قال لقد كنتم انتم وآباؤكم في ضلال مبين﴾(٣).

وإنك تعلم كيف واجه مجتمعه الشرير الطائش وحيداً فريد. فأسس مذهب التوحيد بعون الله. ومع أنه كان وحيداً لا ناصر له إلا الله، استصغر الله الجماعية كلها وسمى هذا الوحيد «أمة».

أسمع كلامه وهو يصف نبيه ﷺ في الآية:-

١ـ سورة مريم، الآية ٤٢.

٢ـ سورة الأنبياء، الآية ٥٢.

٣ـ سورة الأنبياء، الآيتان ٥٣ و ٥٤.

﴿إن إبراهيم كان أمة قانتاً لله حنيفاً ولم يكُ من المشركين﴾[١].

* * *

يا ترى كم انساق على هذا اللسان، العاتب بأمر الدين، من حديث ما كان قوامه إلا الظن والشك؟

وكم من دفعة وليت وجهك هذا الاتجاه أو ذاك دون تقص وتمحيص؟

وكم من مرة اندفعت إلى سبيل منقاداً، لا هدف لك سوى مواكبة أبناء مجتمعك؟ وكم اختبرت الحكم بشأن بعض الأمور دون دراية ووعي؟

وكم تجرّأت على نعت العقائد ببطلانها، جاهلاً حقيقتها؟

فمتى يحين أوان جلوسك على عرش الفكر والتزامك بالاحتياط في كلامك وحديثك؟

وكم شخص حاضرٍ أو غائبٍ قذفت بتهمة الكفر، أو اتخذته موضوعاً لمزاحك اللاذع واستهزائك، وكنت ساخراً وأنت تصف هذا فيلسوفاً وذلك متصوفاً وآخر درويشاً ورابعاً ساذجاً أو لا أبالياً ولا جواب لك ترد به على من يطالبك بالدليل إلا أن تقول: هكذا يقال أو تستند إلى أقاويل غامضة فتتذرع بسطر من كتاب أو بيت من ديوان دون النظر في أصل الموضوع لتفهم المعنى الحقيقي لما تستند إليه؟

إنني بشخصي لا أعرف من بين دواوين الشعر الفارسي في مجال

---

١ ـ سورة النحل، الآية ١٢٠.

التوحيد، أفضل من ديباجة مثنوي للشاعر مولوي بينما تجد أحدهم يكتب أنه حَسْبُك من مولوي كفراً ما ذكره في وصف الله، على لسان الناي، من شعر صار الجميع يتخذونه مطلعاً لكلامهم. فأنّى لمن يجهل المصطلحات الخاصة أن يأذن لنفسه باصدار أحكامه الصارمة في شأن ما. وأي عظيم شخصية لم يطله سوط التكفير؟! فكم من حرجٍ دامٍ تركه هذا السوط في قلب ابن سينا حتى راح يقول:

كفر چو مني گزاف وآسان نبود

محكم تر از ايمان من ايمان نبود

در دهر چون من يكى وآنهم كافر

پس در همه دهر يک مسلمان نبود[١]

وكم تعرض صدر المتألهين للتكفير؟ وكم تجرع الفيض الكاشاني والشيخ هادي السبزواري(ره) وآلاف العظام غيرهم المرارات من كأس التكفير؟

وحتى قبل عدة عقود طال التحريم جلسات العلامة الطباطبائي والملفت أن أصحاب الاجراء لم يكونوا ليفهموا حتى كتاب واحد من مؤلفاته.

---

١ ـ معناهما:

- «كفر أمثالي ليس (بالأمر) الاعتباطي اليسير، فليس هنالك ايمان أقوى من إيماني» «انا فريد في عصري ولكن (يدّعى أنني) كافر، إذاً (فاعلموا انه) لا يوجد هنالك مسلم على مر العصور.

يكتب الإمام الخميني (قده) في كتابه مصباح الهداية، بعد بحث عرفاني رائع:

«. وإياك ثم إياك، والله حفيظك في اولاك وأُخراك أن تحمل أمثاله على ظاهرها من غير الغور الكامل إلى غامرها، ولا تأخذ بيدك الطعن عليهم من غير فهم مقصدهم كما هو أدب بعض المنتسبين إلى العلم، فإنهم جعلوا ميزان عدم صحة المطالب عدم اطلاعهم أو عدم فهمهم إياها، فتراهم يتهمون هؤلاء العظماء بكل التهمة ويغتابون بعض المكاشفين كل الغيبة مع أنها أشد من الزنية، تعصّباً منهم تعصب الجاهلية، أعاذنا الله من شر الشيطان الذي هو قاطع عن طريق الرحمن..»[1].

وفي مجال آخر من كتابه يقول (قده):-

«. فالعرفاء الكُمّل لما شهدوا ذلك ذوقاً، ووجدوا شهوداً، وضعوا لما شهدوا اصطلاحات، وصنعوا لما وجدوا عبارات لجلب قلوب المتعلمين إلى عالم الذكر الحكيم وتنبيه الغافلين وتيقّظ الراقدين لكمال رأفتهم بهم ورحمتهم عليهم. وإلا فالمشاهدات العرفانية والذوقيات الوجدانية غير ممكن الاظهار بالحقيقة، والاصطلاحات والالفاظ والعبارات للمتعلمين طريق الصواب وللكاملين حجاب في حجاب وأوصيك ايها الأخ الأعزّ ان لا تسوء الظن بهؤلاء العرفاء والحكماء الذين هم من خُلّص شيعة علي بن أبي طالب وأولاده

---

١ ـ مصباح الهداية، ص٢٠٢.

المعصومين عليهم السلام وسُلّاك طريقتهم والمتمسكين بولايتهم. وإياك أن تقول عليهم قولاً منكراً او تسمع إلى ما قيل في حقهم فتقع فيما تقع ولا يمكن الاطلاع على حقيقة مقاصدهم بمجرد مطالعة كُتبهم من غير الرجوع إلى أهل اصطلاحهم فإن لكلّ قوم لساناً ولكل طريقة تبياناً..».[١]

أما آية الله السيد محمد حسين الحسيني الطهراني فإنه يذكر في كتابه القيم «الشمس الساطعة» عند عرضه لأحوال العلامة الطباطبائي (ره) وأفكاره:

«العلامة أيضاً يعيب ويأخذ بشدة على بعض المتنسكين الذين يتذرعون بالشريعة من باب الرياء الديني، وبذريعة اسناد الدين وإشاعة الشريعة السمحاء يعرضون جميع شرائح أولياء الله، ممن ضلعوا في أمر مراقبة النفس ومحاسبتها وكان لهم أحياناً سجدات طويلة الأمد، للانتقاد وكان شغلهم الشاغل ذم وانتقاد بعض كبار العرفاء من أمثال الشاعر حافظ الشيرازي ومولانا محمد البلخي (مولوي) صاحب كتاب «مثنوي». ويرى أن هذا الاتجاه الفكري ينبثق من الجهل والتزمت، وهو ما تنفر منه روح الشريعة، وأنّ هجو الفلسفة والعرفان - وهما مقومتان عظيمتان من مقومات الشريعة المبينة - ينشأ من التحجر الفكري والخمول الذهني، وكان يقول أنه لا بد من الاستعاذة بالله من شر هؤلاء الجهلة فإنهم هم الذين قصموا ظهر

١ ـ مصباح الهداية، ص٧٢.

رسول الله ﷺ».[١]

فلنعد ثانية ونستمع إلى حديث من سماحة الإمام الخميني (قده):

«إعلم أن للنفس الانسانية مملكة (عالماً ومقاماً آخر، وهي مملكتها الباطنية ونشأتها الملكوتية، وفيها تكون جنود النفس أكثر وأهم مما في مملكة الظاهر، والصراع والنزاع فيها بين الجنود الرحمانية والشيطانية أعظم والغلبة والانتصار فيها أشد وأهم، بل وأن كل ما في مملكة الظاهر قد تنزل من هناك وتظهر في عالم المُلك. وإذا تغلب أي من الجند الرحماني او الشيطاني في تلك المملكة، يتغلب أيضاً في هذه المملكة. وجهاد النفس في هذا المقام مهم للغاية، عند المشايخ العظام من أهل السلوك والأخلاق. بل ويمكن اعتبار هذا المقام منبع جميع السعادات والتعاسات، والدرجات والدركات.

ويجب على الإنسان الالتفات كثيراً إلى نفسه في هذا الجهاد. فمن الممكن - لا سمح الله - أن تسفر هزيمة الجنود الرحمانية في تلك المملكة وتركها خالية للغاصبين والمحتلين من جنود الشيطان عن الهلاك الدائم للإنسان بالصورة التي يستحيل معها تلافي الخسارة، ولا تشمله شفاعة الشافعين، وينظر إليه أرحم الراحمين أيضاً بعين الغضب والسخط - نعوذ بالله من ذلك - بل ويصبح شفعاؤه خصماءه، وويل لمن كان شفيعه خصمه.

ويعلم الله أي عذاب وظلمات وشدائد وتعاسات تلي هذا الغضب

---

١ ـ كتاب «الشمس الساطعة»، ص ٧٤.

الالهي، وتعقب معاداة أولياء الله حيث تكون كل نيران جهنم وكل الزقوم والأفاعي والعقارب لا شيء أمام هزيمة جنود الرحمن من قِبل جنود الشيطان التي تترتب عليها عقبات تفوق جميع نيران جهنم والزقوم والأفاعي. والعياذ بالله من أن يصب على رؤوسنا نحن الضعفاء والمساكين ذلك العذاب الذي يخبر عنه الحكماء والعرفاء وأهل الرياضة والسلوك، فإن جميع أشكال العذاب التي تتصورونها، يسيرة وسهلة في مقابله، وجميع النيران التي سمعتم بها، جنة ورحمة في قباله. وبالنسبة إلى ذلك العذاب إن وصف النار والجنة الوارد في كتاب الله وأحاديث الانبياء والأولياء، يتعلق غالباً بنار الأعمال وجنتها اللتين أعدتا للأعمال الصالحة والسيئة. وهناك إشارة خفية أيضاً إلى جنة الأخلاق ونارها، وأهميتها أكبر، وأحياناً يشار أيضاً إلى جنة اللقاء ونار الفراق، وهذه أهم من الجميع. ولكنها إشارات محجوبة عنّا ولها أهلها، وأنا وأنت لسنا من أهلها، ولكن من الاجدر بنا أن لا نكون منكرين لها. وليكن لدينا ايمان بكل ما قاله الله تعالى وأولياؤه. إذ يكون في هذا الايمان الاجمالي نفع لنا. ومن الممكن أن يكون للانكار في غير محله، والرفض في غير موقعه الصادرين عن غير علم وفهم، أضرارٌ كبيرة جداً علينا. وهذه الدنيا ليست هي بعالم الالتفات لتلك الأضرار. فمثلاً عند سماعك الحكيم الفلاني أو العارف الفلاني أو المرتاض الفلاني، يقول شيئاً لا يتلاءم وذوقك الخاص، فلا تحكم عليه فوراً بالبطلان والوهم، فقد يكون لذلك القول أصل في الكتاب والسنة، ولكن عقلك لم يطلع عليه بعد.

فما الفرق بين أن يفتي فقيه بفتوى في باب الديات وأنتم لم تعرفوها، فمن دون مراجعة دليله تردونه، وبين أن يقول شخص سالك إلى الله أو عارف بالله، قولاً يتعلق بالمعارف الإلهية أو بأحوال الجنة النار، وأنتم - ودون مراجعة لدليله - لا تردونه فحسب بل وتهينونه أو تتجرأون عليه؟ فمن الممكن لذلك الشخص وهو من أهل ذلك الوادي وصاحب ذلك الفن أن يكون له دليل من كتاب الله، أو من أحاديث الائمة، ولكنك لم تطلع عليه بعد، ففي هذه الحالة تكون قد رددت على الله ورسوله دون مبرر مقبول. ومعلوم أن الاحتجاج بأسلوب «أن ذلك لا يتلاءم مع ذوقي» أو «لم يصل إليه علمي» أو «سمعت خلاف ذلك من الخطباء»، فإن هذا كله لا يشكّل عذراً مقبولاً...»[1].

يقول أحد منتسبي الحوزات العلمية الدينية في كتاب له أن العرفان والتصوف وردا على الإسلام من اليونان، ثم ينهي برهانه على ادعائه بعبارة واحدة ينقلها من المستشرق الانجليزي فلان، ويتحامل بعد ذلك على العرفان هجواً. حسناً، ايها السيد المحترم! وا أسفاه على منطق درسته أنت المسلم المتعلم! أنت نفسك عجزت عن استيعاب كنه دين ولدت في مهده وتعلمت علومه وقرأت كتابه الرسالي، فما بالك تفرض رأي أجنبي سكير، نما جسمه على أكل لحم الخنزير، على أدمغة الناس دون تمحيص؟ أليس هذا هو عين التغرب؟! ألا تحسبنّ هذا

---

١ ـ الإمام الخميني (قده)، الأربعون حديثاً، تعريب محمد الغروي، الحديث الأول، المقام الثاني، فصل صراع جنود الرحمن مع جنود الشيطان الباطنية النفسية.

السلوك إثماً؟!

ثم لتعلمن أن العرفان إنساب طوال هذه الالف والاربعمائة عام في مجرى جميع المذاهب الإسلامية كالنبع الفياض. يحدث أحياناً أن يؤخذ على حالة خاصة عند شخص معين لجهل بأن هذا الشخص من اتباع المذهب الكذائي وما يشار إليه بالبنان باعتباره نقطة ضعف يجيزه ذلك المذهب، كما في السماع الذي لا تحرمه أغلبية المذاهب الإسلامية.

لا بأس في هذا المجال أن نلفت الانتباه إلى رأي الاستاذ الشهيد مرتضى مطهري في هذا الخصوص أيضاً:

«للعرفاء كما في سائر الشرائح الإسلامية الثقافية وكأغلبية المذاهب الإسلامية نوايا لفي منتهى الإخلاص ازاء الإسلام، ولم يريدوا بما قالوه وأتوا به من موضوعات الإساءة إلى الإسلام. ربما ارتكبوا هفوات، كما كان لسائر الشرائح الثقافية مثل المتكلمين، والفلاسفة، والمفسرين والفقهاء هفوات، ولكنهم لم يضمروا قط نوايا عدائية للإسلام. فقضية تعارض (آراء) العرفاء مع الإسلام إنما طرحها اشخاص ذوو نوايا خاصة أما ازاء العرفاء أو ازاء الإسلام. فمن يطالع كتب العرفاء دون تحيز وغرض مضمر - على أن يكون متفهماً للغتهم ومصطلحاتهم - قد يجد فيها سهوات كثيرة إلا أنه لا يداخله أي شك بأنهم كانوا يتسمون بذروة التآلف والإخلاص ازاء الإسلام».[١]

١ ـ الشهيد مرتضى مطهري، من كتاب «العرفان والكلام».

إنك لتجد عند مجموعة ممن لا ينتسبون إلى أي من فرق الصوفية آراء اخصائية في العرفان النظري لا مثيل لها بين المتصوفة الرسميين.

فعلى سبيل المثال كان لصدر المتألهين الشيرازي وتلميذه الفيض الكاشاني وتلميذه القاضي سعيد القمي وعي واستيعاب للعرفان النظري المحيي الديني يفوق ما لأقطاب زمانهم رغم أنهم لم يكونوا من أي من طبقات المتصوفة. وقد تواصل هذا الاتجاه حتى زماننا حيث يعتبر المرحوم محمد رضا قمشه‌إي والمرحوم الميرزا هاشم الرشتي، مثلاً من علماء وحكماء القرن الأخير، ذوى الاختصاص في العرفان النظري دون أن ينتسبوا إلى أي من طبقات المتصوفة.

فمنذ القرن العاشر ظهر أشخاص وفرق ضليعون في السلوك والعرفان العملي، ارتقوا المنازل العرفانية على أفضل وجه دون أن يلتحقوا بأي من الطبقات الرسمية للعرفاء والمتصوفين، بل لم يعيروها أهمية، وكانوا لا يستصوبون بعض آرائها أو كلها. ومن خصائص هذه الجماعة التي اتسمت بدرايتها في شؤون الفقه أيضاً توفيقها التام بين آداب السلوك ومبادىء الفقه»[١].

ومرد هذه الضجة المثارة ضد العرفاء هو عدم تماثل أفهام الخلق. ولما كان الأمر هكذا يتوجب على ذوي الصدور الضيقة الاستناد إلى ذوى خط أكبر من رحابة الصدر، استناداً يتخذ صبغة الخضوع وتصاغر التلميذ ازاء استاذه. ولكن مما يؤسف له هو أن الأمر لما يصل

---

١ ـ عن كتاب «العرفان والكلام».

إلى هذا الموقف يأبى الجميع غض الطرف عن «الأنا»، فكم منهم يرى نفسه متقدماً على البقية.

قال الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام:

«ليس كل العلم يستطيع صاحب العلم أن يفسره لكل الناس، لأن منهم القوي والضعيف، ولأن منه ما يطاق حمله، ومنه ما لا يطاق حمله، إلا أن يسهّل الله له حمله وأعانه عليه من خاصة أوليائه».[١]

يؤكد العلامة المجلسي (رض) أن الكثير من الأشعار إنما هي حِكَم وهي ما انساق منها في مجرى التوحيد والمدح والزهد وذكر المناقب والمواعظ مثل أشعار الشاعر الحكيم الغزنوي (سنائي) والحكيم الرومي (مولوي) والحكيم النيشابوري (عطار).

كأنني أطلت المقام عند هذا البحث. إنهض وعد عدتك للرحلة فعلينا الإسراع اغتناماً للفرصة ونحن للأجل في انتظار.

---

١ ـ ميزان الحكمة، الحديث ١٩١٣٣.

«علم اللّدن»

«جل گفت مرا علم لدنی هوس است
تعليمم كن أگر ترا دسترس است
گفتم كه الف، دگر هيج مگو
در خانه اگر كس است حرف بس است»[1]

المقصود من الالف في هذا الرباعي المنسوب إلى الشاعر خيام، وهذا ما نستبعده، هو الله كما في الالف في (الم) في مطلع سورة البقرة. فبعض العلم لا يولد أية سرعة في السلوك إلى الله بل يكون مدعاة ثبوط، والعرفان إنما يعتبر التزكية والتقوى مدعاة ظهور المعرفة.

---

١ ـ معناهما:

- «قال قلبي: بي لهفة لعلم اللدن، علمنيه إن كنت حائزاً عليه»

- قلت الألف قال حسبك لا تزد، فإن كان في الدار أحد (أي شخص يستمع) فحرف واحد يكفي».

يقول الله تعالى:

﴿من يتق الله يجعل له فرقاناً﴾.

ولهذا الفرقان آفاق لفي منتهى السعة حيث يأخذن بيدك إلى أبعد نواحي المعرفة. وهذا العلم سمي علم اللدن لأنه علم من لدن الله يتجلى لك مفهومه في حكاية النبي الخضر عليه السلام. هذا ما يتبين لنا في الآية:

﴿ فوجدا عبداً من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علماً﴾.[1]

الآية تحدثنا عن رحمة وعلم ينبثقان بالتحديد من لدن الحق تعالى. خصه عز وجل في عهد النبي موسى بن عمران عليه السلام بالخضر عليه السلام. والملفت للانتباه أنه لم يكن حتى لكليمه بادئاً حظاً من هذا العلم مما جعله لأعماله وأفعاله مستنكراً. هذا هو أخذ خصائص هذا العلم أي أنه مجهول بالنسبة لأكثرية الناس وبالتالي مرفوض. هذا هو الاستيعاب والإدراك التام للقرآن وقد قرأت عليك أنه ﴿لا يمسه إلا المطهرون﴾.

شاء الله أن ينتهل من هذا النبع جميع أنبيائه ورسله بما فيهم مصطفاه ونبينا الكريم صلى الله عليه وآله وسلم الذي ما كان له قبل الاتصال به نصيب من العلم الظاهري ولو بدراسة سطر واحد.

إنك لتعلم أنه يظهر في كل عصر شخص عبقري يخيل للعموم بأنه ذروة العلم لا يتقدم عليه في علمه أحد فيتقصون منه حلولاً

---

١ ـ سورة الكهف، الآية ٦٥.

لأيـة مشكلـة تواجههـم في إطــار ذلك العـلـم، بـينمـا يـقول اللـه تعالـى:

﴿وفوق كل ذي علم عليم﴾.

وأفضل أصحاب العلوم هم من يروي علمه من بحر العلم الالهـي الأزلي فلا زلل فيه، هكذا كان علم الخضر ﷺ بينما تحامل عليه النبي موسى ﷺ بعلمه الظاهري فآل أمره إلى أن يُحرم من رفقة ذلك الرفيق العزيز.

فاعلم وافهم أن علوم جميع الأنبياء والمرسلين هو «عـلـم لدنــي» وبما أن العلوم عند جميعهم تـحدد بـالحقيقة المـطلقة تـجدهم دون استثناء يأتون بنفس الكـلام ويـدعون إلى رب واحـد أحـد بـفارق اختلاف نصيبهم من نفس هذا العلم على قدر قابلية واسـتيعاب كـل منهم. هذه هي حقيقة تضرع النـبي مـوسى ﷺ إلى اللـه بأن يـزيده استيعاباً لهذه الخزائن وهو يناديه: ﴿رب اشرح لي صدري﴾، ووجه عز وجل الخطاب إلى أحمده: ﴿ألم نشرح لك صدرك﴾.

و:

﴿ما يقال لك إلا ما قد قيل للرسل من قبلك﴾.[١]

وهذا العلم هو بالضبط الهداية الالهية الخاصة به، يبذل ما يشاء منه لكل من عباده.

---

١ ـ سورة فصلت، الآية ٤٣.

قال سبحانه وتعالى: ﴿ذلك هدى الله يهدي به من يشاء من عباده﴾[١].
كما قال:
﴿واتقوا الله ويعلّمكم الله والله بكل شيء عليم﴾.[٢]

وهل هنالك استاذ يمنع علمه عن ذوي القابلية لاكتسابه من المتلمذين على يده؟ فكيف بمن هو بكل شيء عليم وهو أكرم الأكرمين أن لا يجعل لك نصيباً وهو يشاهد تقواك؟

قد تراودك فكرة أن هذا العلم اللدني خاص بالأنبياء. فهل في ذلك حقيقة؟

لا اختصاص لهذا العلم بالأنبياء. يروى عن الرسول الكريم ﷺ أنه أكد أن لله عباداً ليسوا من الأنبياء ولكن الأنبياء يغبطونهم على ما لهم من مقام.

وقد التفت بقراءة حديث المعراج إلى أن الله يحدث المتقين في ظلمات الليل وقرأت في القرآن الكريم الآية:
﴿إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة...﴾.[٣]

ثم أنه جاء في حديث قدسي:
«ليس العلم بكثرة تعليم وتعلم بل هو نور يقذفه الله في قلب من يشاء».

---

١ ـ سورة الانعام، الآية ٨٨.
٢ ـ سورة البقرة، الآية ٢٨٢.
٣ ـ سورة فصلت، الآية ٣٠.

«منهل العلماء الإلهيين من ينبوع علم اللدن»

يروى أن أبا يزيد البسطامي (قده) وجه خطاباً إلى فلاسفة عصره قائلاً بأنهم أخذوا علمهم من ميت أخذه هو أيضاً من ميت آخر ولكنهم (العرفاء) أخذوا المعرفة عن حي له حياة أزلية سرمدية.

أو لم تلاحظ مدى اختلاف آراء الفلاسفة في المباحث الفلسفية؟

كم من نظرية ظهرت حتى الآن فيما يخص كل من القضايا في العلوم الطبيعية والتجريبية ثم دحضها البرهان؟ ولكنك لا ترى بين كلام الأنبياء كما ذكرنا أي اختلاف. وهكذا الذين انتهلوا من هذا النبع الفياض، فإنهم وإن لم يكونوا ذوي منازل ومقامات تؤهلهم لتلقي الوحي مباشرة إلا أنهم شربوا من كأس قدمها إليهم الأنبياء والائمة، وقد قال رسول الله ﷺ:

«العلماء ورثة الأنبياء».

إذاً، كل عالم متق استمسك بعروة القرآن والسنة واستعصم من الزلل والخروج من صراط ربه فإنه لعلى صراط مستقيم، وسوف يتلقى هذا

العلم أما مباشرة من لدنه عز وجل أو يتوارثه عن الأنبياء. وما دمت لم تبلغ مقامهم، كم بالحري أن تقتات على فتات موائدهم وتتأسى بـهم فإنهم أدرى بمعاناتك وبمداواة آلامك وعلاجها.

قال رسول الله ﷺ:

«إن لله تعالى عباداً يعرفون الناس بالتوسم».

إلتجىء إليهم وردد:

آنـــان كـه خـاك را بـنظر كـيميا كـنند

آيا بود كه كوشه چشمى بـما كـنند[1]

***

لتعلمن أن لله رجالاً تلقوا المعارف والتذوا بها ذوقياً ولم يـهتدوا السبيل إليها معتصمين بالبرهان استدلالاً. يـحصل لهـم ذلك بـاتصال نفوسهم الزكية بساحة القرب الالهي حيث قال عز وجل:

﴿كنت سمعه وبصره ويده ورجله﴾.

بلى، من ينظر بعين الله ويسمع بأذنه يتصل ببحر المعارف الالهية السرمدية، معارف لا سبيل للشك والظن إليها، دونها الخطأ فالخطأ إن ظهر فهو من عندنا.

فهل بلغت هذا المقام؟ إن لم تكن بلغته إلتجىء إليهم وتشبث بهم.

---

١ ـ البيت للشاعر حافظ الشيرازي ومعناه:

«الذين يحوّلون التراب اكسيراً بالنظر، أما لهم أن يلقوا إلينا نظرة».

ايها العزيز! أما تعلم الفارق بين علم يسجله كاتب مثلي غرق في ألف نقص وعيب وعلم انبثق من عند الله سبحانه وتعالى. فذاك تحتويه أوراق لا وزن لها ولا قيمة، وهذا ينتشر في قلوب في منتهى القيمة.

قال الله تعالى:

﴿كتب في قلوبهم الايمان وأيدهم بروح منه﴾.[1]

وكمثال على مثل هذه المعارف دعني أنقل إليك مضمون كلام لمن ملأ جوفه من هذا الشراب وهو المجتهد الفقيه العلامة محمد تقي المجلسي (ره)، ففي سياق تطرقه للحديث النبوي الشريف «أشراف أمتي حملة القرآن وأصحاب الليل» يعرض لِما توصل إليه في مرحلة رياضاته فيؤكد انه كان قد انشغل بمطالعة التفاسير حتى رأى ذات ليلة سيد المرسلين ﷺ وهو بين اليقظة والنوم، فقرر مع نفسه أن يمعن في كمالاته وأخلاقه ﷺ. وكلما كان يتدبر فيها تتجلى له عظمته ﷺ وسطعاته النورانية أكثر فأكثر حتى ملأت الفضاء. فاستيقظ من النوم وقد استوحى من ذلك ان القرآن هو أخلاق سيد الأنبياء، وانه من الجدير به ان يتدبر فيه. وكلما كان يزداد تدبراً في أيّة آية ينكشف له حيز أكبر من الحقائق حتى افيضت له علوم لا متناهية دفعة واحدة. فكان كلما يتدبر في آية ما يتجلى له نفس ذلك الفيض اللامحدود

---

١ ـ سورة المجادلة، الآية ٢٢.

السياق...».[١]

ولتمنعن عن نفسك وسوسة الشيطان وهو يهمس لك أن بلى هـو علم اللدن ولكنه خاص بالأنبياء والائمة الأطهار عليهم السلام، تأمل في كنه الأحاديث التالية:

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:

«لولا تكثيرٌ في كلامكم وتمريج في قلوبكم لرأيتم ما أرى ولَسمعتم ما اسمع».

كما قال صلى الله عليه وآله وسلم:

«لولا أن الشياطين يحومون حول قلوب بنيآدم لَرأوا ملكوت السماوات والأرض».

ايها العزيز! الفيض الالهي دائم مدرار كما هي أمطار الربيع، فمنه تتأتى المعارف الربانية وهكذا الأرزاق الدنيوية وبه تتنزل الرحمة، ومعه يحصل الأنس. فهذا الفيض ينمي في قلب كل من بني الإنسان ما يتلاءم مع جدارته وقابليته. أما رأيت الأمطار، منها تتفتح الورود والرياحين في مكان والأعشاب والثيل في مكان آخر وفي مكان ثالث الأشواك، وكلها رحمة. فالرياحين والورود تنعش الأرواح ومن الأعشاب والثيل تتغذى البهائم والحيوانات والأشواك نصيب النياق والجمال.

فمن يسبح في لجة الملكوت يظفر بدرة المعرفة. استمع لكلام من

---

١ ـ أنظر كتاب «روضة المتقين».

نهج البلاغة:

«إن الله سبحانه وتعالى جعل الذكر جلاء للقلوب، تسمع به بعد الوقرة، وتبصر به بعد العشوة، وتنقاد به بعد المعاندة.

وما برح لله - عزت آلاؤه - في البرهة بعد البرهة، وفي أزمان الفترات، عباد ناجاهم في فكرهم، وكلّمهم في ذات عقولهم، فاستصحبوا بنور يقظة في الأبصار والأسماع والأفئدة، يُذكِّرون بأيام الله ويُخوِّفون مقامه، بمنزلة الأدلة في الفلوات[1]...

وإن للذكر لأهلاً اخذوه من الدنيا بدلاً، فلم تشغلهم تجارة ولا بيع عنه، يقطعون به أيام الحياة، ويهتفون بالزواجر عن محارم الله، في أسماع الغافلين، ويأمرون بالقسط ويأتمرون به، وينهون عن المنكر ويتناهون عنه، فكأنما قطعوا الدنيا إلى الآخرة وهم فيها، فشاهدوا ما وراء ذلك، وكأنما اطلعوا غيوب أهل البرزخ في طول الإقامة فيه، وحققت القيامة عليهم عِداتها، فكشفوا غطاء ذلك لأهل الدنيا. حتى كأنهم يرون ما لا يرى الناس، ويسمعون ما لا يسمعون...

يعجون إلى ربهم من مقام ندم واعتراف. لرأيت أعلام هدى، ومصابيح دُجى، قد حفت بهم الملائكة، وتنزلت عليهم السكينة، وفتحت لهم أبواب السماء، وأعدت لهم مقاعد الكرامات في مقعد أطلع الله عليهم فيه، فرضي سعيهم، وحمد مقامهم. يتنسَّمون بُدعائه

---

١ ـ الفلوات: القلوب.

روح التجاوز..».[١]

* * *

وقال عليه السلام أيضاً يصف السالك إلى الله:

«قد أحيا عقله، وأمات نفسه، حتى دق جليله، ولطف غليظه، وبَرَق له لامع كثير البرق، فأبان له الطريق، وسلك به السبيل، وتدافعته الأبواب إلى باب السلامة، ودار الإقامة، وثبتت رجلاه بطمأنينة بدنه في قرار الأمن والراحة بما استعمل قلبه، وأرضى ربه».[٢]

ايها القارىء العزيز! يؤلمني أن أغض الطرف في هذا المقام عن ذكر رسالة لابن عربي كتبها هذا العارف إلى العالم والفيلسوف الكبير المعاصر له، فخر الدين الرازي:

---

١ ـ نهج البلاغة، الخطبة ٢٢٢.

٢ ـ نهج البلاغة، الخطبة ٢٢٠.

«نداء ابن عربي»

شهد التاريخ ظهور أشخاص تقدموا في علومهم على من تدارسوا العلم وإن لم يخوضوا غمار الدراسة والتعلم، وبلغوا شأناً ربما جعل العلماء يحنون رؤوسهم إجلالاً لهم.

يذكر «جامي» في كتاب «نفحات الأنس» كلاماً عن أحد علماء طبرستان حيث يقول:

«من أفعال الله تعالى هو أن يصير أحد الأشخاص دون تعليم ودراسة إلى حال يجعل أمثالنا نستوضح منه عندما يصعب علينا فهم شيء من أصول الدين ودقائق بحث التوحيد. وذلك الشخص هو أبو العباس القصاب».

وهكذا الشيخ عبد الله الأنصاري فإنه بكل ما كان يتسم به من عظمة علمه، كان يتتلمذ على يد الشيخ أبي الحسن الخرقاني وهو أمي لم يأخذ العلم عن معلم.

وعين القضاة الهمداني وهو عالم وكاتب وفقيه جامع تتلمذ على يد

«الشيخ بركة» وهو الآخر أمي. يقول هذا التلميذ العالم عن أستاذه: «ايها الصديق، «بَرَكة» لا يعرف غير «الحمد لله»، أعني سورة «الفاتحة» وعدة سور أخرى من القرآن... ولا يدري كيف هي قواعد (قال يقول). والحقيقة أقول، لو تسألني، أنه لا يعرف أن يأتي بكلام موزون حتى باللغة الهمدانية، ولكنني اعلم ان القرآن هو ما يعرفه هو ولا أعرف إلا بعضه. وهذا البعض لم ألم به من طريق التفسير أو غيره بل من الاتصال به هو».[1]

العارفان الالهيان ابن عربي وصدر المتألهين أيضاً كان لهما مثل هذا الرأي، وهو أن المعارف الالهية لم تتجلَ في قلبيهما عن طريق دراسة العلوم الاكتسابية بل ألقاها إليهما رب العزة والجلال.

فسر الإمام الصادق عليه السلام عبارة «ماء غدقاً» في الآية:

﴿وألَّو استقاموا على الطريقة لاسقيناهم ماء غدقاً﴾،[2] بأن المقصود منها المعارف. والآية تحدد الثبات على طريق الدين والشريعة المحمدية السمحاء باعتباره شرط تجلي هذه المعارف في قلب السالك. وهذا هو ما نستند إليه فيما نذهب إليه من رأي.

يكتب صدر المتألهين في كتابه القيم «شواهد الربوبية»:

«هي لعمري أنوار ملكوتية تتلألأ في سماء القدس والولاية، وأيدٍ باسطة تكاد تقرع باب النبوة، قد أودعنا بعضاً من هذه المسائل في

---

١ ـ من رسائل عين القضاة الهمداني.

٢ ـ سورة الجن، الآية ١٦.

مواضع متفرقة من الكتب والرسائل، وكثيراً منها، مما لم يـمكنني أن انص عليها خوفاً من الاشتهار وحفياً عليها من الانتشار في الأقطار لقصور الطبايع الغير المهذبة عن دركها مـن الكـتابة أو المـقال قـبل تهذيبها بنور الأحوال، وذلك مما يوجب الضلال والاضلال. لمـا ورد عليّ أمر آمر قلبي ووقعت إليّ اشارة مشير غيب باظهار طائفة منها، لحكمة خفية وبث جملة منها مع اشعار ببراهـينها الجـلية مـن غـير تطويل في دفع النقوص والاسئلة. فامتثلت سمعاً وطـاعة. والمأمـور معذور وشمّرت عن ساق الجد، وأوردتها كما رسم لي وعـيّن عـليّ الجدّ».

يكفيك ايها القارىء الكريم أن تفهم أن وراء هـذه العـلوم، أيـضاً، معارف لا تستحصل إلا في ظل التزكية. وأعلم أنه هـنالك عـلوم لا نعرفها أنا وأنت وهنالك دون حالاتنا أحوال وأرقى من هذه المنازل، منازل أخرى. كي لا تركننّ إلى القناعة والكفاف، في مجال المعرفة. فهذا مالا تستسيغه الهمة الرفيعة. فخذ اهبتك استعداداً للطلب ولتمني مقامات أعلى مما أنت فيه، فها أنا ذا يتناهى إليّ نداء الرحيل، فاستعد لخوض الرحلة..

«من جدّ وجد»

ايها السالك العزيز!

أراك وقد اشتد بك الوجد للوصول إلى الحبيب، ولكن هيهات أن يدعك الشيطان وشأنك، تخطو مسترسلاً في طريقك، لا يزال يهمس في أذنيك أن: يا هذا! الذين نالوا هذه المقامات كانوا يقفون على قمة ما، إنهم عاشوا أحوالاً مغايرة في عهدهم.

أقسم بوجودك العزيز أنه ما خلا زمان من نفس هذه البلايا، وللشيطان مثل هذه الهمسات في جميع الدهور والأعصار: مر بنا ضمن أقوال الإمام علي عليه السلام وكذلك في آيات من القرآن الكريم أن التجارة والكسب لا تلهي هؤلاء عن ذكر الله.

إذاً، هؤلاء ما كانوا يعتكفون في الجبال بل كغيرهم زاولوا المهن وجدّوا في طلب العيش أيضاً. الاشكالية تكمن في انعدام الرغبة الحقيقية لدينا وإلا فإن الأبواب مفتوحة على مصراعيها.

إنما خلقت الأرض والسماء عرصة لسلوكك حتى تبلغ المقامات

العلى! وما كانت بعثة الأنبياء والرسل إلا لتحقيق وصولك إلى الحق تعالى. الكتب السماوية نزلت تحمل إليك نهج سلوكك وانطلاقك، فهل يخيل لك مع كل هذا أن الله لم يمهد سبيلك إليه.. لكنك لا تنال ذلك إلا بشروط. يعرض لك الشاعر مولوي شرط الدال في أبيات، منها:

هـر كـه جـويا شـد بـيايد عـافيت
مايه‌اش درداست و اصل مـرحـمت
هـــر كــجا دردى دوا آنــجا رود
هــر كــجا فــقرى نـوا آنـجا رود
آب كــم جــو تشـفگى آور بـدست
تــا بــجوشد آبت از بـالا و پست
تــا نــزايــد طــفلک نـازک گـلو
كن روان گردد زپسـتان شـير او[1]

ألم ينبهك رسول الله ﷺ إلى أنك وإن كنت قد اقترفت ذنوب

---

١ ـ معناها:

- «من جد وجد العافية، ولكن شرطها(تحمل) الألم وأصلها(تنزل) الرحمة».
- «اينما ظهر الألم بذل الدواء، واينما كان الفقر مُنح العطاء».
- «لا تتقص الماء كثيراً وابتغ العطش، لينبعن لك الماء من فوق رأسك وتحت قدميك».
- «فهل يسيل اللبن من ثدي، ما لم يولد رضيع رقيق الحنجرة».

أهل الأرض جميعاً لا يحقنّ لك أن تقنط من رحمة الله، فما بـالك؟ ولِمَ تحمل مثل هذاالوزر الثقيل؟! فلتكن منك في هذه المرة توبة من أعماق وجودك تقذف بك إلى ما وراء حدود شيطانك، فاجهد لمـثل هذا.

قال تعالى:

﴿والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وان الله لمع المحسنين».﴾[1].

* * *

استمع لابن الفارض يقول:

كـل مـن فـي حـماك يـهواك لكـن
أنا وحدي بكـل مـن فـي حـماكـا

فُقت أهل الجـمال حسـناً وحسـنى
فـــبهم فـــاقة إلى مـــعناكـــا

يُــحشر العــاشقون تــحت لوائـي
وجـــميع المــلاح تــحت لواكـــا

* * *

ولك في كلام خليل الله حقيقة تطرب لها روحك إذ:

---

١ ـ سورة العنكبوت، الآية ٦٩.

﴿قال ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون﴾[١].

وأنت لست من الضالين (معاذ الله) لتقنط من رحمة ربك، تعمق في مفهوم الآية فإنه يتركز على «رحمة الرب» فيد ربوبية الله لم تتخل عنك منذ أوان انعقاد نطفتك حتى الآن. إنها يد الإنماء لا الإفناء، إنه فعل الرحمة لا النقمة، حاشا ربوبيته وشؤون تنشئته أن يتأتى منها إلا نيل الكمالات، فغايتها من الحضيض انتشالك وعلى عرش الجاه إجلاسك. فأنّى للقنوط إلى قلبك سبيل في مثل حضرة الجليل؟!

فيا ربيب يد الحق، أنت ربيب تطلب الهدى من ربك لبلوغ ضالتك وهو الله. أما قرأت قول النبي يعقوب ﷺ لبنيه وهو يتقصى ضالته: ﴿لا تيأسوا من روح الله، إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون﴾.[٢]

وأنت (معاذ الله) لست من زمرة الكفرة لتيأس من رحمته.. فلتشدد حزامك دون توان، وتطلب ضالتك في كل حي وحارة دون كلل.

كأنني اسمع الشيطان يهمس في أذنك أن: هذا الكلام لا بأس فيه ولكن هذا السبيل سبيل الأطهار، طريق الصالحين المنزهين من كل ذنب وإثم، طريق المتلوعين الوالهين وأنت تئِنّ متثاقلاً تحت وطأة ذنوبك، أنّى لك سلوك هذا الطريق؟!

قرّب إليه رأسك وأهمس في أذنه: يا سلاب قوافل العباد، للعبد عن اليأس غناء ما دام باب التوبة مفتوحاً وقد بُشّرت بأن دعائي

---

١ ـ سورةالحجر، الآية ٥٦.

٢ ـ سورة يوسف، الآية ٨٧

مستجاب:-

﴿قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً﴾.[١].

ثم لا تنس خطابه إيانا:

﴿ادعوني استجب لكم﴾.

إنه باب ما غلق قط ولكن الاستجابة تتأتى بالدعاء فتوجه إليه بدعائك. استمع إلى الإمام علي عليه السلام ينصح ابنه:-

«.. وفتح لك باب المتاب وباب الاستعتاب، فإذا ناديته سمع نداك، وإذا ناجيته علم نجواك، فأفضيتَ إليه بحاجتك، وأبثثته ذات نفسك، وشكوت إليه همومك، واستكشفته كروبك، واستعنته على أمورك، وسألته من خزائن رحمته مالا يقدر على إعطائه غيره، من زيادة الأعمار، وصحة الأبدان، وسعة الأرزاق. ثم جعل في يديك مفاتيح خزائنه بما أذن لك فيه من مسألته، فمتى شئت استفتحت بالدعاء أبواب نعمته، واستمطرت شآبيب رحمته، فلا يقنطنك إبطاء إجابته، فإن العطية على قدر النية. وربما أُخّرت عنك الإجابة، ليكون ذلك أعظم لأجر السائل وأجزل لعطاء الآمل وربما سألت الشيء فلا تؤتاه، وأوتيت خيراً منه عاجلاً، أو صرف عنك لما هو خير لك، فلرُبَّ أمر قد طلبته فيه هلاك دينك لو أوتيته، فلتكن مسألتك فيما يبقى لك

---

١ ـ سورة الزمر، الآية ٥٣.

جماله، ويُنفي عنك وباله. فالمال لا يبقى لك ولا تبقى له».[١]

* * *

والآن اجلس مستقبلاً القبلة وترنم بما توجه به الفيض الكاشاني متضرعاً إلى حضرة الرحمن:

يا رب تهى مكن ز مي‌عشق جام ما

از معرفت بريز شرابى بكام ما[٢]

* * *

إن قيل: متدنس أنت لا أمل فيك.

ردِّ: لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون.

إن قيل: قلبك مظلم كدياجير الليل.

أجب: ينتهي الليل بضياء النهار.

إن قيل: إنه باب لن يفتح في وجهك فكم تطرقه.

أجب: وعدني الإمام الصادق عليه السلام إن أنا واصلت الطرق يفتح في

---

١ ـ نهج البلاغة، الكتاب ٧٠.

٢ ـ معناه:

- «يا رب لا تجعلن كأسنا من شراب العشق خاوياً، اسكب في حلقنا من فيض المعرفة شراباً».

وجهي مآلاً حيث قال: «ليس باب يكثر قرعه إلا يوشك أن يفتح لصاحبه».

إن قيل: وكم لك أن تذرف الدمع في بيت الأحزان هذا؟!

اجب: قد ينتهي مقامي في بيت الأحزان بالسكنى في جنة الرضوان.

إن قيل: يا مُعذَّب إلى متى تئِن؟!

أجب: ما أنيني إلا من ضلالي.

إن قيل: امسح عن وجهك غبار هذا الطريق.

أجب: هو لطلب الفلاح دواء مرغوب، انه غبار طريق استجداء المحبوب.

إن قيل: دع عنك هذا العناء.

أجب: هيهات أن أَكِلّ عن طلب الغناء.

وإن قيل: فمتى تبلغ مبتغاك.

أجب: وعلامَ العجل؟ فيض الله مدرار ميمون لا حدّ له ولا حصر، في الطريق إليه.

إن قيل: من أين للسانك هذا الاسترسال؟

أجب: لقنَيه ربّ العزّ الأزلي.

في مثل هذه الحال يأتيك الخطاب أن اذهب فاننا على يقين أن عناء سفرك وآلامه سوف تزول قريباً. أدر لهم ظهرك، واصل دربك،

وترنم بما ارتجزه الشاعر بابا طاهر الهمداني:

بخنجر گـر بـرآرنـد ديـده گـونم

بـه آتش گـر بسـوزند اسـتخونم

اگــر بـر نـاخونهم نـى بكـوبند

نگــيرم دل ز يــار مـهربونم[١]

كن آيساً من نفسك، فإن فيه فلاحك. ولكن لا تقنط قط من ربك. فقنوطك في باب الكريم الغني دليل جهلك وضلالك. وقد نصحك الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام أن يكون أملك فيما يأست منه أقوى من أملك فيما ترجوه.

وكيف لك أن لا تشغف حباً بالخلود في ديار الوصال أو أن تشيح بوجهك عن مثل هذا الرجاء المنعش وقد قال نبيك صلى الله عليه وآله وسلم أن الله أعد لعباده الصالحين ما لم تره عين ولم تسمع به أذن ولم يخطر على بال إنسان.

وأنت تقرأ في القرآن أيضاً:

﴿فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون﴾[٢].

لا تنأى عن دربه. لا ترفع عنه عينك، وهل لك غير سبيله طريق؟

---

١ ـ معناهما:

- «إن اقتلعتْ مقلتاي بخنجر، وحرقتْ عظامي بالنار»

- «وغرستِ الأعواد في أظافري، لا يكف قلبي عن (حب) حبيبي الرؤوف».

٢ ـ سورة السجدة، الآية ١٧.

وهل تعرف سواه حبيباً؟ إنك سكنت حارة كريم وصاحب الدار رحيم، لا ييأس من عطفه كل سقيم.

«الرحلة، بدايتها ومراحلها»

ايها العزيز!

رحلتك تخوضها في ربوع قلبك لا في أرجاء مدينتك، في باطنك لا في خارجك. طريقك فيها لا يحمل إسماً ولا رسماً بل يهتدي إليه السالك بما أفاض عليه الآخرون ولكل منهم مصطلحاته ولغته. تجعلك كثرتها أن تتصورها طرقاً شتى وما هي إلا واحدة اختلفت أذواق المتحدثين عنها.

أنت إن تساءلت عن مسافة مدينتك حتى العاصمة مثلاً يجيب عليك شخص بأنها كذا فرسخاً والآخر كذا كيلومتراً وثالث بأنها كذا قدماً ورابع بأنك تقضيها بكذا ساعة. ربما كانت الردود جميعها صحيحة ولكنها انساقت في عبارات مختلفة لا غير.

وهذا التصنيف والتقسيم ربما تعداه، من قبلهم إلى جوانب أخرى أيضاً، وجميعها لا يخلو من الصحة.

فالشيخ عبد الله الأنصاري حدد المسافة بأنها مائة منزل، راح يتحدث عنها في «منازل السائرين».

والشاعر عطار النيشابوري يحدثك في كتابه القيم «منطق الطير» عن أودية (أي منازل) سبع، سماها: الطلب، العشق والهيام، المعرفة، الاستغناء، التوحيد، الحيرة، والفقر والفناء.

«وادي الطلب»

چون فرود آئی بوادی طلب

پیشت آید هر زمانی صد تعب[١]

لا بد للسالك في منزل الطلب أن يتجرد عن كل شيء وتعلق وإن كان قد قضى عمره ملتزماً الأعراف والعادات، خائضاً غمار جميع المحاسن والسيئات، متلوثاً بكل الأدران والتدنسات.

ولكن التجرد عن التعلقات ليس بالأمر الهين. من هنا يصف «عطار» هذا المنزل بأنه مقام شاق، اجتيازه يلزم السالك بالمجاهدة حتى يظفر برشفة من كأس القرب، فما أن يتذوق لذة القرب تنكفىء آلامه ومعاناته ويترسخ في قلبه أمله بالفلاح.. وبالتالي يهيم حباً بمطلوبه.

---

١ ـ معناه:

- «لما تهبط إلى وادي الطلب، ينزل بك في كل زمان مائة تعب».

«وادي العشق والهيام»

بعد از آن وادی عشق آید پدید   غرق آتش شد کسی کانجا رسید[١]

يصل المحب هذا الوادي وقد ارتشف رشفة من شراب الوصال، واشتم نفحة من روضة القرب. وهو يكاد يحلق بجناحين لعله بذلك يصل جنة اللقاء، فما يزال يزيح العقبات الواحدة بعد الأخرى عن دربه، ويتحول عقله المادي المتبصر في شؤون العالم رماداً بين لهب نيران الوله. في هذا المنزل يُفرغ السالك فؤاده من كل تعلق سواه وبذلك يهتدي قلبه إلى الحبيب. وتبدأ منذ اللحظة حقيقة وصاله التي وعد عز وجل الآخرين بنواله في يوم القيامة.

هذا ما تؤكده لنا الآية:

﴿ولمن خاف مقام ربه جنتان﴾.

«وادي المعرفة»

بعد از آن بنمایدت پیش نظر   معرفت را وادی بی پا و سر[٢]

في وادي المعرفة تتجلى مظاهر العظمة والجلال، مظاهر تختلف

---

١ ـ معناه:

– «يبرز وادي الهيام بعده، يتلظى بالنار كل من يبلغه».

٢ ـ معناه:

– «ثم تظهر لك، بعده، المعرفة في وادي لا بداية لحدوده ولا نهاية».

لاختلاف القوابل والاستعدادات. فكل ينهل - على قدر قابلياته واستعداده - من أنوار الحق تعالى الأبدية. وفي هذا المنزل تماط اللثام عن كثير من الأسرار، وبهذا يودّع قلب السالك مئات من استفهاماته.

ثم يردف عطار بأنك إن تذوقت قطرة من كأس المعرفة، فإنك سوف تشعر في نفسك بلذة تسكرك حتى تلقي بنفسك في بحر تبلغ طريق هنائك بالسير فيه. فإن لم تجرف مياه هذا البحر الأوهام، وتزيلها عن البال، فليعفرن الوجه بغبار طريقه، وليتجرعن الضيم إلى الأبد كل من أشاد صرح سرور قلبه على اللذائذ المادية لهذا العالم.

«وادي الاستغناء»

بعد از آن وادى استغنا بود   نى در او دعوى ونى معنا بود[١]

لما بلغ اندهاش النبي موسى عليه السلام بأعمال الخضر عليه السلام مبلغه خاصمه المرة تلو المرة: ثقب السفينة والاضرار بأملاك الناس، جدار اليتامى، والأدهى من ذلك قتل الصبي مما استثار غضبه إزاء استاذه، ولكن بانكشاف الحقيقة من وراء الستر يصار عظام الأمور إلى منتهى الصغر والشدائد إلى غاية الخفة.

لآتيك بنص من نهج البلاغة:

---

١ ـ معناه:

- «بعده يأتي وادي الاستغناء، فلا جدال فيه ولا حاجة إلى تفسير ومعنى».

«.. قد أحيا عقله، وأمات نفسه، حتى دق جليله، ولطف غليظه».[١]

فما يتجلى لغيره بانكشاف الحجب بعد الموت يحصل له في نفس هذا العالم.

﴿وتكون الجبال كالعهن المنفوش﴾.[٢]

و:

﴿إذا دكت الأرض دكاً دكا﴾[٣].

ففي هذا المنزل تنهار مظاهر عظمة العالم المادي وإن كانت شاهقة في النظر كالجبال وتفقد الأرض بما وسعت هيبتها إزاء الرب:

﴿إذا السماء انشقت، وأَذنت لربّها وحُقت، وإذا الأرض مُدت. وألقت ما فيها وتخلت﴾.[٤]

فالعارف يهتدي السبيل بعظمة يجعل باصرته تخرق أجواء السماوات العلى وتقذف حب الأرض وبهارجها خارج قلبه.

«وادي التوحيد»

بعد از آن وادي توحيد آيدت   منزل تجريد وتفريد آيدت

١ـ ميزان الحكمة، الحديث ١٥٧٤، شرح نهج البلاغة، ابن ابي الحديد، المجلد ١١، ص ١٢٧.

٢ـ سورة القارعة، الآية ٥.

٣ـ سورة الفجر، الآية ٢١.

٤ـ سورةالانشقاق، الآيات ١ – ٤.

گر بسی بینی عدد گر اندکی   آ یکی باشد در این ره آن یکی[1]

في هذا المنزل تنساق الكثرة الظاهرية في سياق الوحدة الواقعية للاستدلال على هذه الوحدانية يلجأ الشاعر «عطار» إلى برهان فيثاغورس لإثبات ان الأعداد وإن كانت لا تحصر إنما كلها تركيب وعرض للعدد (١) ليس إلا. ولكن ما دامت وحدانية الحق تعالى ليست وحدانية عددية مما يعرض هذا المثال للالتباس من وجهة النظر التوحيدية القرآنية، يعود عن رأيه فيقول: لما كان الله منزهاً من هذه الأمثلة وليس كمثله شيء فاقطع الأمل عن فهم أزليته وأبديته واعلم ان الكثرة زائلة مآلاً وما هي إلا لحياتنا هذه.

«وادي الحيرة»

بعد از آن وادی حیرت آیدت   کار دایم درد و حسرت آیدت[2]

شمس الحقيقة تشرق على هذا الوادي، الحجب تسقط والمُلك يتراجع فيحل محله الملكوت. وللسالك على مر اللحظات، بعد عمر قضاه بين تصورات وخيالات بعيداً عن حقائق المقالات، حسرات

---

١ ـ معناهما:
- «يأتيك بعدها وادي التوحيد، يأتيك منزل التجريد والتفريد».
- «العدد إن كثيراً كان وإن قليلاً كلها في مجرى بعضها يسير».

٢ ـ معناه:
- «بعده أتت إلى وادي الحيرة تهبط، لك فيه مع الالم والحسرة تواصل».

وحسرات. ومن جهة أخرى فإنه لما يشهد عالم الوحدة وتنحي الكثرة وتجلي مظاهر عظمة الحق تعالى وجلاله، يغرق في بحر الحيرة.

في هذا المقام ما زال ليل الأنانية يلقي بآخر ظلاله على وجود السالك رغم أن مظاهر طلوع شمس الوحدة تعم أغلبية وجوده. إنه يعاني من الحيرة في معرفة القلب وما شغفه حباً. وله نفس هذه النظرة في رؤيته إلى العالم الخارجي.

«وادي الفقر والفناء»

بعد از اين وادى فقر است وفنا   كى بود اينجا سخن گفتن روا؟
عين وادى فراموشى بود   لكنگى وكرّى وبيهوشى بود[1]

ولما كان لشخصية السالك في هذا المقام اندكاك تام في ظهور الحق تعالى وشهوده، فأنى يمكن الكلام عن شخص فان؟

استمع إلى الشاعر حافظ في بيت من شعره:

تو همچو صبحى ومن شمع خلوت سحرم
تبسمى كن وجان بين كه چون همى سپرم[2]

---

١ ـ معناهما:
- «ثم يتلوه وادي الفقر والفناء، ومتى كان جائزاً في مثل هاهنا الكلام».
- «فمجمل الحال في الوادي النسيان، العرج والصمم والغشيان».

٢ ـ معناه:

في هذا المقام يغفل السالك عن ذاته بكلها حيث انه يرى حبيبه وكأنه بين جنبيه حتى ينسى نفسه تماماً فيكون أشبه بالمجنون لو يُطلب منه أن يفصد شريانه لا يرتدع. وما أن يفعل يغلب عليه هاجس نزف الدم من شريان ليلى.

إنه مقام تنكشف فيه حقيقة مفهوم «أقرب إليه من حبل الوريد»، ويرفع فيه اللثام عن تجليات «هو الأول والآخر والظاهر والباطن» فيظهر وجهه الفاتن من وراء الستار أينما تولوا وجوهكم فثم وجه الله.

يرى «عطار» أن أقوى الرجال ارادة والسالكين ممن اختبروا النضوج يتنبهون إلى هذه الحقيقة الخفية منذ أول خطوة يخطونها على هذا السبيل فتنمحي الممكنات إلى جنب واجب الوجود تعالى شأنه، فما يتوثق منه الآخرون بعد الموت من أن كل العالم للواحد القهار، يلتهج لسانه (هو) به هاهنا.

الفناء يحل بالجميع مآلاً والنار تحوّل كل الحطب والعود رماداً ولكن من هذا يتصاعد دخان أسود حالك الظلمة ومن ذلك عطر كوني منعش.

ايها العزيز! لا أرانيك الله مرهقاً. الشاعر عطار يرمز للمُرشد بالهدهد مستلهماً مثله من قصة النبي سليمان وحكايته مع الملكة بلقيس، أتاك ربك بذكرها في سورة النمل، فكما أخذ هذا الطائر بيد

← – «أنت كالصبح وأنا شمعة خلوات الأسحار. تبسم وانظر إلى قلبي لأسلمنه لك بالتمام».

الملكة بلقيس من وادي الكفر وعـبادة الأوثـان إلى بـوابـة الايـمان والانتماء إلى بيت مبعوث الله إلى الأنام، المُرشد هو الآخـر يُـوصِل السالك من الضلالة الساحقة إلى الهداية الحقيقية.

و«العنقاء» ترمز من حيث الاستتار والعظمة إلى المحبوب الأزلي.

وإن كنت راغباً في المزيد لك فـي «مـنطق الطـير». للشـاعر عـطار حديث، في هذا السياق، كثير.

* * *

والبعض يقسم المنازل ثلاثة: الشريعة، والطريقة والحقيقة.

وهذا كلام في منتهى الصحة والصدق.. فـما لم يكـن لقـلبك فـي التمسك بالشريعة المحمدية ﷺ استقرار، لا تظفرن بثباته على الطريقة الالهية وما لم يتشبع بمعرفة الطريقة الالهية لا تتجلى له أنوار الحقيقة.

فمرحلة الشريعة تتطلب الالتزام بأحكام الشرع وهذا ما يتولاه علم الفقه.

وللثبات على الطريقة الالهية يـنبغي التـمسك بـالآداب الروحـية والقلبية. وهذا ما يتعهد به علم الأخلاق.

وفي مرحلة تجلي أنوار الحقيقة يتم ولوج عالم الحقائق بالاتصال بالمعارف الأصلية. فالمعارف في هذا المقام نبراس الهداية فلا بد أن ينال السالك شهوداً في هذه الحقائق من قبل الحق تـعالى. والجـدير بالذكر فيما يخص هذا التقسيم هو أن السالك لا يكون فـي أي مـن المراحل عن المرحلة السابقة في غنى. وفي نفس عالم الشـهود هـذا

تجده أكثر التزاماً بما كان قد ظفر به في منزلي الطريقة والشريعة.

والآن استمع إلى ما يستوحى من الأسفار الأربعة فيما يخص رأي العارف الكبير الشيخ محمد رضا قمشهاي (ره):

«اعلم أن السفر هو الحركة من الموطن متوجهاً إلى المقصد بطيّ المنازل وهو صوريّ مستغن عن البيان ومعنويّ وهو أربعة:

(الأول): السفر من الخلق إلى الحق برفع الحجب الظلمانية والنورانية التي بينه وبين حقيقته التي معه ازلاً وأبداً - وأصولها ثلاثة وهي الحجب الظلمانية والنورانية العقلية والروحية أي بالترقي من المقامات الثلاثة برفع الحجب الثلاثة فإذا رفع الحجب يشاهد السالك جمال الحق ويفنى عن ذاته وهو مقام الفناء وفيه السر والخفيّ والأخفى فينتهي سفره الأول ويصير وجوده وجوداً حقانياً ويعرض له المحو ويصدر عنه الشطح فيحكم بكفره فاذا تداركته العناية الالهية يشمله ويزول المحو فيقرّ بالعبودية بعد الظهور بالربوبية.

ثم عند انتهاء السفر الأول يأخذ في السفر الثاني وهو السفر من الحق إلى الحق بالحق وإنما يكون بالحق لأنه صار ولياً ووجوده وجوداً حقانياً فيأخذ بالسلوك من الذات إلى الكمالات حتى يعلم الأسماء كلها إلا ما استأثره عنده فتصير ولايته تامةً ويفني ذاته وصفاته وأفعاله في ذات الحق وصفاته وأفعاله وفيه يحصل الفناء عن الفنائية أيضاً الذي هو مقام الأخفى ويتم دائرة الولاية وينتهي السفر الثاني ويأخذ في السفر الثالث.

وهو من الحق إلى الخلق ويسلك في هذا الموقف في مراتب

الأفعال ويحصل له الصحو التام ويبقى ببقاء الله، ويسافر في عـوالم الجبروت والملكوت والناسوت ويحصل له حظ من النـبوة وليس له نبوة التشريع وحينئذ ينتهي السفر الثالث ويأخذ في السفر الرابع:

وهو من الخـلق إلى الخـلق بـالحق، فـيشاهد الخـلائق وآثـارها ولوازمها فيعلم مضارها ومنافعها ويعلم كيفية رجوعها إلى اللـه ومـا يسوقها فيخبر بها وبما يمنعها فيكون نبياً بنبوة التشريع».

* * *

ولكي لا تستولين عليك الأوهام ولا تقول: كيف يكون للرقي في هذه المنازل انسجام مع الحياة اليومية، أقرأ عليك بعض ما استوحيته من تفسير سورة الأعلى لصدر المتألهين (قده) حيث يرى ان الإنسان الكامل هو الواقف عند الفاصل المشترك بين عالم الأمر وعالم الخلق.. وصار صدره مستقبلاً للخلق والحق معاً، تراه، في حين ما، مـع اللـه منشغلاً بعبادته. وفي حين آخر، مع الخـلق مـنهمكاً بـالشفقة عـليهم والرأفة بهم. فهو عندما يولي وجهه - وهو عند ربـه - نـحو الخـلق يكون واحداً منهم وكأنه لا يعرف الحق. وعندما يختلي بربه وينساق في مجرى ذكره ومواصلة العمل لارضائه كأنه لا يـعرف مـاذا حـل بالخلق. وهذا برأيه (برأي صدر المتألهين) طريق الأنبياء والصديقين.

عزيز النسفي ورأيه في «السلوك»:

«للإنسان مراتب. والصفات والأخلاق الإنسانية مكنونة في الذات

الإنسانية ولهذا تظهر في كل مراتبه بمظهر. ولما تظهر مراتب الإنسان بكلها تتجلى الصفات والأخلاق الإنسانية بتمامها وينتهي العالم الصغير، ويصبح هذا السالك، المُتفرغ من العالم الصغير نائباً لله وخليفته في العالم الكبير فيكون قوله قول الله وفعله فعل الله.. هذا هو التجلي الأعظم، فتجلي الأخلاق يكون هاهنا، وتجلي العلم هاهنا. العلم يتجلى في أماكن كثرة.. ولكن علم المحيط يكون هاهنا. هنا يعرف نفسه ويعرف ويرى الأشياء كما هي. إذاً السلوك هو توجه السالك نحو مراتبه واستدارجها للتجلي تماماً بالتدريج ليفرغ من العالم الصغير. فما لم ينته العالم الصغير لا يغدو نائباً لله وخليفة له في العالم الكبير ولا يظفرنّ بالتحكم بأهل العالمين.. فكيف بمن لا يتحكم بنفسه، أن يتحكم بالآخرين؟ فالبعض يزلّ هاهنا فيتهاوى في عذابات مختلفة فلا يبلغن مقصوده ومطلوبه.

ولما تتجلى مراتب السالك جميعاً ينتهي طريق السلوك.

يتضح أنك أنت السالك. وأنت الطريق وأنت المنزل. ولما تتجلى مراتب السالك جميعاً، عندها تبدأ السير في الله. ولا نهاية لهذه الرحلة أبداً». (١)

ثم انه يقول في مجال آخر من كتابه:

«للإنسان مراتب، كما للشجرة مراتب. وما يظهر للشجرة في كل مرتبة من مراتبها جلي للعيان. ففعل البستاني هو أن يمهد الأرض

---

١ ـ عن كتاب «الإنسان الكامل»، عزيز الدين النسفي.

ويهيأها ويزيل عنها الأشواك والقذى ويرويها في حين السقاية ويحافظ عليها كي لا تصاب الشجرة بآفة لتظهر مراتب الشجرة كلها، كل في حينه المناسب. هكذا هو فعل السالكين أيضاً.. يجب ان تكون نية السالك في رياضاته ومجاهداته أن يغدو إنساناً لتتجلى فيه المراتب الإنسانية بتمامها. فعندما تظهر المراتب الإنسانية بتمامها، تتجلى عنده الطهارة والأخلاق الحسنة والعلم والمعرفة ومكاشفة الأسرار وظهور الانوار الإلهية، كل في حينه، شاء أم أبى. وتظهر لديه أمور لم يسمع السالك اسمها حتى آنذاك ولم تخطر على باله قط.

جميع مراتب الشجرة كامنة في بذرتها. ولكن يلزمها: البستاني الحاذق والتنمية والتنشئة لتظهر بتمامها. وهكذا الطهارة، والأخلاق الحسنة، والعلم والمعرفة، ومكاشفة الأسرار وظهور الأنوار، كلها تكمن في الذات الإنسانية. ويلزمها كلام عليم وتربية وتنشئة لتتجلى بتمامها».

يقول أحد العظام: «كلما أنظر في باطني أجدن فيه قارة لم تكتشف فتُقدم لي ما هو أحدث من كل حديث وجديد».

فما يدريك أية مظاهر للعظمة يكتنفها باطنك؟! رضيت للأسف بغار ضيق في مضيق عالم الجزع أو صار لنفسك مع هذه الظلمة والضيق التئام وانسجام، ولكن لا تنس أن العمر في انصرام. عندما تتأمل واقعك تجدن نفسك تُراوح حيثما كنت. ألا تأسف على ذلك؟ المسموعات لم تُقَلْ وما يذاق لم يطعم بعد؟

الطريق معبد أمامك والمرشد مستعد لإرشادك. النداء موجه إليك

والرسل بعثت إليك ولكنك نسيت نفسك وراوحت مكانك. فيا أسفاه ويا ألف حيف وحسرة.

إياك أن تنكر حقيقة لقاء المحبوب أو أن تقنط من فيضه. أنظر بم يخاطب الله تعالى هذا الفريق من الناس:

﴿والذين كفروا بآيات الله ولقائه، اولئك يئسوا من رحمتي وأولئك لهم عذاب أليم﴾.[١]

﴿قل هل نُنبئكم بالأخسرين أعمالاً الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسبون صنعاً أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه فحبطت أعمالهم﴾.[٢]

* * *

وقسم البعض طريق السلوك إلى خطوتين: خطوة تخطوها في نفسك وأخرى تصل بها إلى ديار المحبوب.. الشوط الأول تجوال في ربوع النفس والثاني في ديار الحبيب. وهذا الكلام بحد ذاته موجز وصحيح يتضمن جميع أركان السلوك إن تم بسطه بالتفصيل، فجميع التعلقات والأوهام والتصورات والهفوات منشأها النفس فإن تجردت عنها كلها التحقت بسلك المُخلَصِين.

---

١ ـ سورة العنكبوت، الآية ٢٣.

٢ ـ سورة الكهف، الآيتان ١٠٤ و ١٠٥.

والبعض الآخر يقسم السلوك إلى منازل ثلاثة: التحلي والتخلي والتجلي والبعض الآخر يقدم التخلي على التحلي وهو ما جندته في هذه السلسلة فاصطحبتك بحسب هذا التقسيم منذ الخطوة الأولى حتى بلغنا مقامنا هذا ولله الحمد.

حسناً، ايها العزيز! ما قيل وذكر كله انساق في مجرى الحديث عن المبتغى، والمهم هو الخطوات التي تتخذ بالفعل لبلوغه، وإلا فكل هذه الأقاويل عبث بالألفاظ، لا يُحرز بها مقام.

يعلم الله أن الحياء يغلبني وأنا أملي هذا الكلام على قلمي فأتوجه إلى حضرة الستار وأتضرع إليه أن: إلهي، افتتح عليّ باب هذا المقام، وإلا فلا يفيضن عليّ الكلام بشيء من ذلك النعيم وتلك الروضة.

عسى أن يهدينا الله جميعاً إلى منازل قربه.

اشدد حزامك ودعنا نواصل السير فحضيرة قدسه أمامنا ومصيدة إبليسه من ورائنا.

«التكامل في طريق السلوك، تدريجي»

ايها السالك! أما رأيت تنامي الأشجار، كم من الوقت قضى مزارعها في انتظاره. يقال أن شجرة الجوز تثمر بعد خمس عشرة سنة.

فاصطبر وتجلد في سبيل الله لتجني أزهاراً من هذه الروضة.

گفت پيغمبر كه چون كوبى درى   عاقبت زان در برون آيد سرى
سايه حق بر سر بنده بود   عاقبت جوينده يا بنده بود[1]

لا تستنكفنّ من الاستجداء عند هذا الباب. فإن كنت تعرف باباً غيره دلّني عليه!

إحمل معك هدية لعلك تعجل هكذا بفتح الباب.

فالهدية تزداد حسناً إن حملت إلى من لا يملك مثلها، وربك مالك

---

١ ـ البيتان للشاعر مولوي ومعناهما:

- «قال النبي إن أنت طرقت باباً، سوف يطل عليك من ذاك الباب شخص».

- «ظِل الحق يمتد فوق رأس العبد، ومآلاً كل من جد وجد».

كل شيء إلا الحاجة والفقر تنزَّه منهما، وهما وسيلتك إليه. فإن كنت تحملها معك فتوكل على الله.

يروى أن صاحباً للنبي يوسف ﷺ حمل إليه مرآة هدية وقال له أنه اختارها لأنه علم أن يوسف ﷺ يملك كل شيء فلم يجدن هدية أليق به منها لينظر فيها ويرى حسنه فيذكره هكذا.

أيها الصديق! إنه الغني ذو النعماء ونحن بكلنا محتاجون، وإلى لطفه فقراء، يرى حاجتنا بنظره في عزه وفقرنا في غناه.

كثيرون تحدثوا عن طريق السلوك إلى الله. وكل ما يقال قيل، عساك أن تهتدي السبيل. إلجأ إلى الانفراد، اختل ساعة بنفسك سجل عمرك بحسب الأيام لترى كم أهدرت من عمرك أياماً، كأنك تذكرت بعد طول تأخير أنه لا بد لك من اجتياز الطريق.

فمن كان له من الشباب ذخراً فما أعظم سعادته! ومن أفنى الشباب مثلي فليئِنّ معي على ما أهدر من فرصة وأباد من ثروة.

اليأس من الذات أمر محمود، ولكنه لا يجوز في حضرة الكريم. فإن عزمت الهجرة إليه يوماً وقضيت نحبك غداً، فإنك ترحلن عن الدنيا في زمرة السالكين.

قال تعالى:

﴿ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله﴾.[١]

---

١ ـ سورة النساء، الآية ١٠٠.

تلاحظ انه ما قال: سالك الدرب بتمامه أو سالكه حتى أواسطه بل قال: المنطق من حيث يستقر. فكيف لنا أن نقنط؟ فكر بنفسك لترى من أنت وبباب من تتشبث؟

ترانيم الرحيل تتردد على أسماعنا يومياً، لا أدري كيف غشتنا غفوة الغفلة وما استهوى قلوبنا في هذا الطريق ومن خدعنا؟ ألم تستوعب روحك كنه قوله تعالى:

﴿ولا يغرنكم بالله الغرور﴾.[1]

بالله يقيناً أقسم: روحك عطشى، تكابد الظمأ إلى الماء لا السراب. كم كان بالحري أن ينتهي الطريق إلى هذا السراب بيوم واحد؟ واأسفاه، العمر ينقضي ولا يظهر للإنسان عبث هذه الخيالات إلا في اللحظات الأخيرة من عمره، عندها يبلغ العطش حد الفوران:

﴿والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشيء إلا كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه﴾.[2]

هذه هي حكاية من يستهوي السراب قلبه وهو يقف إلى جانب نبع الماء وشغله العبث بالرمال في ضفاف النهر عن التنعم بخيراته. فمادام موسم الزراعة غير فائت بعد، انثر بذورك حتى لا تحرم الحصاد في حينه، إحرث تربة قلبك واشبعها من بذور المعرفة واطلب إلى الله أن يسندك بنصره في رعاية زراعتك:

---

١ ـ سورة لقمان، الآية ٣٣.

٢ ـ سورة الرعد، الآية ١٤.

قال الإمام الصادق عليه السلام:

«إن الله خلق قلوب المؤمنين ملهمة على الايمان فإذا أراد استنارة ما فيها فتحها بالحكمة وزرعها بالعلم وزارعها والقيم عليها رب العالمين».

الآن، أما عرفت كنه مفهوم الآية ﴿أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون﴾ من سورة الواقعة؟!

والله ان انقضاء العمر في الاستجداء على بابه والاقتيات على فتات معارف السالكين إليه والنظر في ساكني دياره لأفضل من غناء يحصل ونعيم تام يتأتى بالوقوف على باب سواه.

لا تتخلين أبداً عن بابه، التصق به كالعروة، فغبار دربه كحل لعيني محبيه. فلو كان لنا أمل في شرف واعتزاز فإننا نناله بالقرب من الأبرار والأخيار، وإلا فإننا نجد ذاتنا لا تحمل اسماً ولا رسماً.

إن كان هذا الكلام يثير عبير الرياض في شامتك، فلتعلمن أن تلك الروضة هي ديار المحبوب، فانهض لنتتبع العبير فنهتدي به السبيل إلى دياره.

«الحجب»

حسناً ايها العزيز! حتى بلوغنا هذا المقام وجدنا كل ما نتقصاه متجلياً غير مستور ولكن الموانع والعراقيل مازالت قائمة غير محدودة.

لا بد من إزاحة العراقيل والموانع عن الدرب، الواحد تلو الآخر، أن نشد العزيمة. فاجتياز الطريق يراد له همة شداد الرجال. الأمل كله في ولهك. فما لم يسكرك عشقه لا تقوى على حمل مثل هذه الأثقال. فلكي لا يعيدن إليك سقاء الأرواح صحوتك حتى للحظة ردد قول الشاعر حافظ الشيرازي: «ألا يا أيها الساقي أدر كأساً وناولها...».

اعلمن ان الحجاب الأكبر هو الكفر. فلنستعذ جميعاً به من هذا الحجاب، ومن أن يمنع قبسات نوره من الإشراق على قلوبنا. فقلوب الكفار أكثر ظلمة من الليل الدامس ووجوههم يتغشاها صدأ أكثر حلكة.

قال تعالى:-

﴿وجعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجاباً مستوراً﴾.[1]

والملفت أنهم عندما يبصرون مجموعة من النـاس يسـارعون إلى الحق مغتبطين لا يبالون ببذل أرواحهم وأموالهم وأبنائهم في سـبيله، يشعرون بوضعهم المنفور ويدركون أن ما يستوعبه الآخرون يـخرج عن مستوى فهمهم.

﴿ومن بيننا وبينك حجاب فاعمل إننا عاملون﴾[2].

فاشكر ربك أن حفظك من هذا الحجاب. فالمبتلون به لا يفارقون رب الأرباب في هذا العالم فقط بل تتلظى أرواحهم بلوعة هذا الفراق في تلك الدار. هذا ما تؤكده الآية:-

﴿كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون﴾.[3]

❊ ❊ ❊

وأما الحجاب الثاني فإنه حجاب المعصية. فإن وقفت في لجـتها، فإنك بكل إثم تقترفه تتراجع خطوة إلى الوراء بدلاً من السلوك مضياً إلى الله. أخشى ان لا تبلغ كعبة المحبوب قط بل تتقدم نـحو خـربة المنحوس.

ألم تر أولئك الذين يرتضون بـوجاهة أو جـاه أو فـرقة ومـرشد

---

١ ـ سورة الاسراء الآية ٤٥.

٢ ـ سورة فصلت، الآية ٥.

٣ ـ سورة المطففين، الآية ١٥.

فيتدنسون بكل درن ويخوضون في كل شيء متذرعين بأن المهم هو سريرة الإنسان، كأنهم غفلوا عما يفعله الذنب الظاهري في الواقع الباطني.

لا أتوقف عند هذا الحجاب، عسى أن يكون ما تقدم من كلام قد أثّر فيك، فطهّرت وجودك من كل معصية وذنب عليه تلام. فقد عرضت لك في مبحث «التزكي» المعاصي واحدة واحدة، وقدمت لك في مبحث «التخلي» شراب التوبة لتغتسل به وأراك اليوم، بعون الله، تتلألأ طهراً كأنك من نجوم الأسحار.

* * *

وأما الحجاب الثالث فإنه حجاب التعلقات القلبية التي تحول بينك وبين الله، فالقلب محل استقراره. أنت مخير فيم تحب ولكن اتركه وراء قلبك واخلص قلبك لله وحده فكل ما يرد القلب يحجب الله عن صاحب القلب. فإن الله غيور وقلب المؤمن لا يستوعب سواه. فحتى النبي سليمان ﷺ لما تنبه لانشغاله بجياد جميلة جيء بها قال:

﴿إني احببت حب الخير عن ذكر ربي حتى توارت بالحجاب﴾.[١]

ألم تعلم أنك لو فسحت مجالاً في قلبك لسواه إنما فتحت بوجه الشرك باباً من أبواب وجودك؟ فيطل عليك الشيطان منه على حين غرة باسماً مع كل من أذكارك وصلواتك وتمعنك في الله، فيلهيك،

---

١ ـ سورة ص، الآية ٣٢.

ويشغلك ليمنعك عن ذكر الله، فتتعذب لفراق ربك وتكتوي بلوعة تسلبك راحة بالك. فصحبته تبعدك عن الله. فتعال وتمثل بخليل الله عندما تأمل القمر والنجوم اللامعة.. جعلنا نردد عبارة الرفض ونتمسك بكلمة «لا» في مثل موقفه:

﴿لا أحب الآفلين﴾.[١]

وهذا الحجاب قد يتراءى لقلبك في هيئة حب المال:

﴿وتحبون المال حباً جماً﴾.[٢]

وأحياناً قد تتهاون في أمر الله لانشغالك بحب غيره، تتمسك بحبيب زائل متخلياً عن محبوب هو لكل أمر فاعل، فيكون لرضاه أرجحية على رضا الله عندك:

﴿ومن الناس من يتخذ من دون الله انداداً يحبونهم كحب الله﴾.[٣]

وكذلك لا تنس أن الزوجة والأبناء أيضاً يصبحون في بعض الحالات حجاباً:

﴿زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين﴾.[٤]

وقد يبلغ بك الأمر أن تتحول الدار وأثاثها وزينتها حجاباً لسلوكك: المال حجاب، الدكان حجاب، الزوجة والأبناء حجاب والمهنة

---

١ ـ سورة الانعام، الآية ٧٦.

٢ ـ سورة الفجر، الآية ٢٠.

٣ ـ سورة البقرة، الآية ١٦٥.

٤ ـ سورة آل عمران، الآية ١٤.

والتجارة و...، كلها تغدو حجباً.

﴿قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم واخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره﴾.[١]

ولتعلمن أن إزاحة هذه الحجب أمر جد صعب بل لا يقوى حتى على التنبه لها إلا من أنار الله قلبه بنور منه، يميز به درب الهناء عن درب الشقاء.

من هنا قال الإمام الصادق عليه السلام:

«أليس الدين إلا الحب والبغض».

كان العرفاء يتولهون بكل ذرة في عالم الوجود. وسآتيك بحكاية ولههم في بحث قادم إن شاء الله. ذكرنا أنه لا بد من إخلاء القلب من غير الله فكل ما سواه حجاب يحول دون سلوكك. فأنى لهاتين الحالتين أن تتواءما معاً.

أنت لو كنت محباً لله سوف تحب كل ما ينسجم معه ومع عبادته. فكل نفثات سلسلة الحب هذه إنما تترشح عن معدن حبه.

ولمعرفة حلقات هذه السلسلة يكفيك أن ترى نفسك تفتديها في سبيل الأصل في حينه. فأنت تحب المال ولكنك تبذله لأجل حضرة الكريم:

---

١ ـ سورة التوبة، الآية ٢٤.

﴿وآتى المال على حبه ذوي القربى واليتامى والمساكين﴾.[١]

عند الضرورة، فتكون ممن وصفهم الله سبحانه وتعالى في الآية:-

﴿ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيماً واسيراً﴾.[٢]

فاعلم أن الآية نزلت في شأن أناس يتطوعون بطعامهم وهم بالجوع يشعرون. فباذلو المال ليسوا للمال كارهون ولكنهم بالحق تعالى يتولهون وإزاء حبهم له بتعلقاتهم بما سواه يفتدون. تمعن بدقة في عبارة «على حبه» في الآيتين الأخيرتين.

والأكثر حسناً في هذا الاختيار هو أن تضحي في سبيل حبه بما تكون أكثر انجذاباً إليه:

﴿لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون﴾.[٣]

ثم انك لمّا تتكالب عليك التعلقات لتمحق حبك لله وتحول بينك وبينه، تتذكر قوله تعالى:-

﴿لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم اولياء ان استحبوا الكفر على الايمان﴾.[٤]

لا أريد أن أطيل مقامنا عند هذا البحث.. يكفيك أن تعلم أن كل ما يرد القلب من خير أو شر ويمنعك عن الله وذكره وعبادته فإنه حجاب، يعيق سلوكك بل وثن يستعبدك.

---

١ ـ سورةالبقرة، الآية ١٧٧.

٢ ـ سورة الإنسان، الآية ٨.

٣ ـ سورة آل عمران، الآية ٩٢.

٤ ـ سورة التوبة، الآية ٢٣.

والآن تعمق في الحجاب الرابع ألا وهو التبعية والتمثل، التمثل بالمجتمع والأسرة والأصدقاء. فأنت قد ترى كثيرين ممن يدورون حول أنفسهم وقضوا من العمر حتى داهمهم المشيب وهم يراوحون مكانهم مع وقوفهم على أعتاب الشيخوخة. وأنت مع ذلك لا تتقدم خطوة واحدة إلى الأمام أكثر منهم. استأنست بالجلوس معهم إلى مائدة متوحدة وإن كانت مائدة تخلو من نعيم ويلقيك الاقتيات عليها في أعماق الجحيم.

فكلما أماطت الحقيقة عن لثامها على مر الحياة، أخفيتم جمالها بحجاب التبعية والتمثل. وقلتم كما قال قوم نوح عليه السلام:

﴿ما سمعنا بهذا في آبائنا الأولين﴾.(١)

تعمق في هذه الآيات:

﴿إنهم ألفوا آباءهم ضالين. فهم على آثارهم يُهرعون. ولقد ضل قبلهم أكثر الأولين﴾.(٢)

فكلما يطرق أسماعهم حديث بديع حادث لا يتأملون فيه ويتقصون حقيقته بل يسارعون لمناوئته فوراً لحداثته لأنه لم يأتهم من صاحب أو خليل أو قريب.. فبدلاً عن التمحيص وصفوا هذا ملحداً ونسبوا ذاك إلى أهل البدع والآخر نعتوه صوفياً أو درويشاً. فالكل يتحولون قضاة والكل يدلون بآراء ويصدرون أحكاماً. إنهم ينسون

---

١ ـ سورة المؤمنون، الآية ٢٤.

٢ ـ سورة الصافات، الآيات ٦٩ – ٧١

قوله تعالى:-

﴿ولا تقف ما ليس لك به علم. إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولاً﴾.[١]

إنهم يتهافتون في إيلاء الاحترام ولكن لأحكام العرف لا لأحكام الشرع، يسارعون لتبادل الزيارات مع المعارف والأصدقاء في الأعياد وإن كانوا قد لقوهم بالأمس ولكنهم يتجنبون زيارة موتاهم أو مرضاهم مرة واحدة طوال السنة. ينذرون الولائم ويأتون بمئات المعاصي خلال نفس تلك المجالس ولا يسمونها بدعاً.

أذكر أنني ذات ليلة من ليالي شهر رمضان المبارك كنت أتوجه بصحبة صديق لي لمجلس نتلو فيه دعاء أبي حمزة الثمالي.. كانت ليلة الخامس عشر من رمضان. كنت أشعر بأحاسيس طيبة، قلت له: يا صديقي! أريد أن أقضي ليلتي هذه متأملاً. كان ذلك في فصل الصيف وكنا في محل بالقرب من سفح جبل، والقمر قد تجلى في السماء بمظهر رائع. إلتجأت إلى الجبل في تلك الليلة ولكن صديقي قطع اتصاله بي منذ الغد. تناهى إليّ فيما بعد أنه قال: فلان أيضاً صار زاهداً.

إنه مثال من أمور كثيرة شاهدتها أنت ذاتك أو سمعت عنها في حياتك. ولكن حان موعد إفراغ باطنك من كل ما فرض عليك تناوله على أن تتوخى الدقة منذ الآن في كل ما يوضع أمامك على المائدة. فمن حديث شريف جاء في شرح الآية: **﴿فلينظر الإنسان إلى طعامه﴾**،

---

١ ـ سورة الإسراء، الآية ٣٦.

نستوحي أن الأمر فيها ينص على ضرورة التفكير فيما يقدم للإنسان من علوم وهو طعام الروح، ممن أتاه؟ ما هو مصدره؟

هكذا قضيت العمر مذبذباً بين وساوس أشخاص من العامة وأناس لم يكونوا ذوي حكمة. كفاك ذبذبة وتراقصاً على أنغام هذا وذاك، فالتبعية من الحجب العظيمة.

* * *

والحجاب الخامس هو حجاب المنصب والجاه.

حدثتك عمن يطلب المنصب والجاه لاستعباد هذا وذاك. ألا ترى من أصابه حظ من الجاه والمنصب.. كيف يقبل عليه أغلبية الناس خنوعاً ورقاً، ويحني إليه الجهلة من العامة رؤوسهم خشوعاً وتذللاً. فنالوا من أصحاب الجاه بأساً لا يعلم وطأته إلا الله!

فأين هم من يستعصمون من الانخداع بالجاه.. فإنه ابتلاء لجد مستعص. والتذلل أو العبودية من جهتها حجاب في غاية العظمة.

ولكن أبشر بما قاله الإمام الصادق ﷺ، فإنه أكد أن حب الجاه والشهرة لا سبيل له قط إلى قلب العبد الخائف.

ولتتوثق من أن الناس يولون الاحترام للمنصب والمقعد ويتذللون لذلك لا لصاحبهما. تأمل سلوكهم اليوم، لا يكلون من إجلال صاحب المقام واحترامه، ولما يسلبه في غد قريب يشيحون عنه بوجوههم. اذكر ما قاله الإمام علي بن أبي طالب ﷺ عندما دخل عليه عبد الله بن عباس فوجده يخصف نعله، حيث سأل ﷺ عبد الله: ما قيمة هذا

النعل، فأجابه: لا قيمة له. فقال ﷺ: والله لهي أحب إلي من إمرتكم. إلا أن أقيم حقاً، أو أدفع باطِلاً».[١]

طوبى لعبد يظفر من كل حدث بصحوة سريعة من غفلة سحيقة. ووا أسفاه على من ألجم وهم الجاه بصيرته فصار يشعر مع كل مشهد وحدث بانتعاش ونشوة. فأنّى لمثل هذا العبد، وهو يرى نفسه مولى، أن يخشع قلبه لله ويلتهج لسانه بعبوديته لربه، فمنصبه يغدو، لا محالة، حجاباً. يروى أن آخر شيء تنبذه سريرة الإنسان فيما يخص حب الدنيا هو حب الجاه. فانظر ما مكانته وثقله في قلب الواله؟!

* * *

أما الحجاب السادس فإنه حجاب العلم. وهو علم لا يهديك السبيل إلى العمل، فإن كان هكذا فالجهل أفضل منه. فالعالم يتحمل من المسؤولية أضعاف الجاهل. يروى أن أهل النار لفي عذاب مرير وعناء من نتن رائحة غير الأتقياء من العلماء.

يقول الشاعر مولوي:

مُدّ إليك هذا الحبل لتنتشل نفسك من بئر (حضيض) الطبيعة

لا أن تخرج من بئر وتلقي نفسك به في بئر آخر. هذا البئر قد يكون بئر التكبر فيخيل لصاحبه أنه بالعلم بمفرده يرقى على الآخرين لمراتب ودرجات.

---

١ ـ نهج البلاغة، الخطبة ٣٣.

ايها العزيز! إقرأ معي كيف يمثل الله تعالى غير الأتقياء من علماء اليهود:

﴿مثل الذين حمّلوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفاراً﴾.[١]

البعض يتبجحون فخراً بحمل مجموعة كتب، ردد أن ايها الجاهل حمل هذه الكتب لا يداوي جرحاً وإلا فمكتبات العالم تتقدم عليك في حق الفخر والاعتزاز ولا بد من اتخاذها قبلة في مدنها. ألم تتنبه أن الله عز وجل جعل الخشوع شرطاً اساسياً لإثمار علم العلماء. فعندئذ يصدق فيهم قوله تعالى:

﴿إنما يخشى الله من عباده العلماءُ﴾.[٢]

إذاً، لو أصبح هذا العلم. وهذه المعرفة مدعاة تمهيد سلوكك إلى الله فطوبى لك، وإن لم يُسدِ نفعاً في هذا السياق ولم يثمر في وجودك إلا الكبر والانانية فما أتعسه من حجاب عظيم!

وا أسفاه على من قضى أيام شبابه يكتسب العلم طلباً لرضا الله وسعياً للوصول إلى ذلك المحبوب، ولكنه لما أهمل العمل بمتطلباته صار علمه نوراً يقوي نفسه بدلاً من أن يضيء أرجاء روحه.. فيأتي عمره على نهايته ولم يشق طريقه بعد إلى محبوبه بل يجدن في نفسه سداً عظيماً من الأوهام والخيالات يحول بينهما.

* * *

---

١ ـ سورة الجمعة، الآية ٥.

٢ ـ سورة فاطر، الآية ٢٨.

والحجاب السابع هو حب الشهرة. إنه حجاب في منتهى العظمة، والالتفات لحقيقته أمر في غاية الصعوبة. فإن تنبهت إلى اختلاف بين نمط أعمالك في حال أديتها على أنظار الخلق أو في خلواتك، فاعلم أن هذا الحجاب قد تغشى قلبك. وفي مرحلة التنبه له والاطلاع عليه بشكل أدق أنظر في أحوالك فإذا كان اطلاع الناس على ما حسن من أفعالك يولد نوعاً من السرور في قلبك يتضح أنك ما زلت تتصور أن للخلق دوراً في تمشية الأمور. وهو بحد ذاته نوع من الشرك.

ذات يوم تتهاوى الحجب فتجدن أن كل ما فعلته إنما كان لأجل الخلق ويأتيك الخطاب أن أطلب أجرك من الخلق فلم يكن منك إلا ما كان لهم.

حتى الآن لم يفتأ الشيطان أن يزيّن لك سوء فعالك فصرت ترى نفسك الأمثل. فويل للإنسان إن هو أنمى الثمر الأتعس يوماً من بذر هذا الأمثل:

﴿والذين ينفقون أموالهم رئاء الناس ولا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ومن يكن الشيطان له قريناً فساء قرينا﴾.[1]

ثم أنت عد لتقرأ حكاية من لا يرى في كل فعاله وأموره إلا الله ولا يحرك ساكناً إلا بذكره. فلا يعبأ للخلق فيما دون ذلك.

﴿ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضات الله وتثبيتاً من أنفسهم كمثل

١ ـ سورة النساء، الآية ٣٨.

جنة بربوة أصابها وابل فآتت أكلها ضعفين﴾.[1]

استوحيت من الآيتين الآنفتين أن الله ينمي كل ما تفعله في سبيله ويجعل له ثماراً يقدمها لك أضعافاً مضاعفة.. وما تجهد له رئاء الناس يذهب سدى أدراج الرياح فتُترك ظمآناً كمن يجري وراء السراب. ومثل هذا العمل يتحول بالطبع إلى حجاب في منتهى العظمة، يحول بينك وبين الحقيقة.

* * *

وأما الحجاب الثامن فإنه حجاب الانانية.. لا تكل عن قول «أنا» وعن تقصي الأنا.. كل شيء تلخصه في «أنا»، وتطلب ما تطلبه لأجله، وتعنيه في كل ما يصدر عنك، في هدوئك ونصبك، وفي رفاهك وضنكك. أنه هو ذاك الذى تسميه جسمك أحياناً ونفسك أحياناً أخرى، وهو الحجاب الأدهى من مجموع الحجب. وفي حديث له أكد الإمام جعفر الصادق عليه السلام أنه بين الإنسان وربه ألف حجاب أوحشها حجاب النفس الأمارة.

ويتكرر في مضامين الروايات أن هوى النفس هو أبغض إله يُعبد على الأرض:

ويقول تعالى:

---

١ ـ سورة البقرة، الآية ٢٦٥.

﴿أرأيت من اتخذ إلهه هواه﴾.[١]

وقد نوه رسول الله ﷺ أن ألد أعداء الإنسان هو نفسه الباطنية.

الآن وقد عرفت عدوك هذا، فلك الخيار فيما تفعل، فهذا هو وهذه ساحة مخاصمته. انهض وانهل عليه بسلاحك. فبكل ضربة تسددها له من شأنك أن تزيح عن دربك حجاباً من الحجب.

ايها العزيز!

إنك لن تغض الطرف عن أناك وذاتك ما لم تتذوق طعم معية الله معك. فلا أمان لك من غمزات هذه النجوم الأخاذة إلا إذا أشرقت شمسه في أرجاء نفسك.

لا بد أن تستوعب مقامه في قلبك. فبذلك تكتسح هذا الغول الكاسح من دربك. ألم تقرأ قوله تعالى:-

﴿وأما من خاف مقام ربه ونهى بالنفس عن الهوى. فإن الجنة هي المأوى﴾.[٢]

فلتعلمن ان القرب إلى الله هو القرب من مصدر النور وكل ما يحول دون إشراقة النور هو حجاب وكل حجاب يولد ظلاماً. والخلاص من جميع هذه الحجب هو خلاص من الظلمات وترسيخ الايمان في قلبك لتظفرن بولاية الحق. فمن سواه ينجيك من كل هذه الظلمات؟! ولك منه البشرى في الآية:

---

١ ـ سورة الفرقان، الآية ٤٣.

٢ ـ سورةالنازعات، الآيتان ٤٠ و٤١.

﴿الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور﴾.[١]

وأنى لك ان تتوقع إشراق النور ممن قضى حياته إلى نهايتها في معترك هذه الظلمة؟ هل تعلم كيف تكون سيماء أصحاب الوجوه المتغشية بحلكة الدياجير يوم تقوم الساعة:

﴿والذين كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها وترهقهم ذلة ما لهم من الله من عاصم كأنما أُغشيت وجوههم قطعاً من الليل مظلماً، أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾.[٢]

حجب تغشت الأبصار وحجب صمت الآذان وحجب أخرى تختم على النفوس والقلوب:

﴿والذين كذبوا بآياتنا صم وبكم في الظلمات﴾.[٣]

---

١ ـ سورة البقرة، الآية ٢٥٧.

٢ ـ سورة يونس، الآية ٢٧.

٣ ـ سورة الأنعام، الآية ٣٩.

«الحجب والعراقيل من وجهة نظر القرآن»

ايها السالك الطموح! انك تعلم أن الحواس الخمس الظاهرية تتعطل إذا غشيها حجاب ما. فالعين لا تبصر إذا شددت عليها منديلاً أسود، والأذن لا تسمع إن اغلقت منفذها، ولا تميز طعم غذائك وتفقد كذلك قدرتك علىالشم الدقيق إن ابتليت بمرض ما. والقفاز يحول دون أداء حاسة لمسك، كل ذلك يحدث لأن أداتك الحسية احتجبت. وكل ما ذكر إنما هي حالات من حجب المشاعر الظاهرية وأما مشوشات المشاعر الباطنية النفسية فقد حددها القرآن الكريم بأربعة يتوجب علينا أن نلتجيء إلى حضرة رب الأرباب ليحفظنا منها ويصون عقبانا من شرها، وهي:

أ - الحجب:

قال الله تعالى:-

﴿قالوا قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه وفي آذاننا وقر ومن بيننا وبينك

حجاب فاعمل إننا عاملون﴾[1].

فمركز ثقل قدرتك على التشخيص هو قلبك. وأين هو من التشخيص الصحيح لو أسدلت الحجب عليه؟ هكذا يرى الشر خيراً والخير شراً والشاذ سوياً والسوي شاذاً. يرى نفسه مهدياً إلى صراط مستقيم، والرسول منحرفاً عنه ويقول إفعل ما أنت فاعل وإنا فاعلون ما نفعل.

آذان القلب لا بد أن تنشط، فما الحيلة حتى وإن لم يكن بها عطب ولكن مانع ما حال دون وصول الصوت إليها؟ فاستمع إلى قوله تعالى:-

﴿وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجاباً مستوراً﴾.[2]

هكذا تجد أويساً المتجرد عن الحجب يكون قريباً وهو على بعد فراسخ في حساب المسافات وأبا جهل المتكبل بالحجب نائي الفراسخ في عالم القرب.

فلكل بذرة ثمرة على شاكلتها. من هنا كُتب على من أغرق نفسه في الحجب وأجحف حق ذاته فاستترت عنها الحقائق أن يحرم من لقاء ربه يوم الحساب:

﴿كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون. كلا إنهم عن ربهم يومئذ

---

١ ـ سورة فصلت، الآية ٥.

٢ ـ سورة الإسراء، الآية ٤٥.

لمحجوبون﴾.[١]

ب - الأغشية:

الغشاوة تعني الغطاء ويراد منها، بالطبع، كل ما يعيق أداء الشعور الباطني:

﴿فاغشيناهم فهم لا يبصرون﴾.[٢]

العيون وريت ومنعت عن رؤية النور فكيف لها أن ترى دون النور؟ ومن تتقصى؟ إنها بذرة، أمهلني آتيك الثمرة:

قال تعالى:-

﴿والذين كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها وترهقهم ذلة، ما لهم من الله من عاصم كأنما اغشيت وجوههم قطعاً من الليل مظلماً﴾.[٣]

وقال أيضاً:-

﴿ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة﴾.[٤]

ج - السدود:

نستعيذ بالحق المغيث من هذه الأسوأ من سابقيتها! فالحجب

١ـ سورة المطففين، الآيتان ١٤ و١٥.

٢ـ سورة يس، الآية ٩.

٣ـ سورة يونس، الآية ٢٧.

٤ـ سورة البقرة، الآية ٧.

والأغشية تتخذ عادة للأقمشة والموانع الخفيفة إلا أن السدود تقام بالأحجار والحديد. وحجاب الأقمشة يمكن إزاحته بسهولة بينما السدود تُعجز حتى الأبطال:

﴿وجعلنا من بين أيديهم سداً ومن خلفِهم سداً﴾.[1]

تجد شخصاً لا يعود لماضيه، لا يلقي نظرة على تجاربه، لا يأخذ العبر من تاريخ الأسلاف، يتجاهل خبراته. لماذا ياترى؟ لأن الله أقام على بصيرته السابقة سداً وأخفى كذلك عن بصره المستقبل، وهكذا الشيخوخة والهرم، الزوال، الإنهاك، الموت، البرزخ والقيامة أيضاً، حيث جعل له في هذا الاتجاه أيضاً سداً.

عجباً للنمل! تفكّر بشتائها في بحبوحة الصيف وبأيامها الممطرة في المشمسة منها. فماذا دهى بني الإنسان يأبون التفكير بغدهم في يومهم. لا مناص لنا من تحليل انعدام التفكير هذا بوجود سد ما.

د - الأختام:

ربما تكون هي الأسوأ من الجميع.. فالخطاب المذيل بتوقيع والمختوم بختم، أمره مفروغ منه وأنى للعباد أن يرفعوا الختم عن القلب المختوم بختم من الله؟! فرغ من أمر برزخه وفرغ من أمر قيامته فحضر نار جهنمه:

﴿قل أرأيتم أن أخذ الله سمعكم وأبصاركم وختم على قلوبكم من إله غير الله

---

١ - سورة يس، الآية ٩.

يأتيكم به﴾.[١]

و﴿أفرأيت من اتخذ الهه هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله، أفلا تذكرون﴾.[٢]

إلهي! نعوذ بك من هذه البلايا. فالعمى والصمم يمكن التكيف معهما ولكن ماذا نفعل بفقدان بصر القلب وسمعه سيما وإن كان مصيرها قد آل إلى ذلك بختم منك دون شك.

ايها العزيز!

لا أطيل مقامك في هذا المنزل الرهيب. كانت هذه حجباً رفعت عنك ولله الحمد وهنالك حجب أخرى تتربص بك، لا بد لك أن تتعرف عليها، فما هي هذه الحجب؟

---

١ ـ سورة الأنعام، الآية ٤٦.

٢ ـ سورة الجاثية، الآية ٢٣.

«حجب النور»

يا رفيق رحلة القلب! واجهت صعاباً كثيرة وتجاوزت عراقيل عدة. والسبيل آخذ إلى الانبساط أمامك شيئاً فشيئاً ولله الحمد. تـخلصت من لوعة الفراق. ولكن للوصال أيضاً آهات ومشاكل. تثبت، فإن الله يحب أهل الاستقامة والثبات.

كنت قد وقعت في بئر، تناهى إلى سمعك حديث الشمس. ولولهك بها انتشلت نفسك من البئر. فوجدت نفسك في غرفة محاطة بحواجز جلبت لها العتمة، تحسست وجود النور مـن وراء عشـرات الحـجب فتركت الحجرة الأولى نحو الثانية باتجاه الثالثة وهكذا حـتى بـلغت الصحراء فداعبت أشعة الشمس أوتار قلبك وأجلستك عـلى عـرش السلطنة بعد طول اكتئابك في قعر البئر ولكنك مضيت السـبيل حـباً للشمس ووصالها لا لأشـعتها.. وأنت الآن تـريد النـظر إلى الشـمس والبصر المعتم لا طاقة له بالنظر إلى مصدر النور هذا.. هنا أيضاً تجد الأبواب موصدة تحول دون تحقيقك لهدفك.

ها هو كميل بن زياد يسأل سيد العرفاء الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام ان يكشف له عن الحقيقة فيأتيه الجواب:

«الحقيقة كشف سُبحات الجلال من غير إشارة».

فالأنوار أنوار جلال تكشف عن عظمة سلطان لا قيام في ظل سلطانه ولا حياة، وما من مُلك لأحد إلا يعود إليه. والسماوات تتداعى بما فيها من عظمة إزاء هذا النور، نور دكّ جبل طور لقبس لاحه منه وأُغشي على النبي موسى عليه السلام لعظمته، ماذا تسمع وماذا ترى؟ إنك حيناً مدعو مستضاف وحيناً مرهوب فار. تسمع تارة نداء ﴿ففروا إلى الله﴾ و﴿فإني قريب﴾ وأخرى ﴿يحذركم الله نفسه﴾.

محب واله، سالك مرهق، متفان أفنى العمر سنين حتى بلغ مكانه، له عن معاناة دربه حكايات ونجوى وفي قلبه عن لوعة الفراق شكوى. حبه بلغ محطته الأخيرة مع موعد قربه فيسمع فيها خطاب الحبيب يقول: «لن تراني»، ومع ذلك تؤمل نفسك بالنظر إليه قريباً.

العظمة على قدر يكبل أقدامك ولمبلغ الشوق ينتابك خجل يصدك عن التوجه إليه كأن الروح تتخلى عن ثقل الجسم هاهنا وتفدي الحبيب بنفسها.

لا تيأسنّ، فرجاؤنا أن نستوحي الثمالة من هذا الجمال كما نالها الكليم عليه السلام. فلكل جلال جمال. فهنالك يرهبك جلاله وهنا يدعوك إليه جماله. كأنك تجر راحلتك في هذا المنزل حيناً وتلقي بقلبك في أمواج بحره شوقاً إليه حيناً آخر. فمع التفاتك إلى مظاهر العظمة تزداد إستحقاراً لنفسك وببروز كل جمال تعجز في التو عن اطلاق بصرك

حتى تقول: لا طاقة لي حتى على النظرة الواحدة وهذان معاً قد غديا حجاباً في الطريق لأنهما قد يحولان دون استرسال السالك في المضي.

فجماله يؤثر فيك حتى يجعلك تترنم كأحد الائمة‰:

«وَصلُك مُنى نفسي ولقاؤك قرة عيني»

ولكن اطلاقة جلاله تدعك دعاً حين يقول:

«يا ايها الناس أنتم الفقراء».

إلهي! أين الفقير من الغني وهل للعدم ارتباط بالوجود المطلق؟!

إذاً، حجب النور هي نفس هذين الحجابين. عسى ان يمدّ اليك يده لتجتاز هذين الحجابين أيضاً. فأنت في الحقيقة تكون عندئذ غافلاً عن نفسك لأحدثك بما تفعل إذاً، ترنم بهذه المناجاة:

«إلهي! هب لي كمال الانقطاع إليك وأنر أبصار قلوبنا بضياء نظرها إليك حتى تخرق أبصار قلوبنا حجب النور فتصل إلى معدن العظمة وتصير أرواحنا معلقة بعزّ قدسك».

وقد أكمل بعض العرفاء رسم أطرها فألحقوا جميع العوالم والآيات الآفاقية والأنفسية في دائرة حجب النور وياله من حديث دقيق.

فالآيات هي مظهر الذات والبرهان عليه من جهة على ان لا تتثبت عندها بل ترفع عينيك عنها لتبلغ بالنظر إليها صاحب الآية وإلا فإنها ستحول بينك وبينه وإن كانت برهاناً عليه كنور الشمس الآخذة بيدك إليها، فأنت لو انشغلت بها وإن كانت هذه الآية دالة عليها فإنها تصدك

عن وصالها.

امعن في مناجاة الإمام الحسين بن علي عليه السلام:

«إلهي! أمرت بالرجوع إلى الآثار فأرجعني إليك بكسوة الأنوار وهداية الاستبصار حتى أرجع إليك منها كما دخلت إليك منها مصون السر عن النظر إليها ومرفوع الهمة عن الاعتماد عليها. إنك على كل شيء قدير».[١]

إذاً، العالم والعالمين لا يدركون الحق ما داموا يدركون أنفسهم وهم آيات الحق تعالى، فقد قيل:

«فلا يُدرك الحق إدراكه نفسه».

لأن الإنسان جزء تابع للعالم إذ هو مخلوق الحق وليس الحق وإن كان تجل من تجليات الحق لا ينفك وجوده عن الحق تعالى. إن كنت تستثقل فهم هذا الكلام، لا بأس سوف يتضح لك مفهومه لاحقاً إن شاء الله.

يقال أن شخصاً حضر مجلس السلطان فلمّا خرج من عنده شعر بحرقة في بدنه فنزع عنه رداءه وإذا بعقرب يتنصل من الرداء وكان قد قرصه في عدة مواضع وهو عند السلطان دون أن يدرك ذلك في حينه. ناله ذلك لحجاب تغشى نفسه من جلال السلطان. وأما حكاية الجمال فأنت تعرف ان حجاب الجمال تغشى أنفس نساء مصر مع رؤية النبي يوسف عليه السلام بدرجة جعلتهن يقطعن أيديهن لغياب وعيهن.

---

١ ـ مفاتيح الجنان، دعاء الإمام الحسين بن علي (ع) في يوم عرفة.

ايها العزيز!

نأمل أن تنزع عن فهمك قيود عالم الطبيعة. هل تعلم أن جلال السلطنة الدنيوية إنما هو إزاء جلاله فقر مدقع ليس إلا، وجمال يوسف قياساً الى جماله قبح لا غير. لا أعلم هؤلاء بمثل هذا الانعكاس كيف يسلكون معه؟! فأنت إزاء جلاله سوف تغفل عن روحك لا عن جسمك فقط، ولهذا الجمال يسقط رأسك بدلاً عن يدك.

ولكن لا تتصورنّ بلوغ هذه المنازل أمراً ميسوراً تنفيذه، فليس بمقدورنا تجنب مصايد النفس والشيطان إلا إذا فزنا بلطف إلهي، يهدينا ويمهد لنا لقاءه.

ما أراني إلا قد جئتك حتى الآن بمقدمات لمبحث التجلي الذي سنجتازه معاً في خطوات ثلاث: السير في الآفاق، والسير في الأنفس وأخيراً برهان الصديقين (الشهود والفناء في الله).

«السير في الآفاق»

«الحمد لله المتجلي لِخلقه بخلقه»[1]

1 ـ نهج البلاغة، الخطبة (١٠٦)

«رسالة المعرفة»

فكّر مع نفسك.. كيف يقدر شخص ما، لم تلقَه حتى الآن وليست لك معرفة به، أن يقدّم نفسه إليك؟

له ذلك بعدة أساليب أحدها كتابة رسالة أو خطاب. فالرسالة هي أداة تحمل معها نداء المعرفة. تمعن في سلوكك، فأنت تستوحي من الرسالة مفاهيم الرأفة والغضب، الشفقة والحقد، الهم والابتهاج، التأييد والإنكار، الرغبة والنفور، الضعف والقوة، الولاء والعداء وغيرها. وبقراءة رسالة أي شخص تتجلى لك شخصيته بجميع تفصيلاتها.

تأمل محبوب القلوب يقدم لك بادىء ذي بدء نفسه على هذا النحو عندما اختار نزول الوحي طريقاً إلى ذلك.

هذا ما يؤكده الإمام جعفر الصادق عليه السلام في قوله:

«إن الله قد تجلى لعباده في كلامه ولكنهم لا يعلمون».

فرسالة «هو الحي القيوم» هي أنه صاحب الحياة السرمدية والقيمومة الأبدية على عالم الوجود،

ورسالة «هو الرحمن الرحيم» هي أنه رؤوف حنان على مخلوقاته، وفي عبارة ﴿يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله﴾ بشرى بمغفرته اللا متناهية،

ونحن من خلال ﴿هو معكم أينما كنتم﴾ ندرك وجوده إلى جانبنا، قربه إلينا و...

فما أروعها من رسالة ونداء!

التقيت محباً يحفظ خطاب حبيبه في منديل حرير، راح يقبلها. علمت أنه يحملها معه دون انقطاع، تساءلت: ما هذا الذي تحمله معك أينما حللت؟ قال: متى ما يضرم فراقه النار في لواعجي، لي في خطابه الخير والخلاص. ألقي عليه نظرة واتطلع من خلال سطور خطابه إلى جماله الفاتن.

فماذا عن ولهك بالقرآن؟ ألا يرقى إلى مثل هذا المستوى؟

مرحى لذاك القاصد الميمون الذي تسلمت منه هذا الوحي العظيم. فمهّد لك سبيل معرفة خالقك؟

في مكتوبنا هذا لسنا بصدد تفسير القرآن فلو كانت لك مثل هذه الرغبة، تأمنها لك بحمد الله كثرة من التفاسير. ركّز سعيك في الاستماع إلى تفسير الآيات التوحيدية والتعمق في ما تأتي به في حديثها عن صفات الباري عز وجل. ولك في كتاب «شرح الأسماء» للعارف الكبير المرحوم الحاج الملا هادي السبزواري (رحمه الله) خير دليل لمعرفته.

«كتاب التشريع» اسم يطلق على القرآن. فالقرآن وصفةٌ للمرضىٰ ودليلٌ للسالكين ومفتاح لكنوز الأسرار. فكل ما تجده في كلامه وسطوره تشاهده بأم عينيك في عالم التكوين. كل ما هنالك حديث يصغىٰ إليه، وكل ما هنا تجليات عملية. فعالم التكوين ساحة تتجلىٰ فيها مضامين القرآن. كل ما تقرأه في هذه الرسالة العظمىٰ، عليك أن تنفذه وتطبقه في وجودك وتكشف عنه في العالم الخارجي. فهذا هو بالضبط ما أريد به من خلقك.

فكتاب التشريع يحوي (٢٨) حرفاً، وكتاب «الكون» (١٠٤) أحرف. أسمينا حرف التشريع «اللالفباء» وحروف الكون «جدول منديليف». صنعت من تلك كلمات القرآن ومن هذه مكونات العالم المادي أي مخلوقاته، كل على انفراد. فكل من سور القرآن صنعت مما تجده فيها من كلمات بينما في آفاق كل من مخلوقاته تقرأ سورة تمثلت كلماتها في مكوناته وأجزائه. فالشجرة بحد ذاتها سورة يشكل كل من الجذع والجذر والأوراق والثمار كلماتها.

وأنت تقرأ الآية التالية اجنح إلى التعمق عند التفكير فيها:

﴿ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمدُّه من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله، إن الله عزيز حكيم﴾[١].

فأنت لو اتخذت سبيلك في كل أمر تنفيذاً للتشريع واستنباطاً من ايحاءات التكوين، عندئذ لروحك أن تغدو مظهراً من مظاهر تجلي

---

١ ـ سورة لقمان، الآية ٢٧.

ربك.

فيا ايها الكريم!

كتاب الكون أوسع نطاقاً بكثير من كتاب التشريع. فكلمات ذلك محدودة وكلمات هذا لا حد لها ولا حصر. كنت قد عزمت أن أرافقك في رحلة نكشف فيها اللثام عن أسرار هذه الكلمات، ولكنني لم أر لطريقنا إلى مثل ذلك نهاية، ولا طاقة لنا بالمضي في مثل هذا الطريق. ولكن كما يقول الشاعر مولوي:

آب دريا را گر نتوان كشيد   هم به قدر تشنگى بايد چشيد

(ما معناه: وإن تعذر عبّ ماء البحر عبّاً، ولكن لابد من تذوقه على قدر الظمأ).

فيا أيها العزيز!

كن والهاً، قبّل خطابه.. اجعل هديته قرة عينيك. فوحيه يرشدك إلى معرفة كنوزه، وعالَمه يأخذ بيديك إلى كنوز معارفه.. وحيه دليل التوحيد وعالَمه مظهر التوحيد. فأنت إن كنت والهاً به، تشبث به. فالكون مرآة تعكس عظمته بجميع تجلياتها.

إصغ لي أُسمعك كلاماً من العارف الكبير ابن عربي في معرفة عالم الكون.

«كلمات الله من وجهة نظر ابن عربي»

أَوَ تعلم ما مدى احتفاء الحق تبارك وتعالى بالإنسان. لك عبرة في ذلك وأنت ترىٰ أنه يبشر بني الإنسان في حديث قدسي بان يجعلهم مثله إن هم أطاعوه وانصاعوا له.

ولتعلم انك عندما تستخرج ما تضمره في باطنك بصناعة الكلمات ومن ثم العبارات فتكشف عن نفسك، انك تفعل ذلك بدرجة من الإبداع تزيل كل حاجز يحول بين ارادتك وصناعة الكلام في نفسك. فسواء ثَبَّتَه في شريط مسجل أو في خطاب مكتوب فإنه برمته من صنعك انت وكل ما فيه هو مظهر من مظاهرك. فلولا الكلام لكتم كل شيء في باطنك ولكنك تجليت على هذا النحو.

الآن وقد تنبهت لهذه الحقيقة لنعرج إلى ابن عربي وما يقوله في هذا الصدد. إنه يرىٰ أن هذا الفعل الانساني إنما يتجلىٰ فيه فعل (غاية) الله تبارك وتعالىٰ في خلق الكائنات. فلما أراد هذا الكنز الخفي أن يتجلىٰ استخرج الكائنات كما نستخرج الكلمات لتكون تجليات

لوجوده. فابن عربي يؤكد ان هذا التجلي إنما أظهر صفاته وأفعاله.

﴿إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون﴾[1].

هلا تنبهت إلى أنه يعبر عن المخلوقات بالكلمات في قرآنه.

ولابن عربي فيما يخص المبدأ والمعاد أيضاً تحليل رائع فإنه يرىٰ أن التنفس انما هو من آثار ومعالم الحياة، وأن الله الحي المطلق شبه الايجاد والخلق بالشهيق والمعاد بالزفير، ومرجع الخلق يتم إلى ذات المبدأ الذي انطلق منه:

﴿إنا لله وإنا إليه راجعون﴾[2].

فالحياة والانسياب والحركة الدؤوبة، والدفء والظهور كلها تتأتىٰ من شهيقه (برأي ابن عربي)، والعودة والسكون والجفاء والخفاء والموت من زفيره:

﴿هو يحيي ويميت وإليه ترجعون﴾[3].

كانت هذه تحليلات هذا العارف الكبير وإن انساق كل هذا الكلام في مجرى التمثيل والتشبيه، فالذات الربوبية لله تعالىٰ منزهة من كل ذلك.

﴿ليس كمثله شيء وهو السميع البصير﴾[4].

---

١ ـ سورة يس، الآية ٨٢.

٢ ـ سورة البقرة، الآية ١٥٦.

٣ ـ سورة يونس، الآية ٥٦.

٤ ـ سورة الشورى، الآية ١١.

ما يتوجب استجلاؤه لك في هذا المبحث هو أن الآفاق تشمل كل عالم المظاهر، مظاهر الوجود، وجود الباري تعالى، وجـوده الأبـدي السرمدي. فالآفاق هي عالم الممكنات، والممكن فقير محض يتوقف وجوده على واجب الوجود تعالىٰ. وكل هذا الحلول والرحيل سـوف يستمر حتى يوم القيامة لاستبانة هذا الوجود المطلق.

الحياة والظهور المستمر لا المنفك

تنبه ايها الكريم، فالفيض مستمر غير منفك في عالم الآفاق والأنفس. إصغ إليّ أعرض لك مثالاً: تارة تُشحن الساعة اليدوية بقوة اليد. اليد تلف زنبرك (منظِّم) الساعة، والساعة تعمل لأسبوع مثلاً حتى ينتهي شحنها. المنح كان للحظات والانعكاس لأسبوع. اليد المحركة والمانحة للطاقة لم ترفق الساعة في حركتها طوال هذا الأسبوع. هذا ضرب من الحركة.

هنالك حركة من نوع آخر: انظر إلى ضوء المصباح ينير المكان أو حركة مروحة وهي تلطف لك الجو، فضوء ذلك وحركة هذه يتمخضان لحظة بلحظة عن حركة مولديهما. فذاك الضياء وهذه الحركة المروحية لا تنفك عن حركة عجلات المولدين. فإن توقف مولدهما عن الحركة مثلاً ينطفىء ضوء المصباح وتتوقف المروحة عن الحركة.

الآن وقد أوضحنا هذا المثال. فاعلم ان الفيض الالهي مستمر متواصل في الآفاق والأنفس، في جسمك وروحك. وأنت لست ساعة

يدوية تشحن، لم يخلقك الله يوماً ما ثم تركك على رسلك حتى نهاية حياتك.

كان هرقليط يقول: «لم أسبح داخل ماء أي نهر لمرتين قط».

وكان الأفضل له أن يقول: لم أنظر إلى أي نهر مرتين.

فللّه في ملكوت العالم نظرة في كل لحظة وحياة وفيض في كل آن.

***

ولتستوحي هذه الملاحظة الموجهة بشكل أفضل تأمل في باطنك، تعمق في أداء قلبك. فبنبضة واحدة تنقي عضلات قلبك حوالى نصف لتر من دمك. وهكذا بالطبع تمنحك الحياة للحظة ما، ليليها بعد ذلك السكون، سكون يعني بحد ذاته موت تنمحي معه الحياة إن لم تتبع تلك النبضة نبضة أخرىٰ. فحياتنا، إذاً، هي عبارة عن عمليات الموت والحياة المستمرة هذه. والأمر على نفس المنوال في سائر حركات أي مخلوق حي. ففعل الإفاضة متواصل من قبل الرب، والمربوب لاينفك حتى للحظة عن الرب. فالانسان ما أن تتكون نطفته وحتى بلوغه مرحلة الطفولة، ومنذ الطفولة وحتى الشباب، ومن ثم الكهولة والشيخوخة، في جميع هذه المراحل هو في حركة مستمرة. المتحرك يخلع في أية لحظة كسوة ما ليرتدي أخرى، فتتغير تباعاً مسيرة حركته. إنها حركة يشهدها باطن جميع الكائنات الحية، حتى النباتات منها. كلها في حركة دؤوبة يطلق عليها «الحركة الجوهرية».

وأنت بدورك تساهم في هذه الحركة مع سائر الكائنات وحتى مع الكرة الأرضية.. تأمل في هذه الحركة لتشاهد يد المحرك ترافقك على مر اللحظات.

ففي هذه الحركة، وكلها من فيض رب الأرباب، تلتفت إلى إشارات العلم والقدرة والمحبة تلوح لك من كل مكان، وكلها تجليات لصفات الباري تعالى...

﴿كل يوم هو في شأن﴾[1].

﴿وما تسقط من ورقة إلّا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلّا في كتاب مبين﴾[2].

والبعض يفسر هذا الحديث:

«الطريق إلى الله بعدد أنفاس الخلائق». بنحو آخر فيؤكدون أن الأنفاس هنا تأتي جمعاً للفظة (النَفَس). إن كان الأمر هكذا فإنه يوضح لنا رؤية بديعة فيما نحن بصدده في هذا الموضوع وهي: بالنظر لكون أي شهيق وزفير تجلياً من تجليات الحركة والحياة والربوبية والعلم والقدرة فإنها جميعاً ترشدك إلى الرب المانح للحياة والذي ترافقك يده في جميع شؤونك على مر اللحظات.

إعرض لك كلامي بنحو آخر: العالَم من تجليات العلم. فإنك لا تجد في عالم الوجود أي مخلوق لا تتجلى مظاهر العلم في وجوده. فأي

---

١ ـ سورة الرحمن، الآية ٢٩.

٢ ـ سورة الأنعام، الآية ٥٩.

من الكائنات إنما هو من تجليات العلم. وليس للعلم مفر من إشـارته إلى العالم والمعلوم. فالمعلوم مخلوق تراه بالعين و «العلم» ترسخ في باطنه وهو ما تدركه بعقلك. و «العالِم» هو من يحيط بها علماً. وثلاثتها لا تنفك عن بعض فهل هنالك يا ترىٰ مخلوق يمكنك تأمله، لا رب له:

«وبعلمك الذي أحاط بكل شيء»[١].

اصغِ إلى كلام آخر:

حياتك الجسمانية هي حصيلة حياة خلايا بدنك. على مر اللحظات تهلك بعض الخلايا في بدنك ويستعاض عنها بخلايا أخرىٰ. ولك في عمليات الموت والحياة هذه حياة جديدة. على هذا، أنت تشهد في كل لحظة حياة جديدة في وجودك الجسماني، تشهد ظاهرة لم تألفها ولن تألف نظيراً لها قط. وهذا ما يعبر عنه العرفاء بقولهم: لا تكـرار فـي تجليات الحق تعالى.

فمظاهر الحياة هذه لا معنى لها دون «محيٍ أزليٍّ»، فكل مظهر إنما هو دليل على الوجود. وفي كل من مظاهر الحياة يتجلى «المحيي». لا سيما وان حياته هي ذاته بعينها. فكيف لك أن تـتأمل فـي صـاحب عمليات الحياة هذه دون أن تلقى المحيي؟

قال الإمام محمد الباقر عليه السلام:

«وهو حياة كل شيء».

وهل تعلم أن كل من امتزجت حياته بالممات وصار يتأرجح بين

---

١ ـ من دعاء كميل بن زياد للإمام علي بن أبي طالب (ع).

هذه وذاك، كيف له أن يقدر على نـهوض دون الحـي المـطلق؟ إنـها حكاية جميع الممكنات التي يستند وجودها، في واقع الحال، عـلى ذات الحق وليس على ذاتها. فلست الوحيد القائل:

«بحول الله وقوته أقوم وأقعد».

بل هو لسان حال جميع المخلوقات والكائنات.

في معنىٰ الاسم والمسمى

الاسم لفظة ومفهوم يرشدنا إلى مسمى ما. فكل ما يتمتع بالأصالة وبوجود خارجي هو مسمى. إننا عندما نتحدث عن لفظة التفاح لا ننال فوائد غذائية منها ولا نستذوق الحلاوة من طعمها. ولكنها ترشدنا إلى تلك الثمرة التي تمثل مسمى هذا الإسم، لا غير. فحتى لو تعددت صفات المسمىٰ ظهر متشحاً برداء الصفة التي يدلنا عليها بالتحديد إسمه رغم كثرة ما يزدان به من مثل هذه الألبسة الزاهية. فلو قلنا مثلاً أن الشاعر سعدي الشيرازي فنان فإنه يتوشح برداء الفن، وبرداء الشعر إن قيل «سعدي شاعر»، وبرداء الكتابة والتأليف فيما لو قيل «سعدي كاتب» بينما تجتمع صفات: الفنان والشاعر والكاتب كلها في شخصية سعدي.

الآن وقد استوعبت هذه الخقيقة. إعلم أن معرفة ذات الحق تعالىٰ أمر لا يرقىٰ إليه فهم أي من مخلوقاته. فإنه كذاك الطائر الأسطوري الرمزي الذي يتناغم به الشعب الإيراني «سيمرغ» (العنقاء) والذي تعذر

على العقول حتى قال عنه حبيبه المقرب إلى ذاته المباركة محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

«ما عرفناك حق معرفتك».

فكيف ببقية خلقه.. حالهم في ذاك معروف وواضح.

تذكرت شاعرنا الشيرازي الفطن حافظ الشيرازي وهو يتساءل في بعض شعره:

مهما كان طائر «سيمرغ» مجهولاً وبعيد المنال، هل ينبغي غض النظر عن المثابرة من اجل وصاله؟ وهل يستوعب مثل هذا الأمر الجليل سوى نفوس أصحاب الهمم العالية وهو غاية آمال العارفين:

که روزی رهروی در سرزميني
به لطفش گفت رند رهنشينى

که أی سالک چه در انبانه داری
بيا دامى بنه گردانه داری

جوابش داد و گفتا دام دارم
ولی سيمرغ مىبايد شکارم

بگفتا چون به دست آری نشانش؟
که از ما بی نشان است آشيانش

چون آن سرو سَهی شد كـاروانـی
ز شاخ سـرو مـيكن ديـدهبانی[١]

فالمبتلى بمظاهر الخريف يـعشق الورد. فـمع أن الورود مـعدومة آنذاك لكن له أن يستنشق رائحتها من مـاء الورد. وإن شـدّه الشـوق لرؤية لونها يتقصاه في الوجوه المتوردة. فما بال الواله المتأوه؟ فالعالَم كله مظاهر وتجليات لأسماء محبوبه وصفاته.

الآن وقد كُشف لك اللثام عن هذا السر، اعلم أنه ليس هنالك في عالم الممكنات حتى مخلوق واحـد لا يـتجلىٰ مـن خـلاله «واجب الوجود» تعالىٰ اسمه فأينما تنشد عيناك بين المخلوقات يـعكس لك كل منها على حدة ضياء شمس المحبوب.

﴿وإن من شيء إلّا يُسبّح بحمده﴾[٢].

واصغ إلى هاتف آخر يحمل لك ما أخبرتك به من نداء بأن العالم

---

١ ـ معنى الأبيات:

قال عابر سبيل لحاذق، يقعد على الطريق يوماً:

ما تملك في جعبتك ايها السالك، تعال انصب فخاً إن كان بها حباً

أجابه يقول: عندي الحب، ولكني أريد سيمرغ صيداً

قال وكيف تسترشد لموقعه؟ لا علم لنا بموقع عشه

فما دمت لم تهتد للسرو الشاهق وهو محطته، علّق أنظارك على أغصان أشجار السرو.

٢ ـ سورة الاسراء، الآية ٤٤.

وكل أجزائه في حركة مستمرة متواصلة.

﴿كل في فلك يسبحون﴾[1].

أنك تكتسب الحياة من حركة خلاياك ودمك وقلبك ورئتيك والحجاب الحاجز و...، والحركة لا معنى لها دون حراك. هل لك أن تقول بعد هذا أن مثل هذه الحركات لا تلوح لك بيد محركها؟!

ولما كانت الحركة دؤوبة في مسيرة الكمال والحياة واللطف والفيض يمكن النظر إلى ربوبيته من خلال ذرات عالم الوجود كل على انفراد.

على سبيل المثال، تتهافت الملياردات من كريات الدم الحمر متسارعة في حركة دائمية داخل العروق والشعيرات الدموية، وهي تسبح في مجاري الدم. قلبك يتحكم بمسيرة دورة دمك في طريق يستمر لكيلومترات، يشقّه في داخل عروقك. توقف هذه الحركة يعني موتاً آنياً بالنسبة لك. الآن اجبني: لمن هذه الحركة؟ هل أنت مصدرها؟ أم أن يداً أخرىٰ تسير أمورك هكذا؟

---

١ ـ سورة الانبياء، ص ٣٣.

الصفات الحسنى

اعلم أن الصفات بعضها يضم إليه البعض الآخر فإن قيل «أن زيداً أديب» يكون من أوليات أدبه اطلاعه كذلك على قضايا الشعر والنثر واللغة والعروض والقافية والقواعد والبلاغة. إذاً، أضف لكل من يسمى أديباً إحرازه واطلاعه على كل هذه الشؤون أيضاً.

وفي ذات الباري تعالى صفات من هذا النوع يحق لها أن تنعت بـ «ائمة الصفات»، هي الصفات السبع: «الحياة، العلم، الإرادة، القدرة، السمع، البصر والكلام». وتشتمل على سائر صفات الحق تعالى أيضاً.

من جهة، ليس هنالك في الآفاق ما لا يكون حادثاً، ولكل حادث تاريخ ميلاد وتاريخ موت. وبعبارة أخرىٰ لكل حادث أول وآخر. ومن ناحية أخرىٰ فإن لكل مخلوق ظاهر نتحسسه بمشاعرنا وباطن تعجز عن دركه أحاسيسنا وهو «ملكوت الأشياء». إذاً، لا مفر لكل مخلوق من أن يكبل وجوده أول وآخر وظاهر وباطن. فيقال لهذه الصفات الأربع «الصفات الأمهات» تجمعها كلها الآية:

﴿هو الأول والآخر والظاهر والباطن﴾.

بعبارة أخرىٰ، أي مخلوق حادث أوله يكون تجلٍ لاسم الله الأول، وآخره هو تجلٍ لاسم الله الآخر، وظهوره فيض من اسمه الظاهر واستبطانه فيض من اسمه الباطن.. فمُطلق وجوده من منبثقه هو اسم الأول ومعيده إلى منطلق وجوده هو اسم الآخر.

وكل هذه الأمهات تستبطن اسم «الرحمن الرحيم» الضام إليه جميع الأسماء الأخرىٰ. فما دام الاسم (الله) مقروناً باسم (الرحمن) ويؤول الأمر إلى الجود بالوجود والخلق، وما دام مقروناً باسم (الرحيم) فإنه يتجلى في منتهى الكرم إزاء مخلوقاته. فأول خلقهم أجمعين وآخره ينتهيان إلى هذين الاسمين الحسنيين للباري تعالىٰ.

ولابد أن نعلم أن جميع الأسماء هي تجليات لذات الله عجنت مع ذاته وانمحت فيها. فذاته هي عين صفاته. وقد روي عن أحد المعصومين قوله:

«وكمال معرفته نفي الصفات عنه»[١].

فأية صفة هي نعت لغيره ولكنها عين ذاته. فمثلاً هو الأول وهو الآخر أيضاً. هو القابض وهو الباسط أيضاً. هو المُبدىء وهو المعيد أيضاً.

﴿إنه هو يبدىء ويُعيد﴾[٢].

---

١ ـ «... كمال الإخلاص له نفي الصفات عنه..». نهج البلاغة، الخطبة الأولى.

٢ ـ سورة البروج، الآية ١٣.

﴿كما بدأكم تعودون﴾[١].

﴿إليه مرجعكم جميعاً، وعد الله حقاً، إنه يبدأُ الخلق ثم يعيده﴾[٢].

﴿والله يقبض ويبسط وإليه ترجعون﴾[٣].

﴿إنا لله وإنا إليه راجعون﴾[٤].

فبما أنه هو المبدأ وهو المرجع. وهو الأول وكذلك الآخر، هو المحيي وهو المميت، هو الباسط وهو القابض، تستهل جميع الممكنات وجودها منه وتنتهي به أيضاً.

ولما كانت هذه الانسيابية تجري في العالم الصوري في حركة دورانية، قسم السير إلى قوسين، الهلال الأول منه سمي القوس النزولي والثاني القوس الصعودي. وقد قال عن حبيبه ورحمته الشاملة فيما يخص كمال ارتقائه:

﴿ثم دنا فتدلىٰ. فكان قاب قوسين أو أدنى﴾[٥].

الله يعلم ما أعظم ما تخفيه لفظة «أدنىٰ» من أسرار في ثناياها.

فيا ايها الكريم، في خضم هبوط هذا وعروج ذاك، هبوط هذا وارتقاء ذاك، وجّه لك الباري نداء:

---

١ ـ سورة الأعراف، الآية ٢٩.

٢ ـ سورة يونس، الآية ٤.

٣ ـ سورة البقرة، الآية ٢٤٥.

٤ ـ سورة البقرة، الآية ١٥٦.

٥ ـ سورة النجم، الآيتان ٨ و ٩.

﴿لقد كان لكم في رسول الله أُسوة حسنة﴾[1].

اسوة فاز بذاك المعراج والقرب، ولك مثله لو انخرطت في مسيره، فلم تُغلق الأبواب دونك. فلك دعوة مفتوحة لخمس مرات في اليوم، لوّح لك خاتم الأنبياء والمرسلين بها في قوله:

«الصلاة معراج المؤمن».

و «الصلاة قربان كل تقي».

١ـ سورة الأحزاب، الآية ٢١.

«حكاية الفراق»

لما كان المبدأ هو والمحيي هو والرب والفياض هو، هل للسالك في درب السلوك الالهي ان يرفع باصرته ولو للحظات عنه. وما كان حتى للإمام الصادق عليه السلام إلّا أن يصف حال المؤمن في دنياه بأنه غريب غريب.

فساحته ميقات الأرواح، فوالله لولا أنسه لغدت الدنيا بيداء، ووكراً للثعابين، ومنبتاً للأشواك لا غير.

فها هو الشاعر حافظ الشيرازي يخاطبه بأن الطموح للقياه يقيم حياته ولولا الأمل لعرضته لوعة فراقه للهلاك في أية لحظة.

مرا اميد وصال تو زنده من دارد
وگرنه هر دمم از هجر تُست بيم هلاك

آهات الفراق المنطلقة تترىٰ من صدور مزقها فراق الحبيب إرباً لا يوفىٰ حتى وصفها إلّا بتدوين المؤلفات والمؤلفات. فليس من زفير ترك صدر عارف إلّا ويفوح برائحة الحزن وتُشَمُّ منه نكهة الغم.

قال الصادق عليه السلام:

«الحزن من شعار العارفين، لكثرة واردات الغيب على سرائرهم، وطول مباهاتهم تحت ستر الكبرياء، والمحزون ظاهره قبض وباطنه بسط، يعيش مع الخلق عيش المرضى ومع الله عيش القربى».

وحكايته تنساب في ما تقرأه في ديباجة مولوي ضمن حكاية القصب ومزرعة القصب ولوعة القصب في فراق مزرعته ومعاناة البعد وحياة تنقضي بين آه ودعاء على أمل العودة:

بشنو از نی چون حکایت می‌کند
از جدایی‌ها شکایت من کند
کز نیستان تا مرا ببریده‌اند
از نفیرم مرد و زن نالیده‌اند
سینه خواهم شرحه شرحه از فراق
تا بگویم شرح درد اشتیاق
هرکسی کاو دور ماند ا اصل خویش
باز جوید روزگار وصل خویش[١]

---

١ ـ معنى الأبيات:

ـ إصغ للقصب يسرد حكايته، ويشكو لوعة الفراق،

ـ ما أن أبعدوني من مزرعة القصب حتى ضج الرجال والنساء مما سوغته على الفاعل من دعاء.

←

ولكن متى ما أشرقت شمس الشراب من مشرق الكأس وتلألأت آلاف الورود على وجنات السقّاء تحول الفراق لهفة وأنساً. فمثلما يشبّه البسط والقبض بالشهيق والزفير وينسب كلاهما إلى فعل الله، فمنه الانطلاق وإليه المآل ايضاً.

فقلب العارف محطة يتجلىٰ فيها المحبوب عند بسطه ويؤوب إليه التجلي عند قبضه. شرحت لك انسيابية هذا القبض والبسط في حركة مستمرة تحظىٰ على مر لحظاتها بفيض وربوبية وحياة جديدة لا تكرار فيها. ولكن السير من العلة البعيدة إلى العلة القريبة محفوف بلذة من نوع آخر.

على كل، ربك على صراط مستقيم وتجلت قدرته من أكمام الربوبية لتسحبك أخيراً نحوه:

﴿ما من دابة إلّا هو آخذٌ بناصيتها. إن ربي على صراط مستقيم﴾[١].

← ـ فليتقطع صدري إرباً بحرّ الفراق، لأشرح لوعة الاشتياق

ـ فكل من نأى عن موطنه يتقصى دوماً حلول موعد اللقاء.

١ ـ سورة هود، الآية ٥٦.

الآفاق، تجليات صفات الحق تعالى

للمنبعث أحياناً عدة بواعث كما في الشجرة يكون للماء والتربة والهواء والشمس دخل في ايجادها ونموها ولكن أحياناً أخرىٰ لا يكون له إلّا باعث واحد يسمىٰ «العلة التامة».

وفي هذه الظاهرة، لا تمثل الصفات إلّا نموذجاً متصاغراً لمصدر الظهور. فضياء الشمس هو نموذج مصغر من الشمس ذاتها ليس إلّا. بل كل ما ينبعث منها من ضوء وطاقة وحرارة وما إليها هي نماذج مصغرة منها. تعمق في فكرك لتحسن فهم الآية:

﴿كلٌ يعمل على شاكلته﴾[1].

إنك لترى الله يتجلىٰ لك في وجود أي مخلوق إن أنت نظرت إليه بعين التحري، وألقيت عليه نظرة في أرقى أحواله، ونظرة في فقره الذاتي، حيث توحي لك بان كل ما يملكه إنما اكتسبه من الله:

---

١ ـ سورة الاسراء، الآية ٨٤.

«الحمد لله المتجلي لخلقه بخلقه»[١].

يتجلى لك كماله في سعة خلائقه، وخلقهم ببراعة تنبذ عنه أي نقص:

﴿ما ترىٰ في خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترىٰ من فطور﴾[٢].

فربك خلق كل من الكائنات في منتهى الجمال والكمال ثم هداه سبيله:

﴿الذي خلق فسوىٰ. والذي قدر فهدى﴾[٣].

وأنت إن تأملت في الدنيا بمثل هذه العين، ترىٰ:

﴿فأينما تولوا فثمَّ وجه الله﴾[٤].

فالشخص يتجلى في كلامه والإنسان يقدّم نفسه من خلال كلامه، وهكذا كلام التشريع الذي سمي القرآن هو ظهور وتجل له، والعالم الذي عبّرنا عنه بكلامه التكويني إنما هو معرض صفاته وأفعاله شرط أن تتوفر في وجودك الطهارة اللازمة للقياه:

﴿لا يَمَسُّهُ إلّا المُطَهرون﴾[٥].

---

١ ـ نهج البلاغة، الخطبة ١٠٦.

٢ ـ سورة الملك، الآية ٣.

٣ ـ سورة الأعلى، الآيتان ٢ و ٣.

٤ ـ سورة البقرة، الآية ١١٥.

٥ ـ سورة الواقعة، الآية ٧٩.

فمتى ما تبلورت هذه الطهارة في وجودك سوف تجد كل الكائنات إنما هي تجسدات لأسماء الله. فالأسماء كلها تجليات لذاته المطلقة والأشياء مظاهر لصفاته واسمائه.

هل اهتديت إلى أي نقص في شيء ما من عالم الآفاق؟ كل ما تراه هو مظهر من مظاهر العلم والجمال والكمال.

تمهل حتى تنفتح أمامك أبواب الملكوت لينير باصرتك في حلكة عالم الطبيعة نور الله وتستظل بظل الآية ﴿يخرجهم من الظلمات إلى النور﴾. تعمق فيما يقوله الرسول الكريم ﷺ:

«إن الله خلق الخلق في ظلمة، ثم أفاض عليهم من نوره».

سأل الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام أحد تلاميذه عما إذا كان استهدى إلى معنى (القَدر) في قوله تعالى: ﴿إنا كل شيء خلقناه بقدر﴾[1]. فأجابه بالنفي. عندئذ أردف بأنه يعني الهندسة أي أنه أخذ له بالحساب ما لزم من الحد والهيئة.

وكلمة هندسة مأخوذة من اللغة الفارسية وتدل على المقدار والحد. من جهة استنبطت لفظة «العالَم» من (العَلامَة) فهو بجميع حذافيره، في الواقع، علامة ومظهر ومرآة في غاية الدقة تعرض أمامك صفاته وذاته. إذاً:

﴿أين المفر﴾[2].

---

١ ـ سورة القمر، الآية ٤٩.

٢ ـ سورة القيامة، الآية ١٠.

والملفت أن أسماء وصفات الله الحسنى، وهي روح عالم الإمكان، هي اسماء وصفات مطلقة لا متناهية. وبالطبع الكلمات والمخلوقات أيضاً لا متناهية. وكل مخلوق تكوّن على مر الزمان من مظاهر عديدة لا متناهية. فلكل مخلوق حركة، والحركة تتطلب التحول والتغيير. وهنالك وراء كل تغيير وتحول محول:

﴿بل هم في لَبس من خلق جديد﴾[١].

وهذا الرب الفياض هو الاسم الواحد، ولفيضه في كل لحظة تجل خاص وباسمائه الشريفة تتميز نعماء الباري تعالى عن بعض، ومردها جميعاً لحقيقة واحدة. وليس هنالك في واقع الحال أي موجود جُرد تماماً من فيض اسم «العالِم». فإشارات العلم، كما علمت، لائحة ومؤثرة في وجود الجميع.

كتب أحد العرفاء في تفسير الآية: ﴿الم﴾: الالف يدل على اسم «الله» فهو الحرف الاول من هذه الكلمة، واللام على «العلم» لأنه حرفه الوسطي، والميم على «العالِم» لأنه حرفه الأخير. وهذا قوس استدراجي من الله وصفته وتجليه في عالم «الشهود».

فيا أيها العزيز! اطلعت في هذا الخصوص على حديث نبينا ﷺ فيما أكد أن للقرآن ظاهراً وباطناً حتى سبعين بطن لا يلجها إلّا أصحاب القلوب المطهرة وفيها من اللطائف والبدائع والقوافي الكثيرة ما لا يتنبه إليها إلّا أهل المعرفة وذوي الاختصاص.

---

١ ـ سورة ق، الآية ١٥.

انظر الآن إلى كتاب التكوين على نفس الشاكلة. فكلاهما من مصنف واحد. وكتاب التكوين هو الآخر يحتوي من البطون واللطائف والدقائق ما لا يلم به إلّا أرباب القلوب، وكل من ارتشف كأساً من هذا المشروب التحق بركب المشدوهين به إلى يوم القيامة.

فالعين المتنزهة عما يكدرها ترىٰ الله في مرآة الأشياء في العالم والباصرة التي كشف لها عن أنوار الغيب بحسب الأشياء مرآة الله. فهي في الحقيقة لا تعرف ولا ترىٰ غير الله.

قال رسول الله ﷺ:

«ما من عبد إلّا وبقلبه عينان هما غيب ينظر بهما الغيوب فإذا أراد الله تعالى بعبد خيراً فتح عيني قلبه ليرىٰ بهما ما أخفي عن بصره».

فيا أيها العزيز! لا يحجبنك الخلق عن الحق ولا تهجرن سرادق جلاله وجماله الفاتن حتى يأتيك الخطاب يوم يماط لك عن اللثام:

﴿لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد﴾[١].

ويكون لسان حالك:

﴿يا حسرتى على ما فرطت في جنب الله وإن كنت لمن الساخرين﴾[٢].

ولتتأمل العالم بنظرة جديدة تنبه الى أن الظل لا غنى له عن الظليل وأنه لا يملك لنفسه شيئاً وكل ما استحوذه أتاه من الظليل. فالعالَم ظل

---

١ ـ سورة ق، الآية ٢٢.

٢ ـ سورة الزمر، الآية ٥٦.

الله ولا وجود له إلّا به. وفي الواقع العالَم هو مظهر أسمائه وصفاته. والمظهر لا معنى له ولا وجود دون المُظهِر.

فمثلما يصرف عن الظل كل وجود مستقل حيث يتعلق وجوده بذي الظل ويتوقف عليه أينما وجد، هكذا العالم فإنه دون خالقه يمثل خيالاً ليس إلّا:

﴿ألم تر إلى ربك كيف مدَّ الظل ولو شاء لجعله ساكناً ثم جعلنا الشمس عليه دليلاً﴾[١].

إن الظل لا معزل له ولا انفكاك عن الظليل، والعالم أيضاً لا ينفك عن الله. فما يتراءى لك الآن في العالم ماذا كان يملك لنفسه من ذي قبل أو سوف يملك من هنا فصاعداً؟ كل ما تبصره في الأزمنة ثلاثتها هو عالم يمثل مرآة وجهه.

فهذا مولانا أمير المؤمنين الإمام علي عليه السلام يقول:

«ما رأيت شيئاً إلّا ورأيت الله قبله ومعه وبعده».

في أبيات له يأتي الشاعر مولوي بمثل هذه المعاني مرتجزاً:

خلق را چون آب دان صاف و زلال
اندر او تابان صفات ذو الجلال
علمشان وعدلشان ولطفشان
چون ستاره چرخ در آب روان

---

١ ـ سورة الفرقان، الآية ٤٥.

پادشاهان مظهر شاهی حق
فاضلان مرآت آگاهی حق
قرنها بگذشت و این قرن نوی است
ماه آن ماه قرن آن قرن نیست
آب مُبدّل شد در این جو چند بار
عکس ماه و عکس اختر برقرار
قرنها بر قرنها رفت ای همام
وین معانی بر قرار و بردوام
خوبرویان آینه خوبی او
عشق ایشان عکس مطلوبی او
هم به اصل خود رود این خد و خال
دائماً در آب کی ماند خیال
جمله تصویر است عکس آب جوست
چون به مالی چشم خود، خود جمله اوست[1].

---

١ ـ معناها:

ـ الخلق كالماء الصافي النقي، تتجلى فيه اشراقات صفات ذي الجلال

ـ لعلمه وعدله ولطفه في الخلق تجليات، مثل صورة النجم في الماء الدافق

ـ الملوك مظاهر سلطان الحق، والفضلاء مرآة علم الحق

ـ القرون انصرمت وهذا قرن جديد، القمر ذات القمر ولكن القرن أدبر وغيره أتىٰ

←

في هذا التمثيل الرائع يرىٰ مولوي ذوات المخلوقات منزهة مما يكدر صفوها ويعكرها من شوائب. إنه يمثل تجليات صفات ذي الجلال في مخلوقاته بانعكاس نور القمر والكواكب في المياه الصافية. فمهما كانت في حركة متواصلة صفاتها ثابتة والصور تنعكس من مصدرها في كل آن دون زوال لا من محل انعكاسها:

﴿ولله الأسماء الحسنى﴾[1].

انعكاس الضوء والنور على حقيقته أو دونها يتوقف على الصفاء أو التكدر. فالضوء ينير على وتيرة واحدة. ولكن استيعاب الماهيات لا يتماثل وإن كان فيضان النور الالهي واحداً لا يتغير. انطباعات المخلوقات تختلف عن بعض مما آلى إلى تنوع معرفة الخلق حول الخالق وانقسامها إلى درجات ومراتب، فأحدهم يجهل حقيقة الحق وآخر عالم بها وغيره أعلم منه بينما للحق تجليات ثابتة في العالم.

فرغم وحدة الوجود تتكون صورته في المرآة الصغيرة صغيرة وفي

← ـ الماء تبدل مراراً في هذه الترعة، ولكن تثبتت فيه للقمر والكواكب صورة واحدة

ـ القرون توالت يا همام، وهذه المعاني ثابتة على الدوام

ـ الأبرار مرآة بره، وولههم صورة حسنة

ـ فلمبدأها تعود هذه المفاتن، وإلّا فالخيال لا لبث له على الماء

ـ كل ما على سطح ماء الترع صور تنعكس منه، تمسح عينيك وانظر، كلها تجلياته هو.

١ ـ سورة الأعراف، الآية ١٨٠.

المرآة الكبيرة كبيرة وفي المرآة الصافية واضحة المعالم وفي المرآة المتكدرة مشوشة.

والله في حقيقته منزه من كل تكدر وشائبة وصفاء ووضوح وصغر وكبر. فالله سمي بحسب اختلاف تجلياته في عالم الإمكان فهو القابض والباسط وهو الرحيم والمنتقم. وإلّا فإنه بعيد عن الأسماء والصفات جميعاً وهو وحدة تامة لا تشهد التفكك قط.

كل ما جئناك به من تشبيهات استهدفنا منه تنبيهك إلى فقرك الذاتي مع كل امكاناتك ولكي تستوعب غناه، فتستدرجك خطاك لا محالة نحو طريق عبوديتك وتستدخل أحاسيسك الشعور بأن يد الله معك أينما كنت. فالمعرفة كلها تكمن، بالتحديد، في الاطلاع على هذه الحقيقة. وما أن تدرك هذه الحقيقة تكتسب نظراتك إلى العالم طابعاً آخر. وتنعمُك بالجنة تستهله في دارك هذه فترد على السؤال الإلهي:

﴿لمن المُلك﴾[١].

قائلاً:

﴿لله الواحد القهار﴾[٢].

---

١ ـ سورة غافر، الآية ١٦.

٢ ـ سورة غافر، الآية ١٦.

«تجليات الحبيب تمزق كيانك إرباً»

ايها العزيز! أداعب الألفاظ ولا أدري كم من خفاياها تظهر لك، وإن ظهرت فما مبلغ روحك استيعاباً لها؟ وهل لك طاقة بها أم لا؟ فبسماعك لفظة من نار هل يحرق جزءاً من جسمك لهيبها وهل تدرك سخونتها؟

لابد انك سمعت ما جرى على النبي موسىٰ ﷺ عندما ألح على النظر إلى الحق تعالى فتجلىٰ ربه للجبل وليس إليه حيث يصف القرآن الكريم حاله في الآية التالية عندما أجابه ربه:

﴿ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف تراني، فلما تجلىٰ ربه للجبل جعله دكاً وخر موسى صعقاً﴾[1].

هذا ما كان من كليم الله ﷺ. وقد تناهى إلينا أن امير المؤمنين علي بن أبي طاب ﷺ أغمي عليه مراراً لشدة خوفه من الله. أما الإمام الصادق ﷺ فإنه فيما تذكر الروايات سئل عما حل به عندما أغمي

---

١ ـ سورة الأعراف، الآية ١٤٣.

عليه ذات مرة وهو يصلي، فردّ قائلاً:-

«ما زلت أردد هذه الآية على قلبي حتى سمعتها من المتكلم بها فلم يثبت جسمي لمعاينة قدرته».

يسرد الأصمعي حكاية إحدى رحلاته عندما حل ذات ليلة ضيفاً على قبيلة بني عذرة فلقي من تلك القبيلة لطافة المعشر، وحسن الضيافة ومنتهى الأدب. وقد رأى في خيمة سكنها عندهم فتاة في غاية الحسن والجمال وفي قمة اللطف والكمال.

في الغد ترك الأصمعي خيمته ليروّح عن نفسه فلقي وهو يتجول شاباً شحب محياه وذاب لحمه حتى التصق جلده بعظمه، أوقد ناراً لقدر راح يؤجج النار تحته وهو يترنم بأشعار الوالهين. سأل عنه الجماعة علام صار إلى هذه الحال؟ أنبيء أنه شغف حباً بابنة مضيفه منذ عشرة أعوام ولم يلق منها ترحاباً. عاد وقص حال الشاب على الفتاة فعلم منها أنه ابن عمها وحبه لها لا يشوبه رياء أو كذب. فألح عليها بأنه ضيفهم وهم قوم يكرمون الضيف فهل تذهب للقياه لحظة. لم تر الفتاة صلاحاً في ذلك، فأصر على طلبه حتى لبت الفتاة طلبه على مضض.

نهض الاصمعي وجاء إلى الشاب يخبره بقدوم المعشوق إليه. تغيرت أحواله ولشدة سروره اكتظت عيناه الدموع. أبصر الأصمعي الفتاة تجر أذيالها قادمة نحوهما وأطل محياها على الواله المحب فتهافت الشاب إليها فوقع في النار. ومع أنهم سارعوا يرفعونه عنها نالت الحروق عدة مواضع من جسمه فوجهت الفتاة إليه العتاب وألقت

عليه التقصير في ما جرى لابن عمها في ذلك اليوم.

ما أصاب هذا الواله إنما لاحه من قبس من جمال الحبيب. فهلا علمت ما أعظم حكمة استتار محبوبك وما أرقه! فالمحب مسكين لا طاقة له لا باستتار الحبيب ولا بلقياه.

ولكن في عالم الأكوان والماهيات يتجلى الحق تعالى لقلوب السائرين إليه من وراء حجاب المادة. فإن كنت منهم، فلقلبك في نظره إلى كل ذرة من الكون لقاء الوالهين، وإن كانت روحك من مثل أرواحهم فلها تحليق وتسريح.

«الله قبلةِ الموجودات جميعاً»

قال تعالى:-

﴿ولله يسجد من في السموات والأرض طوعاً وكرهاً﴾.[1]

يا كريم النفس! العالم مسيّر بيد قدرته، فما من ذرة في عالم الوجود تتحرك دون إرادته. بلى هو هكذا.. فالجميع منصاعون لأوامره، يأتمرون بأمره، ولا يقوى أحدهم على تحديه. هذا هو السجود له بأمِّ عينه فالسجود يعني ان يخر المخلوق على التراب ويذعن أنه لا شيء إزاء المسجود له. فهل هنالك يا ترى مخلوق يرفع لواء «الأنا» في حضرة الحق تعالى:-

الغمام تتأتى من البحار، تسوقها الرياح، تهطل الأمطار، الأرض تتشرب ماء فتنبت حبوباً. تمتص جذورها الماء فتنفلق براعمَ وتنمو لها سيقان فتحمل أزهاراً ثم ثماراً، وكلها تتمثل لأوامر الله فهي من جنده. أمهلني اسمعك قول الحق تعالى:-

---

١ - سورة الرعد، الآية ١٥.

﴿والله الذي أرسل الرياح فتثير سحاباً فسقناه إلى بلد ميت فاحيينا به الأرض بعد موتها﴾.[١]

وكذلك:

﴿ثم شققنا الأرض شقاً. فانبتنا فيها حباً. وعنباً وقضباً. وزيتوناً ونخلاً. وحدائق غلبا. وفاكهة وأباً﴾.[٢]

و

﴿إن الله فالق الحب والنوى﴾.[٣]

هذا ما كان من كينونة النبات في عالم الربوبية. ويستوحى من الكثير من الآيات التحاق غيره من أجزاء العالم أيضاً بصلاة الجماعة هذه. فالآية التالية تذكر النجوم وسجودها إلى جانب النباتات:

﴿والنجم والشجر يسجدان﴾.[٤]

ذكرت لك أن العالم يسير في حركة تكاملية نحو خالقه، في حركة سماها الفيلسوف العارف صدر المتألهين (رحمه الله) الحركة الجوهرية، والبعض يطلق على سجود الموجودات هذا «السير إلى الله». فهذه الموجودات تعود إليه طوعاً أو كرهاً بخطاها على طريق ﴿إنا لله وإنا إليه راجعون﴾:-

---

١ - سورة فاطر، الآية ٩.

٢ - سورة عبس، الآيات ٢٦ - ٣١.

٣ - سورة الأنعام، الآية ٩٥.

٤ - سورة الرحمن، الآية ٦.

﴿ألم تر ان الله يُسبح له من في السموات والأرض والطير صافات كلٌ قد عَلِم صلاته وتسبيحه والله عليم بما يفعلون﴾[١].

تعرض الآية السابقة التسبيح إلى جانب الصلاة. وأحد أجزائها هو السجود. وتبين آيات أخرى عبودية الموجودات لله بتسبيحها له.

قال تعالى:-

﴿سبح لله ما في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم﴾.[٢]

ومثل هذا المضمون مع فارق طفيف جاء في السور: الجمعة، والحشر، والصف والرعد أيضاً:-

﴿ويسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته﴾.[٣]

التفت الآن إلى ان التسبيح والسجود أمور تشهدها جميع المخلوقات. وأحطت علماً بما قيل عن ذلك السجود. أما التسبيح فقد فُسّر بأنه لما كان خلق الموجودات كلها يتسم بمنتهى الكمال، وكلها مظاهر لعلم الحق تعالى، فلنا أن نرى الله وصفاته في كل مخلوق أي أن كل من المخلوقات يعلن بلغته الخاصة بان له خالقاً، قادراً، عالماً، حسناً، هذا ما نعلمه كلانا ولكن أرهف السمع لقوله تعالى ينبهنا إلى أننا لا نفهم لسان حال هؤلاء وهم يسبحونه:-

﴿تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن وإن من شيء إلا يسبح

---

١ - سورة النور، الآية ٤١.

٢ - سورة الحديد، الآية ١.

٣ - سورة الرعد، الآية ١٣.

بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم إنه كان حليماً غفوراً﴾.[١]

إذاً، إعلم أن هنالك وراء الحجب سرّاً آخر ونداء آخر. كل المخلوقات تسبحه عفوياً دون ارادة واختيار منها إلا الإنسان يسبحه إرادياً فيما يظهر من أمره. وهذا الاختيار وتفعيل الارادة إنما هو هبة رزق بها. ما عليك إلا أن تتنبه لئلا تتخلف عن صلاة الجماعة هذه بما وهبت من اختيار:-

﴿ألم تر أن الله يسجد له من في السماوات ومن في الأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجرِ والدواب وكثير من الناس وكثير حق عليه العذاب﴾[٢].

١ - سورة الاسراء، الآية ٤٤.

٢ - سورة الحج، الآية ١٨.

«لجميع الموجودات محبوب يستتر وراءه»

ونحن نسمي أنفسنا الناطقين والحيوانات الأخرى الصامتين، بِمَ نفسّر هذه الأصوات والهمهمات والتمتمات التي تتناهى إلينا من الحيوانات والدواجن؟ نهيق الحمار يرد عليه حمار آخر، وصياح الديك يثير ديكاً آخر، بلبل يتناغم فيترنم معه بلبل آخر. ماذا نعرف عن هذه الأصوات والأصداء؟ من منا يعرف حقاً سر طائر يهدهد في ساعات خاصة من الليل أو دجاجة تقضي الليل بتمامه تمأق، الضفادع بما تثيره من ضجة والجُدجُد وهو يترنم منذ بداية الليل حتى الصباح، ماذا نعرف عن كل هذه الترانيم،

ألم تقرأ في القرآن الكريم عن استنطاق أعضاء الجسم في يوم القيامة؟

مثلاً في الآية:-

﴿يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون﴾.[١]

---

١ – سورة النور، الآية ٢٤.

أو الآية:-

﴿اليوم نختم على أفواههم وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون﴾.[١]

إنه موعد إماطة اللثام عن السرائر. وما يكشف عنه عندئذ هو ما يدرج حالياً ضمن السرائر لا ما هو قائم وجلي منذ الآن:

﴿يوم تبلى السرائر﴾.[٢]

فما سوى السرائر ليس بالجديد أما السرائر فقد كانت هكذا ولكننا نتنبه لحقيقتها أي بعبارة أخرى للأيدي والأرجل والعيون والآذان قابلية السمع إلا أننا لا نلتفت إلى ذلك. سوف يكشف عن هذا السر آنذاك. وفيما لو تقتضي المشيئة الالهية يماط عن هذا اللثام للبعض في هذه الدنيا أيضاً. ألم تسمع عن الرمال التي انكبت تذكر الشهادتين في حضرة رسول الله ﷺ؟ ألم تقرأ في القرآن عن تسبيح الجبال مع النبي داود ﷺ عندما كانت الطيور تجاريها في تسبيحها لله:-

﴿وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والطير وكنا فاعلين﴾.[٣]

و﴿ولقد آتينا داود منا فضلاً يا جبال أوِّبي معه والطير﴾.[٤]

ألم تسمع ان الرياح كانت تتردد مع النبي سليمان في غدوه

---

١ - سورة يس، الآية ٦٥.

٢ - سورة الطارق، الآية ٩.

٣ - سورة الأنبياء، الآية ٧٩.

٤ - سورة سبأ، الآية ١٠.

ورواحه؟ فيكف لمن لا شعور له أن ينصاع للأوامر؟!:-

﴿ولسليمان الريح غدوها شهر ورواحها شهر﴾.[١]

ألم يصغ عليه السلام إلى حديث النمل فرد على كلامها؟

﴿حتى إذا أتوا على واد النمل قالت نملة يا ايّها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون﴾.[٢]

والملفت أنها حسبت النبي سليمان عليه السلام وجنوده قوماً جهلة لا يشعرون. وهذا «موريس مترلينغ» صاحب كتاب حول النمل يرى أن للنمل حضارة أكثر قدماً منا نحن بني الانسان بعدة آلاف من السنين.

ألم يأت الهدهد سليمان بأنباء من ديار لم يهتد لها، حول قوم لم يعلم عنهم شيئاً:-

﴿فقال أحطت بما لم تحط به وجئتك من سبأ بنبأ يقين﴾.[٣]

ألم تضج أركان مسجد المدينة حزناً لفراق رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عند رحيله؟ ألم تُزَحْ هذه الحجب عن بصيرة الكثير من الأولياء أيضاً فغدوا يسمعون كلاماً من آفاق بعيدة وتكشف لهم عن بضع أسرارها؟

فلنستمع إلى الشاعر حافظ يرتجز أبياتاً في مثل هذا:

سحر بلبل حكايت با صبا كرد

كه عشق روى گل با ما جه‌ها كرد

---

١ - سورة سبأ، الآية ١٢.

٢ - سورة النمل، الآية ١٨.

٣ - سورة النمل، الآية ٢٢.

ربـــاب و چـــنگ بــه بــانگ بـلند مـن گــويند
كـــه گـــوش هـــوش بــه پـيغام أهـل راز كـنيد
ســــحرم دولت بـــيدار بـــــه بـــالين آمـــد
گـفت بـر خـيز كـه أن خسـرو شـيرين آمـد[١]

والعارف الشهير ابن عربي يحدثنا عن ولهان لقيه أيام شبابه راح يخطب في المسجد وينصح الناس حتى خاطبهم ووصفهم بالمساكين فأردف ينبئهم بأنهم لا يبصرون ما يبصر هو فيخيل إليـهم أن سـقف المسجد لا يقوم إلا على أعمدته.. إنهم يرونها أعمدة من أحجار المرمر ولكنه يراها رجالاً يذكرون الله شغلهم التضرع إليه وإجلاله. ثـم راح يتساءل:السماء يرفعها هؤلاء الرجال فكـيف بـهذا المسـجد؟! بـل لم يكتف بهذا وأقسم بالله أنهم عمي لا يبصرون.[٢]

والمرحوم الفيض الكاشاني (ره) يذكر في تفسير «الصافي» في ذيل

---

١ - معناها:

- «البلبل حكى لريح الصبا حكايته: اسـمع مـا حـل بـنا مـن حب طـلعة الورد (المحبوب)»،

- «الرباب والصنج عالياً يهتفان، ألا أرهفوا سمع البصيرة لنداء أهل القلوب»،

- «عظمة الصحوة أفاقتني من غفوتي سحراً، قالت: انهض فذاك خسرو (محبوب) شيرين أراه قادماً».

٢ - انظر كتاب «عقلاء المجانين».

الآية الشريفة ﴿فإنها لا تعمي الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور﴾ حديثاً للإمام علي بن الحسين زين العابدين عليه السلام رواه الشيخ الصدوق في كتابيه «التوحيد» و«الخصال»، جاء فيه أن الله رزق عباده أربع أعين إثنتان منها يبصر بهما أمور دنياه ودينه وإثنتان أمور آخرته فمن أراد الله به خيراً فتح عيني قلبه ليرى بهما ما لا يبصره غيره.

ومن البديهي أن يواجه هؤلاء المساكين الرفض والإنكار. فأنت تعلم ما سبق كل اكتشاف علمي من تحديات حتى بلغ الأمر بمكتشفي النظريات الصحيحة أن حزت رؤوسهم عقاباً على ما انتهوا إليه. وما أكثر مثل هذه الأحداث في تاريخ العلوم. أمعن في الآية:-

﴿له ما في السماوات والأرض، كل له قانتون﴾.[1]

والآن ركز تفكيرك عميقاً فيما تقوله الآية التالية عن تصاحب الرعد والملائكة وهي تسبح الله:-

﴿يسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته﴾.

وكذلك الآية:-

﴿والشمس والقمر كل في فلك يسبحون﴾.[2]

والجمع بالواو والنون هو بحسب قواعد اللغة العربية لا يستخدم إلا لذوي الشعور والعقل.

---

١ - سورة البقرة، الآية ١١٦.

٢ - سورة الأنبياء، الآية ٣٣.

وها هو الحكيم الملا هادي السبزواري (ره) يقول في شرح المنظومة:

وكل ما هنالك حي ناطق
ولجمال الله دوماً عاشق

أمهلني اسمعك حكاية ثمالة ولهان إزاء هذه الآفاق الناطقة بالتسبيح يرويها لنا الشاعر سعدي الشيرازي:

«أذكر ذات ليلة وأنا برفقة قافلة ما، نمنا وقت السحر قرب غابة يصحبنا ولهان لم يهدأ لحظة ولما انفلق الصباح سألته: وأي حال هذه؟! قال: رأيت البلابل قد ضجت بالانين على الشجرة، والحجليات في الجبل والضفادع في الماء والبهائم في الغابة، أبيت لنفسي السكون والجميع مسبحون».

أثبت العلم الحديث حركة الجزيئات والذرات المكونة للجمادات، الشحنة السالبة للالكترون والشحنة الموجبة للبروتون، وكذلك انقسام النباتات إلى أعضاء ذكرية وأنثوية. وأنّى لنا أن نثق أن لا يكشف العلم غداً عن آلاف الخفايا الأخرى؟ فبعد اختراع جهاز يسجل الأمواج الصوتية الخفيفة للغاية، ربطه أحد العلماء بجذع شجرة قطع أحد أغصانها بالمشار فثبت في الجهاز صوت صراخ النبات. وآخر ألقى جذر نبات ما في ماء مغلي موضحاً نفس الحالة.

عالم نبات آخر أعلن أنه عندما يتولى شخص ما سقي نبات ما يومياً فإن النبات يبدي له مشاعر الود عند مرور ذلك الشخص أمامه.

اتضحت هذه القضية بأخذ صور للخلايا النباتية التي تتفتح عند عبور الساقي أمامها. هذا الاختبار يميط اللثام عن أسرار أخرى أيضاً وهي أن للنباتات عيوناً وعواطف. والإسلام بدوره يعتبر سقي النباتات أمراً مستحباً على الإطلاق وإن كان النبات دون ثمر. وهذا ما يوحي بأنه مخلوق حي يحظى بالرأفة الإلهية.

يقص لنا الشاعر مولوي حكاية مربي ثعابين عثر على ثعبان مكتئب تجمد بدنه فخيل إليه أن روحه زهقت. ولما صحبه إلى ساحة الاستعراض ولاحه الدفء من أشعة الشمس وأنفاس الناس دبت الحركة في الثعبان فزهق أرواح مئات من ذوي الأرواح. وهل لك أن تعرف أن الأمر ليس هكذا في عالم الجمادات:-

عالم افسرده است ونام او جماد

جامه افسرده بود ای اوستاد

باش تا خورشید حشر آید عیان

تابیتی جنبش جسم جهان

چون عصای موسی اینجا مار شد

عقل را از ساکنان اخبار شد

پاره خاک تو را چون زنده ساخت

خاک‌ها را جملگی باید شناخت[1]

---

١ - معناها:

لا أتمادى معك في خوض غمار هذا الموضوع أكثر من هذا فإني آمل أن تستوحي من هذه القلة اندفاع ما في آفاق الكون جميعاً ذاكرة ربنا العظيم مسبحة في حضرته، لعلك لا تنكر بعد هذا حقيقة حديثها ونطقها.

← - «العالم مكتئب سموه جماداً، الجماد كان مكتئباً ايها الاستاذ»،
- «تمهل حتى تظهر الشمس، فترى حركة جسم العالم»،
- غدا ثعباناً كعصا موسى، وله عقل الحاضرين قد اختفى»،
- «فكما صرت حياً من التراب، لا بد من معرفة الأتربة جميعاً».

«العلم الإنساني مكاشفة لعالم الوجود»

قلنا أن العالم ساحة تجليات صفات الحق تعالى وأفعاله. فليس هنالك من مخلوق لا يكشف، في حقيقته، مظهراً من صفات الحق تعالى. فصفات العلم والقدرة والرحمة وكثير من الصفات الأخرى تترسخ في وجود جميع ذرات عالم الوجود. من هنا فإن تشريح عالم الوجود والالتفات إلى اسرار كل من الموجودات يمثل ورقة من سجل العلم الإنساني. فما العلوم التجريبية والطبيعية التي اكتظت مكتبات العالم بمؤلفاتها إلا إشارات لمعارف كامنة في عالم الأكوان. وما يعلم إلا الله كم من هذه الإشارات يزيح المستقبل الستار عنها وكم من الحجب يتم إزالتها حتى آنذاك!

«المنزل الأول»: هو التنبه للمُظهر من خلال الامعان وتركيز الفكر في المظاهر. والمرحلة الأسمى منها هي مرحلة الاستناد إلى الصفة للالتفات إلى مصدرها الأصلي. خطاك في المنزل الأول خطى العقل وفي هذا المنزل خطى الحب والوله.

يشبه الشاعر مولوي هاتين الخطوتين بمساعي صياد يبحث في السهول عن غزال فيتقصى وقع أقدامه. إلا أن الصياد الذي يتابع الغزال مستشماً رائحته يكون أقرب بكثير إلى غزاله ومطلوبه.

همچو صيّادى سوى شكار شد
گام آهو ديد وبر آثار شد
چند گاهش گام آهو در خور است
بعداز آن خود ناف آهو رهبر است

* * *

رفتن يک منزلی بربوی ناف
بهتر از صد منزل گام وطواف[1]

* * *

هذا أحرز القناعة بعلمه وذاك أسكرته نفحة مطلوبة. هذا يسيّره عقله وذاك يدفعه جنونه. للعقلاء في كل خطوة تبجح وللمحبين في ساحة صولاتهم تحليق وهيام. تمهل حتى تلفح شامة روحك نفحة من

---

١ - معناها:

- «مثل صياد عزم على الصيد، شاهد وقع أقدام الغزال فتبعها»،
- «آثار الغزال تفيده بعض الوقت، بعدئذ لا بد من الاقتياد بمسك الغزال نفسه»؛
- «تتبع عبير المسك خطوة واحدة، لأفضل من مائة خطوة بحث وتقص».

هذا المسك فتحثها للتحليق نحو المحبوب لتميز في هذا المسار طريق الثراء عن طريق البلاء فتحسب ما تلقاه فيه من معاناة رحمة ونعمة. فالعالم موجود دائم الحركة والتحول: ومثل هذا الموجود مظهر لقدرة المحول العظمى. تأمل السماء:-

﴿كل في فلك يسبحون﴾.[1]

حدثتك قبل هذا بأن القرآن هو كتاب التشريع، وعالم الطبيعة كتاب التكوين. وكما لذلك الكتاب ظاهر وباطن، لهذا كذلك ظاهر يراه الجميع بما فيهم الحيوانات، وباطن لا يُكشف عنه إلا للعارف المتصوف. فهذا الجمال، الذي يتحول حجاباً يغشي عيون الناس العاديين ويكبل تحليقهم إلى المحبوب، تنظر إليه عيون العارف فتجده دعوة للتحليق تنبهه نحو أسماء الله وصفاته ليهتدي عندها إلى ذاته. ولما كانت هذه الصفات كلها منبثقة من العالم الأسمى، فكل مظاهر الافتتان منشأها افتتان القلوب جميعاً به وكل جذاب كسب جذابيته منه. ولكن واحسرتاه على الشريحة التي لا تقوى على الوصال إلى اللب والباطن باختراق القشور. إنهم لا يرون الملكوت من وراء هذه التركيبة الشكلية وبالتالي يلتحقون بدار الخلود وقد تثبتوا في أدنى المستويات في ظاهر عالم الطبيعة. وحكايتهم تقرأها في الآية:-

﴿أخلد إلى الأرض واتبع هواه﴾.

وعندما يحصد خريف الموت هذه الصفات من عالم الطبيعة يعم

---

١ - سورة الأنبياء، الآية ٣٣.

الشحوب والذبول سيماء موردي الوجنات، تتعفن الروائح الزكية، تذبل الأزهار وتندثر، تتحول الأغصان الغضة في الحقول والبساتين إلى حطب للمواقد ووقود للمساكين. وما أعظم خذلان عبدة زخارف المظاهر وبهرجها وهم فقراء الحظ من الوصال:

﴿إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازيّنت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلاً أو نهاراً فجعلناها حصيداً كأن لم تغن بالأمس، كذلك نُفصل الآيات لقوم يتفكرون﴾.(١)

فهذا الجمال وتلك الزخارف نشأت منه، أوجدها لتبصر أنت من وراء هذه الحجب الذات الربوبية للجميل. لا أن تكبل نفسك بها. فإشعاعات الجمال تنتشر على كرتنا الترابية يوماً ثم تختفي يوماً آخر.

على أية حال، من منحه الباري تعالى بصيرة الباطن لا يتطلع إلى أي شيء إلا ويرى معه الله، بالضبط كما نقرأ في الآية:-

﴿فاينما تولوا فثمَّ وجه الله﴾.(٢)

فابتهل إلى ربك يرزقك بصر الباطن وأن ينير فؤادك برؤية نور جماله. جاء في كتاب «الوافي» القيم:-

«ما من عبد إلا ولقلبه عينان وهما غيب ويدرك بهما الغيب فإذا أراد الله بعبد خيراً فتح عيني قلبه فيرى ما هو غائب عن بصره».

---

١ - سورة يونس، الآية ٢٤.

٢ - سورة البقرة، الآية ١١٥.

وإن حرمت من انفتاح مثل هذه البصيرة في باطنك، لا تتحدَ من ظفر بها بل تحرَّ ما يشاهده هؤلاء واضف حصيلة مشاهداتهم إلى علمك حتى يفتح الله تلك العين في باطنك يوماً ما.

فعلي بن أبي طالب ﷺ عجب لمن سأله عما إذ رأى الله أثناء عباداته، فعاد يسأل سائله وكيف له أن يعبد من لم يره؟ ورداً على استفساره التالي عندما سأله وكيف رآه؟ أكد أنه لا تدركه الأبصار ولكن عيون القلب تؤمن به بنظرها إلى الحقائق الدالة عليه.

والروايات في هذا المضمار كثيرة اكتفيت بالجزء اليسير منها. ولكن إعلم أن المعرفة الكلية تتحقق بالسير في الأنفس. فغاية المعرفة في «السير الآفاقي» هو أن تتوثق أن لهذه المنظومة رباً، وان وجود الآفاق لا ينفك عن وجود ربها، وأن ما تراه فيها من صفات إنما ذخرها موصوفها الحقيقي.

أتمنى لك أن تجني من سيرك في الأنفس رؤية أسمى وأقرب إلى الحبيب.

والآن لنندفع إلى تقصي الأسماء والنظر فيها:

«كيف نزلت الأسماء؟»

لتتنبه إلى حقيقة الأسماء ومن أين نزلت، دعنا نسير في عالم الأمثلة أولاً لنستمد من الملموسات عوناً لنحل لك عقدة السر وأقرب إليك المطيبة لتلوح شامتك نفحة طيبة:

سيدة متفننه تتقن عشرات الفنون تستضيف اليوم ثلة من معارفها، والرغبة تشدها لاطلاع الآخرين على فنونها. الإنسان يرغب بطبيعته في إظهار ما يملك، فغريزة الإنسان تحتم عليه إظهار محاسنه وكتمان عيوبه.

على أية حال، قدم ضيوفها فشاهدوا كل شيء نظيفاً، فقالوا: ما أحرصها على النظافة.. كل شي موضوع في مكانه المناسب. قيل: انها ربة بيت تتقن مهامها.. عدة لوحات رسوم كانت تزين الردهة. سألوا: لأي فنان هذه اللوحات؟ أجيبوا: لصاحبة الدار. اتضح أنها رسامة بارعة أيضاً.. استقبلت الضيوف بأنواع رائعة من الحلوى علموا أنها كلها من صنع السيدة نفسها، ثم أعدّت مائدة الطعام تزينها مأكولات

لذيذة تعرض مهارة السيدة في الطهي.. ما كانت ترتديه من ألبسة شدّ أعجاب السيدات، فتبين لهم أنها قد قامت بخياطتها بنفسها.. وما وضع في المزهريات من أزهار وورود مدهشة من صنعها هي.. قضوا فترة العصر في باحة الدار فعلموا أنّـها هـي التـي تـرعى عشب الحـديقة وزرعت ما فيها من أزهار.

لما عاد الضيوف إلى دارهم راح الجميع يتداولون الكلام عن فنون هذه السيدة رغم أنها لم تتحدث قط عن فنونها طوال النهار. فمظاهر فنونها البادية في كل ركن من أركان الدار كانت تلوح بـذلك. وضـع البيت شهد أنها ربة بيت ممتازة، والنظام بانها منتظمة، واللوحات بأنها رسامة، والحلوى بأنها أفضل صانعة حلوى، والمأكولات بأنها أمثل طاهية. وترنمت الأزهار بأنشودة براعتها في رعاية الحـديقة. ولكـن حري بالفنان أن لا يتحدث عن فنه ويترك نتاج فـنه يـتحدث عـنه ويغنيه عن إثبات ذلك.

في المثال السابق تنبهت كيف يشير المصنوع إلى صانعه ولكنه كان مثالاً ناقصاً لاستحواذ الدافع وهو اخطبوط حب اظهار الفنون عـلى نصف ما فيه من محاسن والنصف الآخر يتعلق بمنتوج يد الفنان. دعني آتيك بمثال أكمل:

قضى الشاعر سعدي فترة من عمره معتقلاً في سجن الأجانب. في قعر السجن لم يلتفت أحد الى ما يتقن من فـنون. تأجـجت غـريزته الشعرية ذات يوم في السجن وهو لا يحمل حتى قصاصة ورق وحبراً فصبغ إصبعه بدمه وراح يكتب هكذا على راحة يده:-

گــلى خــوشبو در حــمام روزى
رســيد از دست مــحبوبى بـه دستم
بـه او گـفتم كـه مُشكـى يـا عـبيرى
كــه از بــوى دل آويــز تــومستم
بگــفتا مــن گــلى نــا چــيز بــودم
ولكــين مــدّتى بــا گُــل نشســتم
كــمال هــم نشـين در مـن اثـر كـرد
وگرنه من همآن خاكـم كـه هسـتم(١)

ماذا تستوحي من هذه الحكاية:

١ - ان الشاعر سعدي الشيرازي واعظ بارع، أنه يحسن فن الوعظ والنصح حقيقة.

٢ - إنه ماهر في إطلاق الأمثلة ويأتي بالحكاية في موقعها المناسب.

٣ - إنه خبير بفن الطباق، فالطين والورد متضادان، الأول في أدنى درجات الحطة والآخر في قمة الجمال والوجود.

٤ - انه شاعر ممتاز فقد أوجز ما أراد التعبير عنه في قطعة جميلة

---

١ - معناها:

- «تسلمت من محبوب يوماً وأنا في الحمام قطعة من طين عبق»،
- «سألتها: أمِسْكٌ أنت أم عبير؟، فقد سكرت لرائحتك الفواحة»،
- «أجابتني: كنت طينة تافهة، ولكني عاشرت الورد مدة»،
- «فكمال الجليس أثّر فيّ، وإلا فلنا نفس التراب الذي هو أصلي».

وصغيرة صبها في قالب شعري.

والآن أخبرني: هل لهذه القطعة الشعرية أن تدل على أمر أو يستوحى من ظهورها على شيء إلا على وجود الشاعر سعدي وبراعته وصفاته. دمه الحبر وراحة يده الورق، والشعر يتأجج من روحه، والفن من ذاته. كل هذه الأمور تعرض شخصيته وحقيقته. حسناً دعنا نعود لموضوعنا الأساس:

تعساً لقلمي! فكيف بهذا الأدنى المتطفل أن يتحدث في مثل هذا؟!

﴿وتعالى عما يصفون﴾.[1]

قلت لك ان اصطلاح «العالم» مأخوذ من «العَلامَة»، ففي كل ركن وزاوية منه علامة ومؤشر له. إنه عرض نفسه على هذا النحو، ولكن.. إعلم أن بين ظهور التجلي الأول وما تراه أنت حجباً حري بك أن تلم بها إلى حد بسيط.

---

١ - سورة الأنعام،الآية ١٠٠.

«مركز عالم الوجود»

تعلم أنه من النقاط تتكون الخطوط، ومن الخطوط تتكون السطوح، ومن السطوح تتكون الأحجام، وعالم المادة كله محل لاستعراض الأحجام.

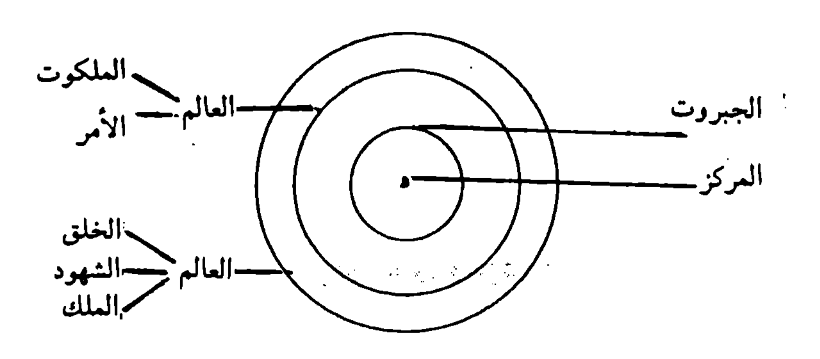
أما الأعداد فإنها جميعاً عامل العدد واحد (١)، وليس هنالك في العالم عدد تنقسم عليه الأعداد كلها سوى العدد (واحد).

أما الدوائر فأنت تعلم أن أصلها هي نقطة مركزها. فمركز دائرة محيط الأرض أو الشمس لا يختلف عن مركز أصغر عملة نقدية. فكلها مركزها نقطة واحدة. وهذا ما يتبين بوضوح أكبر في الدوائر المتحدة المركز، وإن بلغ عددها المليون دائرة متداخلة، فمركزها نقطة واحدة لا أكثر ولا أقل.

الآن وقد تنبهت لهذا الموضوع، إعلم أن مركز عالم الوجود هو الذات الأزلية لحضرة الخالق الأحد. وهو رب الأسرار الذي لا يقوى

على وصوله أحد.

يشبّه هذا المركز في العرفان بالخال وهـو نـقطة مـيّزتها إجـمالاً واحديتها، وفي مجال معرفة الأغيار تتسم بعمائها ومجهوليتها، أي لا سبيل للغير إلى معرفتها فقد استأثر الله تعالى بمعرفتها لأنها تمثل باطن احديته.



عمَّ أتحدث وذاته منيعة لا تبلغها معرفة؟ فـلو شـاء الله أن يـظهر تنطلق مشيئته من الذات نحو مرحلة تسمى بمرحلة «الجبروت» ففي الجبروت تتحكم ارادته بالصفة التي يتجلى بها، وكل صفة تنشأ مـن الجبروت وتحكم إرادته بظهورها تسمى (الملكوت).

كل هذا كان حديثاً عن الذات والإرادة والصفات، وكلها من عالم المجردات لا دخل للحواس والشعور فيها أبداً. وباظهاره الصفات إلى عالم الشهود دعا عالَم الخلق للتأمل فيها لتتجلى المجردات في عالم

المادة وتظهر لعين العقل من وراء حجابَ الكون.

بالطبع هناك من يزيد على هـذه الدوائر دوائـر أخـرى ارتأيت الاختصار فيها.

حقائق عالم الوجود، تجليات للحقيقة المطلقة

الآن تنبهت لهذا الأمر، إعلم أن الملك قائم على الملكوت والملكوت قائم على الجبروت والجبروت قائم على الحق سبحانه وتعالى و(هو الحي القيوم).

ثم أن الطريق إلى الحق يبدأ من الباطن، وكل موجود سواء كبيراً كان أم صغيراً، مجرَّة كانت أم بعوضة يشهد عفوياً من باطنه (وهو ملكوته) الانبعاث والهياج ليعثر في النهاية على ضالته. فلنتقضَ عيناً تبصر الملكوت من جهة ومن خلالها تنظر إلى الله. ألم تسمع قوله تعالى:-

﴿قل من بيده ملكوت كل شيء﴾.(١)

فإن حظيت بمثل هذه العين اهتديت إلى درب السعادة. وإلا فإنك ستخلد هاهنا، حيث قال الحق:-

تعلم أن لفظة «الدنيا» تأتي من «الدني» أي الحطة، وقد التفت في

---

١ - سورة المؤمنون، الآية ٨٨.

الدوائر إلى أن أدنى مرحلة من المعرفة الربوبية تتعلق بدائرة عالم الشهود حيث تتمتع بها حتى الحيوانات.

فيا ايها الكريم، طريقنا هذا يلزمه عين تبصر الغيب وقد قال عز وجل:-

﴿والذين يؤمنون بالغيب و... أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون﴾.[1]

ونقرأ عن النبي الكريم ﷺ قوله:-

«اللهم أرنا الأشياء كما هي».

إذاً، إجهد لتحدد وجهتك نحو «الملكوت» وتزيح حجاب عالم «الملك». فعالم الملك صفحة ملونة سرعان ما تفقد ألوانها الزاهية وبهرجها الجميل فتغرق في عتمة داكنة. ورؤية الملكوت لشديدة الحلاوة. وكل شيء يتميز هنالك بشفافية بحتة. لا تتمثل بالفأرة تزحف نحو مخبئها وتداعب التربة، بل بالصقر فافتح جناحيك وحلق نحو سماء الملكوت.

واعلم أن الملكوت سمي «عالم الأمر» أيضاً. وملكوتك هي روحك بالذات وهي المتأتية من «عالم أمر الله».

﴿يسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي﴾.[2]

ويسمى عالم «الشهود» عالم الخلق وعالم الملك أيضاً بحسب الآية:-

---

١ - سورة البقرة، الآية ٣.

٢ - سورة الإسراء، الآية ٨٥.

﴿إلا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين﴾.[١]

فالانكشاف والظهور بدأ، كما التفتَ، من ساحة كبريائه فكان الظهور من هذا السلم وعودة الجميع وانجلاؤهم ينفذ من هذا السلم أيضاً:-

﴿ولله غيب السماوات والأرض، وإليه يرجع الأمر كله﴾.[٢]

إذاً، اطلق جناحيك وحلق في الملك نحو الغيب وهو الملكوت، ومن ذاك الغيب والأمر نحو الجبروت والذات:-

﴿يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج إليه﴾.[٣]

وأمر آخر يترتب عليك أن تعرفه هو أن ملكوت السماء هي الدنيا وجبروت السماء هي الملكوت، وعرش الله قد تربع على جميع هذه السماوات وليس هنالك من طريق ينفذ إلى هذه السماوات إلا النفوس الزكية والمؤمنة.

﴿إن الذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها لا تفتح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط﴾.[٤]

واعلم أنه كما تهطل أمطار النعمة من هذه السماء، فتلك السماء هي الأخرى ترفدنا بإمطار الرحمة.

---

١ – سورة الاعراف، الآية ٥٤.

٢ – سورة هود، الآية ١٢٣.

٣ – سورة السجدة، الآية ٥.

٤ – سورة الأعراف، الآية ٣٩.

﴿وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم﴾.[١]

فثمرة هذه الأمطار تنمي الجسم وثمرة تلك تنمي النفس. ألم تقرأ عن صادق آل محمد عليه السلام في تفسيره للآية:-

﴿وألَّو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقاً﴾،[٢] أوضح مفهوم الماء بأنه «المعرفة».

والأمل يشدنا أن تسقي شجرة نفسك التي ترفع هامتها، بالفعل في هذه الدنيا بمثل هذا الماء فتنمو حتى تنشر أغصانها في سماوات الملكوت والجبروت:-

﴿كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء﴾.[٣]

لا تودِع نفسك في زنزانة الملك فإنها سلطان الملكوت.

فنزول جبرائيل على قلب محمد صلى الله عليه وآله وسلم وايحاء القرآن إليه كلها من اشعاعات عالم الأمر:-

﴿ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده﴾.[٤]

وهكذا نزول السكينة والطمأنينة على قلب الرسول صلى الله عليه وآله وسلم والمؤمنين:-

---

١ - سورة البقرة، الآية ٢٢.

٢ - سورة الجن، الآية ١٦.

٣ - سورة ابراهيم، الآية ٢٤.

٤ - سورة النحل، الآية ٢.

﴿فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين﴾.[١]

أضف إلى معلوماتك ان الزمان لا أثر له في عالم المجردات، فعامل الزمان يتعلق بعالم الشهود والملك. الزمان زائل تماماً في الملكوت وعالم الأمر والجبروت:-

﴿وما أمرنا إلا واحدة كلمح البصر﴾.[٢]

أسمعناك أن منطلق النفس ومنشأ ظهورها هو عالم الأمر فلا حاجة لها، إذاً، بالزمان لتبلورها خلافاً للجسم:-

﴿لقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين. ثم جعلناه نطفة في قرار مكين. ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاماً فكسوناً العظام لحماً﴾.[٣]

هنا كل شيء محكوم بعامل الزمان ولكن الزمان يفقد أثره في عالم الأمر:-

﴿هو الذي خلق السماوات والأرض، في ستة أيام﴾.[٤]

فكل شيء في الملكوت يتطبع بالشفافية وتحكمه الوحدة، ولكنه ما أن يتجلى حتى تظهر فيه الكثرة.

وعالم الكثرة عالم الظلمات، ولكنك عندما تشرف على الملكوت

---

١ - سورة الفتح، الآية ٢٦.

٢ - سورة القمر، الآية ٥٠.

٣ - سورة المؤمنون،الآيات ١٢ - ١٤.

٤ - سورة الحديد، الآية ٤.

تراه عالم النور. وأنت تلاحظ ان الحق سبحانه وتعالى يذكر تلك (الظلمات) جمعاً وهذا (عالم الملكوت) مفرداً.

﴿يخرجهم من الظلمات الى النور﴾.[١]

ثم أنك رأيت أن هذه الدوائر خلافاً للدوائر الهندسية تميزها إحاطة المركز بمحيطها لا المحيط بمركزها. لأن الوجود يبدأ من المركز. ولتستوعب ما أقول إلق حصاة في ماء ساكن وانظر إلى ما يتكون فيه من دوائر جراء سقوط الحصاة.

فاعلم ان كل ما وجد إنما انطلق وجوده من نفس نقطة «التوحيد» بالذات فوجوده أزلي صمد.

نأمل أن تخترق اشعاعات رؤيتك عالم الملك فتنفذ حتى عالم الذات -وهو مركز عالم الوجود- دون توقف في أية محطة ومنزل. لتثق ان جميع التحولات والقوى وكل ما يشهد المجيء والرواح، كلها أوامر تصدر من ذلك المركز.

هنالك دار السلام التي دعي إليها جميع الأنبياء والمرسلين عليهم السلام:-

﴿والله يدعو إلى دار السلام ويهدي من يشاء إلى صراط مستقيم﴾.[٢]

وهذا النور المنطلق من ذلك المركز عمَّ جميع الأرجاء وأنت تعلم أن الضوء ينتشر في إشعاعات مستقيمة. وإن كانت اللهفة تشدك لاختراق عالم الملك وصولاً إلى المركز، فلا بد أن تلزم نفسك في

---

١ – سورة البقرة، الآية ٢٥٧.

٢ – سورة يونس، الآية ٢٥.

سيرك بمثل هذا الاتجاه متضرعاً إلى الله أن يوفقك لسلوك هذا الطريق. ولتعلم مصدر كل ما يلوحك وتحصل عليه، إقرأ معي:-

﴿قل من يرزقكم من السماء والأرض أمّن يملك السمع والأبصار ومن يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي، ومن يُدبّر الأمر فيقولون الله فقل أفلا تتقون. فذلكم الله ربكم الحق فماذا بعد الحق إلا الضلال فأنّى تصرفون﴾.(١)

أمهلني أسمعك نغمة من ديوان للشاعر مولوي لتستهل خطواتك نحو الملكوت طرباً.. فإن ازيح هذا الستار عن مقلتيك، وكشف لك عن سر الملكوت فتهانينا بالوصال:-

آن سر اصلى نهان، وفي سر فرعى عيان
دانک پس از این جهان عالم بى منتهاست(٢)

وفي سورة النور تقرأ أن الله نور السماوات والأرض، نور يتلألأ من مصباح في مشكاة والمشكاة في قلب شجرة زيتون. غطاء فوقه غطاء والطرق لإزاحة كل هذه الأغطية، مثلما أدركت، هي هيجاني أنا

---

١ - سورة يونس، الآيتان ٣١ و٣٢.

٢ - معناه:

- «ذاك الرأس الأصلي خفي وهذا الرأس الفرعي جلي، فاعلم ان الكون ما وراء هذا العالم كون لا حدود له».

وهيجانك أنت وطلبنا والتماسنا. فمادمت متمسكاً بعروة هذه البوابة تطرقها سوف تجد في النهاية من يطل عليك منها. ولكن كيف لقلوب كانت مهبط الوساوس الشيطانية أن تتطلع إلى ملكوت الرحمن.

أمعن فيما يقول خاتم الأنبياء والرسل ﷺ:-

«لولا أن الشياطين يحومون حول قلوب بني آدم لرأوا ملكوت السماوات والأرض».

وفي كتاب «الانسان الكامل»، يروي عزيز النسفي حديثاً عن الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام، جاء فيه:-

«إن الله تعالى خلق المُلك على مِثال ملكوته وأسس ملكوته على مِثال جبروته ليستدل بملكه على ملكوته وبملكوته على جبروته».

ايها العزيز! تطلعت لأول مرة إلى الملك متقصياً، فإن شهدوا لك بكتمان الأسرار، عندئذ يتوجب عليك الفناء إثر هذا الانكشاف لتحيا حياة جديدة، وتنظر بعين جديدة، ويؤذن لك بالنظر في الملكوت حيث قال النبي عيسى ابن مريم عليه السلام:-

«لن يلج ملكوت السماوات من لم يولد مرتين».

ونفس المضمون يعرض له النبي عيسى عليه السلام في موقع آخر وهو يحادث الحواريين حيث قال:-

«كونوا كالحية».

في تفسير هذا الحديث قال البعض أن الحية تفقد باصرتها تدريجياً وهي في جلدها القديم وتبدأ مع إطلالة الربيع إلقاء جلدها ولما تنسلخ

تماماً عن جلدها القديم ينبعث في عينيها نور جديد.

وانطلاقاً من هذا التشبيه قال أبو يزيد البسطامي بأنه انسلخ من جلده كما تنسلخ الحية من جلدها.

ويقول الفيلسوف الكبير صدر المتألهين في الأسفار: «معرفة النفس مفتاح خزائن الملكوت». إذاً، عليك ان تلتفت أولاً لملكوتك وهي نفسك بالذات. فبمثل هذا المفتاح لك أن تشرف على ملكوت العالم، شريطة أن لا يشغلك عالم الطبيعة الخارجية والباطنية أي بتعبير آخر الآفاق والأجسام (وميولها النفسانية) بحيث تتخلف عن رؤية الملكوت. جاء في الفتوحات المكية:

«ولا تجعل طبيعتك حاكمة على حياتك الإلهية».[١]

فأنت إن استوعبت عظمة ذلك العالم استصغرت شأن عالم الطبيعة وأدركت مفهوم:

«جنة عرضها كعرض السماوات والأرض».

وقد قال الإمام علي عليه السلام:-

«إن من حقّ من عظم جلال الله (سبحانه) في نفسه، وجل موضعه في قلبه أن يصغر عنده كل ما سواه».[٢]

ومهما ازداد ولعك وولهك بعالم الملك يتعمق يقينك بأن عالم الشهود مزرعة صغيرة ترتوي من الملكوت. فإن حجب ذلك النور عن

---

١ ـ الفتوحات المكية، الباب ٦٨.

٢ - نهج البلاغة، الخطبة ٢١٦.

هذه المزرعة لا يبقى لها سوى الظلمات، ولا تجد فيها إلا بيداء قاحلة.

وكل حسن جزئي أو فعل بسيط يشهده عالم الشهود، وجهتها جميعاً إلى الملكوت، حيث أن «بحول الله وقوته أقوم وأقعد» و«الحمد لله رب العالمين» ما هي إلا إشارات لذلك. ولما كان الأمر هكذا، فأنىّ لخوارق الأعمال وبدائعها أن تجد لها محلاً من الإعراب؟

في كتاب له كتبه لسهل بن حنيف قال الإمام علي عليه السلام:-

«والله ما قلعت باب خيبر ورَميت به خلف ظَهري أربعين ذراعاً بقوة جسدية ولا حركة غذائية. لكني أيدت بقوة ملكوتية ونفس بنور ربها مضيئة».[1]

هكذا يوجه المقربون أنظارهم إلى الأعلى فيكسبون أوامرهم من هناك فقد انكشفت لهم أسرار خاصة:

﴿يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون﴾.[2]

ايها العزيز! الملك تراه بعين رأسك والملكوت بعين قلبك، فالملك من عالم الخلق وهكذا العين، والملكوت من عالم الأمر والقلب كذلك. فإن اكتفيت بعالم الشهود وتخلفت عن النظر في عالم الأمر فكأنك جنين مجهوض عجز عن رؤية عالم الشهود، ولما كان الإجهاض مصيره لم تقع عينه على عالم الشهود قط فاقتنع بحياته في الرحم الأظلم. كن تواقاً لرؤية عالم الأمر»:-

---

١ - بحار الأنوار، المجلد ٢١، ص٢٦، الباب ٢٢، غزوة خيبر وفدك، الحديث ٢٥.

٢ - سورة النحل، الآية ٥٠.

﴿ألا له الخلق والأمر﴾.[١]

لا تقتنع وتكتفي كالبهائم بهذا العالم فتشغل باصرتك بعيداً عن عالم الأمر، ردد:

«كيف أؤمّل سواك والخلق والأمر لك».[٢]

و:

«سبحان ذي الملك والملكوت، سبحان ذي العزة والجبروت».[٣]

---

١ - سورة الأعراف، الآية ٥٤.

٢ - مناجاة الراجين.

٣ - دعاء العشرات.

كتاب «الانسان الكامل» والعوالم الثلاثة

ما أروع كلام عزيز النسفي في كتابه «الإنسان الكامل» دعني أنقل لك جزءاً يسيراً منه بالنص الكامل:-

«اعلم، اعزّك الله في الدارين أن العالم هو اسم الجواهر والأعراض. حيث يقال لمجموع الجواهر والأعراض «العالم». فلما عرفت معنى «العالم»، فاعلم الآن ان العالم وهو مخلوق من المخلوقات له وجود خارجي. وهو في المرحلة الأولى (يتكون) من قسمين: عالم المُلك وعالم الملكوت، أي العالم المحسوس والعالم المعقول. ولكن.. هذان العالمان وبحسب الأوصاف والاعتبارات، يسميان بأسامٍ مختلفة: عالم المُلك وعالم الملكوت، أو عالم الخلق وعالم الأمر، أو عالم الشهادة وعالم الغيب، العالم الظلماني والعالم النوراني، العالم المحسوس والعالم المعقول. ولا يراد بكل هذه (التسميات) إلا نفس هذين العالمين.

وعالم الجبروت هو غير عالمي الملك والملكوت. من حيث ان عالم الجبروت ليس له وجود خارجي. فالملك والملكوت والجبروت

إنما هي عوالم ثلاثة وثلاثتها هي عوالم الله.. ثلاثتها مترافقة، لا تنفك عن بعض. فعالم الجبروت هو ذات عالمي الملك والملكوت وعـالما الملك والملكوت هما وجه عالم الجبروت. وعالم الجبروت هو كتاب موجز بينما عالما الملك والملكوت كتابان مفصلان.. عالم الجـبروت حَبّة وعالما الملك والملكوت شجرة.. والمعادن والنباتات والحيوانات هي ثمار هذه الشجرة.

ولما تعرفت على عالم الجبروت وعرفت أنه ذات العالم، اعلم الآن ان عالم الجبروت كان يريد ذاتاً ليرى في مرآته جماله ويشاهد فـيها صفاته. ولهذا تجلى وبرز من العالم الموجز إلى العالم المفصل فتكوّن من ذلك التجلي مخلوقات: أحدهما من نور والآخر من الظلام. فصار الظلام قريناً للنور لكـون الظـلام حـافظاً وجـامعاً للـنور ومشكـاته ووقايته.

فلتستوعبنَّ أمراً دون تلكؤ وهو ان الملكوت بحر النـور والمُـلك بحر الظلام، وبحر النور هذا هو ماء الحياة وباب الظلام. ثـم ان بـحر النور هذا هو نسبي قياساً لبحر الظلام...

فعالم الملكوت إنما هو إزاء عالم الملك، لطيف.. وعالم الجـبروت إزاء عالم الملكوت، لطيف لطيف.. والله إزاء عـالم الجـبروت لطـيف لطيف لطيف.. هذا هو معنى اسم «اللطيف» للحق تعالى..»

«عالم الخلق مظهر الصفات»

عرفت الآن أن الصفات تميز بأصالتها وتجريدها، وظهورها غير ممكن إلا في عالم الشهود وأن الموصوف الحقيقي الذي تمثل الصفة نفس ذاته يتجلى من وراء كل من هذه الصفات:

إن لكل ظاهر باطناً على مثاله».[1]

وأنت لو أردت أن تنظر إلى الله فليس أمامك مرآة سوى الآفاق والأنفس، ومرد ذلك هو أن:-

﴿كل يعمل على شاكلته﴾.[2]

ولكن تنبه إلى أن الأصل في ظهور الصفات هو المُسبب لا الأسباب. فالمُسبب قائم لا يزول بزوال أي من الأسباب.

ولما كانت هذه الأسباب جميعاً من عالم الشهود، وأنت تعلم أن لا أصالة لهذا العالم وكل ما فيه يلعب دوره كعرائس المسارح بينما تستند

---

١ - نهج البلاغة.

٢ - سورة الإسراء، الآية ٨٤.

في ما وراء الكواليس إلى عالم الغيب. أنصت إلى القرآن يتحدث:-

﴿قل من رب السماوات والأرض قل الله، قل افاتخذتم من دونه أولياء لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً، قل هل يستوي الأعمى والبصير أم هل تستوي الظلمات والنور أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم، قل الله خالق كل شيء وهو الواحد القهار﴾.(١)

انك لن تقول بعد هذا: الرياح أتت بالغمام والغمام بالمطر والمطر أنمى الحب والشجر. لن تقول الشفاء بيد الطبيب والعقدة تحلها اليد والمفاتيح تفتح لك الأقفال. لن تقول ازددت رزقاً وأنا مع زيد، وبصحبة عمرو صار تنفيذ العمل الفلاني ممكناً.. بل تقول كانت كلها بحول الله وقوته لا غير. فأنت مهما تماديت في تقصي الأسباب في عالم الامكان، ولكنك تتيقن بأن الأسباب يسقط أثرها فيما يتعلق بالقلب.

أخبرني ما هو دورنا في زراعة أي محصول؟

﴿أفرأيتم ما تحرثون. ءأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون﴾.(٢)

فمن يا ترى سوّى هذه الأرض وهيأها للزراعة؟:-

﴿وإلى الأرض كيف سطحت﴾.(٣)

ومن رفع هامة الجبال لتنحدر منها المياه نحو الأرض المستوية

---

١ - سورة الرعد، الآية ١٦.

٢ - سورة الواقعة، الآيتان ٦٣ و ٦٤.

٣ - سورة الغاشية، الآية ٢٠.

فتجري فيها؟:

﴿وإلى الجبال كيف نصبت﴾.[١]

ومن ساق الغيوم نحو السماء؟:

﴿والسماء ذات الرجع﴾.[٢]

ومن منح الأرض استعدادها للحرث واستقبال البذور واحتضانها؟:

﴿والأرض ذات الصدع﴾.[٣]

أنت تزرع البذور فتودعها في أحشاء التربة ثم تنشغل ببقية أمورك، من يرعاها حتى ترسل جذورها إلى أعماق الأرض وسيقانها نحو الأعلى؟ من يفلق هذه الحبوب؟:-

﴿إن الله فالق الحب والنوى﴾.[٤]

وأنت إذ تسقي زراعتك أما من المطر مباشرة أو من مصادر وفّرت الأمطار مياهها من ذي قبل، فهل كنت صاحب أي دخل في نزول تلك الأمطار أو ادخار مياهها في هذه المصادر؟:-

﴿ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فسلكه ينابيع في الأرض ثم يخرج به زرعاً مختلفاً ألوانه﴾.[٥]

---

١ – سورة الغاشية، الآية ١٩.

٢ – سورة الطارق، الآية ١١.

٣ – سورة الطارق، الآية ١٢.

٤ – سورة الأنعام، الآية ٩٥.

٥ – سورة الزمر، الآية ٢١.

إنها يد ربوبيته التي تسيّر جميع الأمور والأعمال، فينتج الحب من تلاقح الأزهار (ذكورها وإناثها) حتى يبلغ بها الأمر أن تستقر على مائدتك يوماً:-

﴿ألم يروا إلى الأرض كم أنبتنا فيها من كل زوج كريم﴾.[١]

والملفت أنه لاستثارة العقل يتساءل: إن كانت هذه الأمور تسير بإرادتكم، فلماذا تفسد زراعتكم في بعض السنوات؟ لم لا تستدرجون الأمطار في سنين شحتها؟ ولم لا تكفون أنفسكم شر الآفات والسموم؟

﴿لو نشاء لجعلناه حُطاماً فظلتم تفكهون﴾.[٢]

ايها العزيز! اكتفينا بالكلام عن الزراعة والمزروعات، فحديثنا سوف يطول إن اردنا استزادة الأمثلة. ومن الأنسب أن تفكر الآن أي الأعمال تخرج إلى النور لولا نيلها التوفيق من الملكوت. فهذا القمح بالذات نحصده ونطبخه ونأكله وبعد مضغه في أفواهنا يتحول الى دم أو طاقة لملياردات الخلايا في أبداننا، ما كانَ دورنا في انتاجها؟

أنت لما تترك الأسباب وتبلغ بالنظر إليها «مسبب الأسباب»، تتجلى لك عظمته بقدر يمحي الأسباب تماماً في نظرك. ولتتوثق أن مثل هذا الكلام لم يأخذ به الأئمة فقط، إصغ إلى بعض العبارات التي ذكرها غيرهم:-

قال أبو طبيب السامري:

---

١ - سورة الشعراء، الآية ٧.

٢ - سورة الواقعة، الآية ٦٥.

«المعرفة طلوع الحق على الأسرار بمواصلة الأنوار».

وعن أبي محمد الحريري:

«بصفو العبودية تُنال الحرية، وبالحرية ينال التجلي والرؤية».

إنك مُلزم بالإنطلاق تاركاً عالم الحس، لتخوض غمار هذا المسار بعقلك. فهذا ما أراده الله منك:-

﴿أولم ينظروا في ملكوت السماوات والأرض﴾.[١]

وقد وصف عز وجل قدرة ملكوته بنفسه في قوله تعالى:-

﴿فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء وإليه تُرجعون﴾.[٢]

لا تنس أن من المفاخر التي نالها النبي ابراهيم‪عليه السلام‬ هو نظره في ملكوت العالم:-

﴿وكذلك نري إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين﴾.[٣]

عسى أن يكفيك هذا القدر من الكلام لتتنبه الى أن الأصالة ليس لعالم الشهود، فهنالك يد تسيّر الأمور من وراء الستار. إجهد حتى تتعرف على تلك اليد.

الآن وقد بلغنا هذه المرحلة، أرفقني نسير في الآفاق وننظر إلى جميع جوانبها كل على انفراد، فترى الله تعالى من خلالها.

---

١ - سورة الأعراف، الآية ١٨٥.

٢ - سورة يس، الآية ٨٣.

٣ - سورة الأنعام، الآية ٧٥.

«السير في الآفاق»

﴿سنريهم آياتنا في الآفاق... حتى يتبين لهم أنه الحق﴾.[1]

وأنا أعتزم أن أفتح أبواب الآفاق على مصراعيها أمامك، إسمح لي أن أتقدم لك بالعذر بادئاً إن بدا مني قصور في هذه المهمة، فلست صاحب اختصاص في ذلك ولا متمرساً فيما نعرض له معاً.

صدقني لا أعرف من أين أبدأ ومتى يتسنى لي الفراغ من ذلك.

فإلى أي مدى تكشف الطبيعة عن نفسها لمجال معرفتنا؟ وما هي حدود معرفتنا بما نراه امام أعيننا من موجودات؟ وهل لنا سبيل للكشف عن جوانبها العظمى؟ لقد توصلنا لمعرفة الضوء وتحدد لنا طول أمواجه، ولكننا لم نصحبها في رحلتها.

سمعنا عن الشموس والكواكب السماوية إلا أننا لم نقرأ من سجل عملها إلا صفحات. «إشعة الليزر» وسعت آفاق رؤيتنا حتى (١٢) مليارد سنة ضوئية ولكن ما هي أبعاد العالم الحقيقية؟ كم يبلغ عدد

---

١ - سورة فصلت، الآية ٥٣.

المجرات، وكذلك عدد الكواكب في كل مجرة وعدد المخلوقات التي تسكن كل من هذه الكواكب؟ حقاً أتساءل أين علم الإنسان من هذه الأسرار؟

الحالة هذه يشبهها الشاعر مولوي في البيتين:

ايـــن زمـــين و آســـمان يک ســـيب دان

کـــز ظـهور قـدرت حـق شـد عـيان

تو چو يک کرم کرمى ميان سـيب، در

هم ز بـاغ و بـاغبانش کـى خـبر؟[1]

انحدر إلى الأبعاد الصغرى:-

- هل العناصر المكونة لجميع الكواكب هي نفسها المكونة لكوكبنا الأرضي؟

- في هذه العناصر نفسها ماذا يجري فيما تستبطنه ذراتها من خلأ؟

انشتاين يرى أن الخلأ النسبي في داخل الذرات هو أعظم من خلأ المنظومة الشمسية. وهذا الخلأ موجود في الخلايا أيضاً.

- كيف تحيا الكائنات الأحادية الخلايا؟

---

١ - معناهما:

- «إحسب هذه الأرض والسماء (العالم) تفاحة، ظهرت للعيان بفعل تجلي قـدرة الحق».

- «فأنت كدودة تعشعشت وسط التفاحة، أنّى لك أن تعلم أين زرعت ومن زرعها؟».

- هل الموجودات الداخلة في تكوين الموجودات الأكبر تـلتفت بالفعل إلى عدد الخلايا التي تنشأ منها؟

- هل تدرك الأعضاء المتعاضدة، بعضها البعض؟

- هل بامكان بني الإنسان معرفة النفس بالاستناد إلى العلم؟

- هل بمقدور بني الإنسان صنع سكر مثيل لما تصنعه النباتات من الماء وعنصر الكربون والهواء؟

- كيف تفكر الحيوانات بشأن الإنسان؟ وآلاف الاستفسارات الأخرى التي نجزم أنها، على اختلاف العلوم ذات الصلة بها، لا تخلو قطعاً من أجزاء تدخل حيز «لا أدري» لا سيما فيالعلوم الطبيعية التي مازلنا نعاني من عجز شديد في مجال معرفتها.. حسناً، لا مناص لنا إلا أن نتصفح الجزء المكشوف عنه في هذا السجل ونودع مهمة إماطة اللثام عن أسرار المجهولات إلى الأجيال القادمة. فكما قال الشاعر مولوي:-

آب دريـا را اگـر نـتوان كشـيد

هم بـه قـدر تشـنگى بـايد چشـيد[1]

---

١ - جاء ايضاح لمعناه في الصفحات السابقة.

يا قائم

ليس هنالك من يعلم كم هو عدد الكواكب السماوية. إلا أنه من المسلم به بحسب قانون الجاذبية العامة لنيوتن أنها جميعاً تسبح في مدارها بخفة تتأتى من توازن قوى الجاذبية المفروضة عليها.

فالكرة الأرضية تتحرك ضمن مدارها وهي أخف من الورقة ولكنها لو تخرج من هذا المدار وتقترب من الكواكب الأخرى تُحدث انفجاراً قد يحوّل كلا الكوكبين إلى رماد. وبالنظر لعدم ثبوت أي من الكواكب في الفضاء وخضوعها كلها للحركة في مسارات مختلفة بما تؤكده الآية الشريفة:-

﴿كلٌ في فلك يسبحون﴾.[1]

فمن هو سائق دورة الخلق العظيمة هذه؟ ومن يشرف على حركتها وتنظيم مسيرتها؟ تعمق في تفكيرك، فهل لمثل هذه الأمور الجليلة أن تسير اعتباطياً دون أن يكون لها قائم يدبر شؤونها؟!

---

١ - سورة الأنبياء، الآية ٣٣.

﴿لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون﴾.[١]

فمن ينظم هذه الحركة المرورية المزدحمة التي لا تشهد قط أي توقف وتريث. ومن أين لها مثل هذا النظام الدقيق؟

﴿ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه، إن الله بالناس لرؤوف رحيم﴾.[٢]

الجميع منصاعون لحكمته يُسيّرون شؤونهم بأوامره منذ ملياردات السنين:-

﴿ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره﴾.[٣] كأن قوة الجاذبية هذه هي ميزان فيزيائي دقيق يأخذ بالحساب وزن جميع الكواكب ويستقر مؤشره دوماً على نقطة الصفر:-

﴿والسماء رفعها ووضع الميزان﴾.[٤] سقف مرفوع دون أن يستند إلى أي عمود:-

﴿خلق السماوات بغير عمد ترونها﴾.[٥]

والملفت أنّ الأرض لو كانت متكوّنة من التراب فقط لكان

---

١ - سورة يس، الآية ٤٠.

٢ - سورة الحج، الآية ٦٥.

٣ - سورة الروم، الآية ٢٥.

٤ - سورة الرحمن، الآية ٧.

٥ - سورة لقمان، الآية ١٠.

بالإمكان سحبها من قبل بقية الكواكب أو انجذاب قطع منها نحو السماء. وهنا تلعب الجبال دوراً في غاية الأهمية في تثبيت قطع الأرض:-

﴿وألقى في الأرض رواسي أن تميد بكم﴾.(١)

كأن هذه الجبال، التي تعمقت جذورها حتى بلغت أعماق الأرض، أوتاداً تربط قطع الأرض ببعضها.

﴿والجبال أوتاداً﴾.(٢)

تتواجد في الفضاء أحجار تائهة ترد جوَّ الكرة الأرضية، أحياناً، عددها غير قليل. ولكنها ما أن ترد الجوَّ حتى تحترق وتتناثر تماماً رغم سرعتها الفائقة. ولا يتبقى منها ما يصل الأرض إلا نادراً جداً في حالات استثنائية. وهي ما نسميها «الشهب السماوية» فلولا هذا القانون السديد لكانت هذه الأحجار مدعاة تعرض الأرض لخطر جاد. فاسمع من القائم بالأمر:-

﴿وجعلنا السماء سقفاً محفوظاً﴾.(٣)

فلولا هذا النظام وهذه الرقابة، لكانت المدن وجميع بقاع الأرض على امتداد الخط عرضة للقصف السماوي:-

﴿إن نشأ نخسف بهم الأرض أو نسقط عليهم كسفاً من السماء، إنّ في ذلك

١- سورة لقمان، الآية ١٠.

٢- سورة النبأ، الآية ٧.

٣- سورة الأنبياء، الآية ٣٢.

لآية لكل عبد منيب﴾.[١]

فلو ارتأيت العودة إلى المُسبب من خلال هذه الأسـباب، فـتوكل على الله لنصوب بصرنا نحو اسم «القائم» بهذا النـظام الدائـمي فـي جميع هذه الآيات. فالله يتجلى فيها بهذه الأسماء.

١ - سورة سبأ، الآية ٩.

«يا عالم»

ليس هنالك أي موجود لا يتجلى فيه اسم «العالم». فأي منها لا يخلو من مظاهر العلم. وكنت قد حدثتك أن العلم الإنساني ينطوي أساساً على الكشف عن أسرار عالم الوجود. إذاً، كل ما أحرزناه انتهلناه من هذا البحر الفياض. فكل ما تراه أما يكون جماداً أو نباتاً أو حيواناً. وجميع سجلات الفيزياء والكيمياء ترتبط بعالم الجمادات. فهل تعلم كم هي الطاقة الذرية الكامنة في كل ذرة؟ إلى أين ذهبت معلوماتك في عالم الالكترون والبروتون؟ وماذا عن الخلايا؟

قال الشاعر سعدي الشيرازي فيما أمكنه العلم في عصره:-

برگ درختان سبز در نظر هوشيار

هر ورقش دفترى است معرفت كردگار[1]

---

١ - معناه:

- «كل ورقة خضراء من أوراق الأشجار تمثل في رأي الحاذق، سجل في معرفة الخالق».

وفي رأي علماء اليوم يمثل كل مـن خـلايا تـلك الاوراق سـجلاً معرفياً زاخراً. فأنت إن نظرت إلى ورقـة شـجرة مـا تـحت المـجهر تكشف فيها عالماً سحرياً بحد ذاته.

فكيف الحال ونحن نواجه كل هذه الأنواع من النباتات؟

أما عالم الأحياء فنحن في غنى عن الكلام فيه. فكل جـهاز فـي جسم أي من الأحياء يتضمن مؤلفات في العلم، لا أرى بـنا حـاجة للحديث فيها. فأنت لا تنظر إلى أية ذرة في عالم الوجود، إلا تهديك إلى علم خالقها. تمعن ثم أملِ النظر ثانية، فهل ترى في خلق أي من الموجودات نقصاً أو عيباً؟:

﴿فارجع البصر هل ترى من فطور؟﴾.[1]

تنبهت إلى الآن أنك بدورك تمثل علم الله، واطلاعاتك هي من علم الله أيضاً. إذاً، انظر إلى الله بالله.

لك أن تلتفت إلى إشارة بديعة أخرى أيضاً. فإضافة إلى تلويح كل موجود إلى علم كان له شأن في خلقه فإن أي كائن حي، نباتاً كان أم حيواناً، له علم يوجهه في كل من أعماله: في اكـله، شـربه، تـنفسه، امتصاص ما ينفعه ولفظ ما يضره. كلها عمليات تشهد أن هنالك علماً يوجهها على مر اللحظات سمي «الهداية التكوينية» وهي من علم الله ليس إلا:-

---

١ - سورة الملك، الآية ٣.

﴿ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى﴾.[١]

إنك تواجه عالماً متعاضد الأجزاء. السماء تخدم الأرض، النباتات تخدم الحيوانات، والحيوانات تخدم النباتات. هذا يصنع الاوكسجين ويحتاج إلى الكاربون وذاك يطرح الكاربون ويستهلك الاوكسجين. هذا يثمر الحب والفواكه للآخر والآخر يرعى الأول وينميه. الأجزاء التالفة من جسم هذا يطعم منه غيره، وما يطرحه ذاك من فضلات، هو غذاء عضو ثالث من المنظومة. تأمل جسمك: قلبك يخدم رئتيك ورئتاك تخدمان القلب والكليتان تعينان القلب والرئتين. وخلايا أي من الأعضاء تعمل بمعزل عن بعض، لا علم لها بعمل غيرها ولا معرفة لها بها ولكن عملها جميعاً يتحكم به علم سديد. فمن هو العالم المؤثر المسيّر لها؟ لست أنت بالطبع، فأنت تجهل ما يجري بينها. فكّر مليّاً: هل يمكن تصور مثل هذه الأعمال البديعة دون وجود عالِم يتحكم بها؟!:

﴿تعالى عما يصفون﴾.[٢]

---

١ - سورة طه، الآية ٥٠.

٢ - سورة الأنعام، الآية ١٠٠.

«يا أحد»

إنه واحد لا شريك له ولا كفؤ. تجليات مثل هذا الاسم تظهر عند جميع الموجودات. فمع تشابه الموجودات وتماثلها تقريباً، ولكنك لا تعثر في الوجود بأسره على موجود يتماثل تماماً مع آخر.

لك في الرَقّي مثال. فالرقي محصول ترزق به على مر السنين ولو كان بالإمكان، على سبيل المثال، الاحتفاظ بواحدة منها فنقارنها مع محصول الرقي في جميع بقاع العالم واحدة واحدة: وزناً ولوناً وشكلاً وطولاً وعرضاً وفي نمط الخطوط وعدد النوى، وعلى مدى التاريخ فإننا لا نجد بالطبع مثيلاً لها.

انظر في نفسك، فأنت تعلم أن خلايا أصابع يدك وخطوطها لا مثيل لها في العالم بأسره وهذا ما كشف عنه فأثمر بالتالي علم بصمات الأصابع. والملفت أنه حتى عند تلاشي جلد وبشرة الأصابع ونمو آخر بدلاً عنه لا يغير من خصائص بصماتها مما آل بأحد العلماء الغربيين إلى اعتناق الدين الإسلامي بمجرد قراءته الآية:-

﴿بلى قادرين على أن نسوي بنانه﴾.[١]

ثم صرح: «إن لم يكن القرآن وحياً، فكيف يضرب أدق قضايا الخلق مثالاً لإحياء الناس».

ترى أن بني الانسان خلقوا جميعاً منذ أولهم وحتى آخرهم بخصائص موحدة ولكن لم يتماثل تماماً، وعلى مر التاريخ، حتى اثنين منهم، أي لا يُعثر على مثيل لك تماماً، لا على امتداد الزمن تاريخياً ولا جغرافياً في المساحة الحالية للعالم بأسره، بين سكانها البالغين أكثر من (٥) ملياردات نسمة.

أنت تتحدث بلغة ينطق بها الملايين ولكنك، في أسلوب كلامك، لا تتماثل تماماً مع أي منهم. فعندما يتناهى إليك صوت شخص ما مرة واحدة ثم تسمع نفس الصوت من المذياع، مثلاً، تتعرف على صاحبه وإن كنت لا تراه.

الجميع يسيرون على قدمين دون أن تتماثل طريقة مشي حتى شخصين فقط مع بعض.

الناطقون بأية لغة كلهم يكتبون بلغتهم ولكن لا تجد حتى سطرين قد كتبا بنفس الشكل تماماً. وهذه قاعدة عامة تعمم على جميع مخلوقات الله. فالدلب (الصنار)، التروند، السرو، التوت كلها أشجار تنمو في العالم الملايين من كل منها، ولكن هيهات أن تجد اثنين منها تتطابق في جميع خصائصهما مع بعض.. وهذا هو مضمون قول العرفاء

---

١ - سورة القيامة، الآية ٤.

بأنه لا تكرار في مظاهر تجلي الله:-

«لا يتجلى في صورة مرتين ولا يتجلى في صورة الاثنين».

قال تعالى:-

﴿قل الله خالق كل شيء وهو الواحد القهار﴾.[١]

على هذا، تنبهت إلى أن كل من الموجودات هو تجل لاسم «الواحد»، وليس من شيء لا يكون مظهراً لهذا الاسم.. ومن حكمة الله سبحانه وتعالى أن يحدد الشرك باعتباره أعلى درجات العصيان.

﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ومن يشرك بالله فقد ضل ضلالاً بعيداً﴾.[٢]

---

١ - سورة الرعد، الآية ١٦.

٢ - سورة النساء، الآية ١١٦.

«يا قادر»

من الأسماء الأخرى التي يتجلى مظهرها مع كل شيء هو «القادر».. التفت إلى تجلي اسم «العالم» مع كل شيْء في عالم الوجود. ولا فائدة للعلم دون القدرة. فجميع طلبة الجامعات يتعلمون طريقة صنع السكر في المختبرات، ولكنهم، للأسف، لا يملكون جميعاً قدرة تأسيس المصانع وتوظيف رؤوس الأموال لصنعه.

فأنت فيم نظرت من منظومة الخالق وانبثقت منه شمس العلم فأشرقت على قلبك، تشاهد إلى جانبه تجلي القدرة الربوبية للخالق. قادر يتواصل رفده وأخذه أبداً دون انقطاع، فهو ﴿المحيي المميت﴾. فلكل حادثٍ، قديمٌ أوجده. فهل في قلبك ارتياب وشك في جلاء ذلك فيما رأيت منذ بداية حياتك؟:-

﴿أو ليس الذي خلق السماوات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى وهو الخلاق العليم﴾[1].

---

١ - سورة يس، الآية ٨١.

قرأت في الآية الآنفة ذكر مفردات الخلق والخلاق إلى جانب مفردتي «القادر» و«العليم»، أي أن الخالق يوحي الى خلقه بأنه قادر وعليم أيضاً.

ثم انه ينوّه إلى هذا العرض الأولي في الكثير من الآيات باعتباره شاهداً لخلقه الأخروي، حيث يقول عز وجل:-

﴿أو لم يروا أن الله الذي خلق السماوات والأرض ولم يعي بخلقهن بقادر على ان يحيي الموتى، بلى إنه على كل شيء قدير﴾.(١)

وفي آية أخرى يقول عز وجل:-

﴿وضرب لنا مثلاً ونسي خلقه قال من يحيي العظام وهي رميم، قل يحيها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم﴾.(٢)

وإن شئت أن تدرك اسم «القادر» و«العليم» في ذاتك عد تسعة أشهر لما قبل ميلادك لترى ماذا كنت وإلى مَ صرت؟:-

﴿ألم يك نطفة من مني يمنى. ثم كان علقة فخلق فسوّى﴾.(٣)

يقول أحد العظام: لم أر في عجائب العالم شيئاً أعظم من موجود دقيق لا يرى حتى بالمجهر إلا بصعوبة يتحول خلال عقدين أو ثلاثة إلى موجود عالم، مستمع، بصير صدرت عنه كل هذه العجائب والغرائب! هذا هو مفهوم القادر.

---

١ - سورة الأحقاف، الآية ٣٣.

٢ - سورة يس، الآيتان ٧٨ و ٧٩.

٣ - سورة القيامة، الآيتان ٣٧ و٣٨.

التفت أنه قادر على العطاء.. فهل التفت إلى أنه قادر على الأخـذ والاستيفاء أيضاً:-

﴿ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم إن الله على كل شيء قدير﴾.[١]

أرواحنا فداء لقدرته التي رفدت الوجود، بكل هذه المخلوقات، من العدم.

أفئدتنا فداء لعزته التي تستدرج جميع المخلوقات فتعيدها ثـانية إلى العدم الجسماني.

ولكن تنبه إلى أن ما يعرض لك من مظاهر قدرته في هذه الدار لا أهمية لها قياساً لما تجده منها في الدار الآخرة:-

﴿وما الحياة الدنيا في الآخرة إلا متاع﴾.[٢]

و﴿فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل﴾.[٣]

والمعرفة التوحيدية لهذه القدرة هي أن لا ترى فـي كـل مـظاهر الوجود قدرة دخيلة سوى قدرته. فبدءاً بتحليق البعوضة وانـتهاءً إلى حركة المجرات كلها تسير بقدرته وتسييرها جميعاً بالنسبة له سيان:-

﴿ألم يروا إلى الطير مسخرات في جو السماء، ما يمسكهن إلا الله﴾.[٤]

---

١ - سورة البقرة، الآية ٢٠.

٢ - سورة الرعد، الآية ٢٦.

٣ - سورة التوبة، الآية ٣٨.

٤ - سورة النحل، الآية ٧٩.

و ﴿ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه﴾.[١]

---

١ – سورة الحج، الآية ٦٥.

«موهبة الإنسان في معرفة الأسماء»

أخبرتك ان الذات منيعة بعيدة عن منال معرفة الإنسان. فما تيسرت له معرفته وصار على اتصال به هي الصفات. ولما كانت هذه الصفات متجلية في الممكنات والماهيات صار تفكيك الموصوف والصفة متعذراً إلى حد ما، حتى صرت تجلس إلى مائدة دون أن تعرف صاحب الدار، وولهت بجمال لم تعرف جميله.. ولكن هنالك في العالم أناس عقدوا العزم لرؤية خالق الكون وعشقوا صانع الحسن أكثر من هيامهم بالحسن نفسه، لأنهم التفتوا إلى مصدر كل هذه التجليات الصفاتية.

وهذه المعرفة هي التي أودعها الخالق تعالى في سلالة الإنسان حيث قال:-

﴿وعلم آدم الأسماء كلها...﴾.[1]

وهذه الموهبة والعطية الالهية هي التي أهَّلت الإنسان ليكون

---

١ - سورة البقرة، الآية ٣١.

مسجود الملائكة حيث توَّجَهُ الله بتاج ﴿وكـرمنا بـني آدم﴾، وجـعله العزيز المقرب لساحة قدسه.

ومع أن هذه المعرفة كانت من قبل الله تعالى ولكنه عز وجل سجل «معرفة الأسماء» باسم الانسان وجعله، بناء على ذلك، سيد السماوات في يوم الاختبار حين أعلن الملائكة جميعهم جهلهم لها:-

﴿ثم عرضهم على الملائكة فقال انبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين. قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا، إنك انت العليم الحكيم. قـال يـا آدم انبئهم بأسمائهم، فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقـل لكـم إنـي أعـلم غـيب السماوات والأرض واعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون﴾.[١]

وأنت أيضاً من سلالة الإنسان ذاته وقد أودعت هذه المعرفة فـي سريرتك. فالإنسان معدن، ويتوجب عليه أن يستخرج ذخائره بنفسه. اكد ذلك نبينا الكريم ﷺ إذ قال:-

«الناس كمعادن الذهب والفضة».

استخرج هذا الذهب الأصيل. لا تتشبهن بالصخرة، فالعمر في زوال. فمعرفة الأسماء لا تقتصر في مصادرها على ما تشاهده في الخارج. فأنت نفسك مرآة واضحة ودقيقة لهذه الأسماء.

واعلم أن علم الأسماء هو مفتاح جميع العطايا والمواهب الالهية. ولما كان جدك قد وُهِب الاستعداد تقبل مسؤولية مفتاح الكنوز هذا، فأنت أيضاً هكذا، فالولد على سر أبيه. وقد قال بعض العرفاء أن معنى

---

١ - سورة البقرة، الآيات ٣١ - ٣٣.

«المؤمن مرآة المؤمن» هو أن العبد المؤمن هو مرآة واضحة ودقيق للحق تعالى. أمعن التفكير في هذا الكلام، فالمؤمن من أسماء الحق تعالى الذي أظهر صفاته في وجود عبده ودعاه لينظر إلى ربه من خلال النظر في نفسه.

«عدد الأسماء»

ربما يتيسر لك فيما يخص أي إنسان أن تحسب صفاته وتـعدّها، ولكن صفات الله سبحانه وتعالى لا عد لها ولا حـصر. فكـل صـفة حميدة تنشأ في الحقيقة منه هو، حيث قال عز من قائل:-

﴿لله الأسماء الحسنى، فادعوه بها﴾.[1]

ولما كان الله، وكما أخبرتك، قد وهب الماهيات من هذه الأسماء على قدر استيعابها وليس هنالك من موجودين يتماثلان تماماً، يكون مـن المـحال تـماثل أي اسـتيعابين. ولك أن تـقول: مـثلما خـرجت المخلوقات عن نطاق العد والحصر، هكذا الأسماء لا يمكن عدها.

ولما لم تكن أحوال الموجودات ثابتة على وضع معين، صارت في كل من أحوالها مظهراً لاسم من الأسماء. من هـنا تـلاحظ أن عـدد الأسماء يبلغ ما لا نهاية له، وهذا هو تفسير:-

---

١ - سورة الأعراف، الآية ١٨٠.

﴿كل يوم هو في شأن﴾.[١]

ففي أول ظهور له تجلى بـاسم النـور حـيث اسـتوعب كـل مـن الماهيات من هذا النور على قدر استيعابها. ومفردة «اليوم» في الآية الشريفة تعني زمان النور المتواصل إلى الأبد.

دعني آتيك بمثال أوضح: الشجرة التي أمام عينيك ترسل جذورها إلى أعماق التربة بهدف امتصاص الماء، وتـطلق أوراقـها فـي الهـواء الطلق طلباً لاجتذاب الكاربون من الجو. جميع الأوراق تحصل على الماء من الأرض. وان قطع جزء من الشجرة أصلح تلفه، كما أنها تنجز مئات العمليات الأخرى المنبثقة من «حقيقة» ما، حقيقة تسميها أنت «العلم»، وهو من المجردات. ومن المسلم به أن ديمومة هذه الشجرة تتوقف على ما يرفق وجودها من العلم.

والشجرة نفسها لها أزهار تضفي عليها زينة، وأوراقها كذلك جميلة. أما الصحراء فإنها مسلوبة الجمال. إنك تحب الحدائق لأنـها تـنطوي على حقيقة أخرى تسميها «الجمال». فتعبر عن هذه الحقيقة بوصفك: للشجرة نصيبها من الجمال.

أنت تسترخي في ظلها، فالشمس تزعج بشرتك. تتكىء إلى جذعها. وهنا تتجلى حقيقة أخرى هي «اللطف» و«اللطافة».

وتعلم أن الشجرة تساهم في تصفية الجو. ولولا النباتات والأشجار لتعرضت حياة الحيوانـات للـزوال. وهـنا تـتجلى حـقيقة «المـطهر»

---

١ - سورة الرحمن، الآية ٢٩.

و«المُزكي».

وكل هذه الانعكاسات هي من مـؤشرات الحـياة. فـلولا انـتساب الشجرة إلى الأحياء، هل كان بالامكان قيامها بهذه العمليات؟ إذاً، لك ان تستوحي اسم «الحي» على هذا الصعيد.

سنوياً تدر الشجرة بما جعله الله مصدراً للرزق بـينما لا تـذوق ولا تستفيد قط من ثمارها. تُرمى بالأحجار، تُكسر سيقانها وتنهب ثمارها وهي لا تكف مع إطلالة كل ربيع عن الازهرار، فتحول لنا ما تستمد من أحشـاء التربة الداكنة، إلى كل هذه الثمار اللذيذة العبقة. هنا تظهر تجليات اسم «الرزاق».

الشجرة تتكون من ملايين الخلايا، خلايا ليست على اطلاع كاف عن بعض. وخلايا السيقان، الأوراق، اللحاء، الجذور، الأزهار، تختلف كلها عن بعض. فمن جمع بين هذه الاعضاء الغير متجانسة؟ هل ترى فيها غير فعل «الجامع»؟ أخشى أن أواصل الكـلام فـتطبق الكـتاب دهشة. ألم تكتف بما أريتك؟ رأيت تجليات العالم، الجميل، اللـطيف، المُطهر، الحي، الرزاق والجـامع. ولك أن تـلتفت إلى مـئات الصـفات الأخرى في نفس هذا الموجود. إذاً، فكر ملياً، كل هذه الأمور ليست من نسج الخيال، لا نتاج التصورات، إنها حقائق. ولكن من أيـن أتت ومن هو ذا الذي يتجلى من وراء هذه الحقائق؟:

﴿ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه الباطل وأن الله هو العلي

الكبير﴾.[١]

اعلم فيما يرتبط بكثرة الأسماء أنه حتى الاسم ذاته تتعدد تجلياته بعدد المخلوقات من أولهم وحتى آخرهم. أنت تقول: انه عالم والعالم وإن لم يكن له غير مفهوم واحد إلا أنه في سياق الكثرة تتجلى المظاهر في كونه عالماً بالحاضر والمستقبل والماضي، عالماً بالظاهر والباطن، عالماً بأوضاع المخلوقات، عالماً بأوضاعهم على قدم وساق، عالماً بجميع فروع العلوم و.... .

وأنت عندما تصفه «الرزاق» فإنه رزاق الأسبقين والحاليين والمستقبليين وبيده رزق الظاهر والباطن، يتحكم برزق النباتات والحيوانات والإنسان والملائكة. فلكل نبات غذاء خاص ولكل حيوان غذاء خاص والانسان هكذا، رزاقها جميعاً الله.

ولما تلتفت إلى اسم «الرب» تجد أن ربوبية جميع الموجودات شأن لا يرقى إليه غيره فهو ﴿رب كل شيء﴾. والآن تمعن لو أنك واصلت هذه الوتيرة فإلى مَ ينتهي بك المقام؟

اعلم أنك لو سرحت في شؤون هذا السر، سوف ترى نفسك امام عالم آخر لا تظهر فيه سوى تجليات الله استوحِ مثل هذا المفهوم من كلام آية الله «حسن زاده آملي» أيضاً:

«الانسان الكامل بحسب تعبير العرفاء هو ذاك الذي يغدو مظهر حقائق الأسماء. والفلاسفة يقولون: الفيلسوف الكامل إمام، فالفلسفة هي العلم

١ - سورة لقمان، الآية ٣٠.

بحقائق الأشياء، والأشياء إنما هي أسماء الغيب. والقرآن الكريم يقول: ﴿علم آدم الأسماء كلها﴾ ﴿وكل شيء أحصيناه في إمام مبين﴾. إذاً القرآن والعرفان والبرهان أمور لا تنفك عن بعضها».

«وجود الأشياء قائم على أسماء الله»

لما التفت إلى مفهوم الاسم، لا بد لك الآن أن تعلم انك كلما صوبت نظرك إلى جانب خاص من أي شيء في العالم، تتجلى لك منه صفة من صفات الله، أي في الواقع تكون تلك الصفة مبدع ومُظهر ذلك الجانب أو الحالة في الشيء فوجود أي بعد في كل من الموجودات قائم على «اسم الله». هذا هو ما تعنيه العبارة التالية من دعاء «كميل بن زياد» العظيم:-

«باسمائك التي ملأت أركان كل شيء».[1]

انطلاقاً من هذا يجب أن تدعو الله ليزيح حجاب عالم الظواهر عن بصرك ويفتح عين قلبك على عالم الأسماء ليتجلى لك من ثم جمال الحبيب:-

«إلهي وألهمني ولهاً بذكرك إلى ذكرك وهمّتي في روح نجاح

---

١ - مفاتيح الجنان.

اسمائك ومحل قدسك».[١]

فأنت لما تمعن النظر في أي شيء من عالم الشهود، فإنه يهديك إلى ما يستبطنه من عالم الغيب. وهذا هو التفنن والتسامي بالذات، وإلا فالحيوان أيضاً يرى الحب والعفص. ولكن هل تعلم من يفقه ايماءات الموجودات؟:-

﴿الذين يؤمنون بالغيب﴾.[٢]

قرأت أن الأسماء لا تعد ولا تحصى. من هنا، فإن تفكيرك وتأملك أيضاً لانهاية له. إنه سجل لا طريق إلى الفراغ من مطالعته. فكلما ازددت تأملاً وإمعاناً فيما ترى، تزدد روحك حيوية.. سوف تجد نفسك في جنة أولية في هذه الدنيا، تستظل فيها بمئات من سيقان شجرة ﴿طوبى﴾ ويسكرك فيها مئات كؤوس الخمر العتيق، أقول الخمر العتيق لتعلم أن ثمالته تزيل حجاب عالم المادة، عالم الملك، فلما تستذوقه تتحول ثمالته بصيرة وسكره وعياً.

أما الآية بمعنى العلامة والإشارة، فإن الكثير منها يحمل مثل هذا المضمون في القرآن الكريم، حيث تكون مظهراً للأسماء. ومثال على ذلك تأمل في الآيات التالية:-

لما ألقت أمواج النيل الثائرة جثة فرعون إلى الساحل بمنتهى الذلة والتنكيل بعد كل ما كان يتسم به من رفاه وغطرسة، ظهر الله عندئذ

---

١ - المناجاة الشعبانية.

٢ - سورة البقرة، الآية ٣.

باسم «المنتقم» واعتبر ذلك المشهد مظهراً لهذا الاسم.

﴿فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية وإن كثيراً من الناس عن آياتنا لغافلون﴾.[١]

ولما أراد الظهور باسم «الرزاق»، قال تعالى:-

﴿ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات، إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون﴾.[٢]

أما تجليه باسم «الهادي» فقد تم بحسب قوله عز وجل:-

﴿وألقى في الأرض رواسي ان تميد بكم وأنهاراً وسبلاً لعلكم تهتدون﴾.[٣]

أمعن في الآية التالية، تجده يتجلى فيها باسم «المحيي»:-

﴿والله أنزل من السماء ماء فأحيا به الأرض بعد موتها إن في ذلك لأية لقوم يسمعون﴾.[٤]

تمهل وأنت تقرأ الآيتين التاليتين تظهر لك الأولى الله باسم «الشافي»:-

﴿ثم كلي من كل الثمرات فاسلكي سبل ربك ذللاً يخرج من بطونها شراب

---

١ – سورة يونس، الآية ٩٢.

٢ – سورة النحل، الآية ١١.

٣ – سورة النحل، الآية ١٥.

٤ – سورة النحل، الآية ٦٥.

مختلف ألوانه فيه شفاء للناس. إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون﴾.[١]

والثانية باسم «المنجي»:-

﴿فانجيناه وأصحاب السفينة وجعلناها آية للعالمين﴾.[٢]

أخشى أن أثقل عليك، وإلا فإن القرآن الكريم يتضمن مئات الآيات على هذا الصعيد.

فأينما قرأت كلمة «الآية» في هذا الكتاب الأزلي المجيد، ركِّز تفكيرك فيما تقول، وإلى أين تهديك ايماءاتها؟ فالآية بمعنى العَلامَة والإشارة تشير إلى مكان أو شيء ما، تكتسب منه قيمتها، وإلا فإنها تفتقد أية قيمة ذاتية لولاه.

حدثتك بأن القرآن فهرس لعالم الخلق، وكل موجود في عالم الخلق يُعتبر آية بحد ذاته. إذاً، القرآن فهرس لملايين الآيات. وكل الآيات في عالم الخلق إنما هي تجليات اسم الحق تعالى. فهذه التجليات تهمس في أذنيك بحقيقة وجود مطلق، يظهر لك من خلال وجود أي من المخلوقات.

لأجعلن تراب وَطَأَتْهُ أقدام الفائزين بوصل الحبيب كحلاً لعيني. فمن أرخى الرحل عنده ما حاجته إلى الايماءات والعلامات؟! فالعلامات وسيلة للاهتداء والوصول. فمالك والعلامات إذا أنت قد فزت بالوصل؟ ينقل عن أبي يزيد قوله بأنه ما زال يخاطب الحق

---

١ - سورة النحل، الآية ٦٩.

٢ - سورة العنكبوت،الآية ١٥.

ثلاثين سنة والناس يحسبونه يكلمهم هم!

الآن أُلفت انتباهك إلى فقرة من كلام الإمام الخميني (قده) في هذا المضمار:-

قد استنار قلبك من الأنوار الطالعة من المشكاة الأولى ان اسم الله الأعظم هو أحدية جمع الحقائق الإسمية الجلالية والجمالية واللطفية والقهرية لا فرق بينه وبين المقام الغيبي والنور الأقرب إلا بالظهور والبطون والبروز والكمون وهو كل الاسماء بالوحدة الجمعية والبساطة الأحدية المنزهة عن الكثرة والمقدسة عن اعتبار وحيثية، كما استضاء روعك بالإشراقات الملكوتية إن الهوية الغيبية لا تظهر في عالم من العوالم ولا ينعكس نوره في مرآة من المرائي إلا من وراء الحجاب. فاعلم الآن إن كنت ممن ألقى السمع وهو شهيد أن الذات مع تعين من التعينات الأسمائية منشأ لظهوز عالم مناسب لذلك التعين كتعينها باسم «الرحمن» لبسط الوجود وباسم «الرحيم» لبسط كمال الوجود وباسم «العليم» لظهور العوالم العقلية وباسم «القدير» لبسط عوالم الملكوت. ولأن الاسم هو الذات مع التعين الذي صار منشأ لظهور عالم من العوالم أو حقيقة من الحقائق صارت أسماء الله توقيفية فإن العلم بذلك علم إلهي لا يحصل إلا لمن يكون من أصحاب الوحي وأرباب التنزيل».[١]

وقد قيل إن لفظة العالم مأخوذة من العَلامَة. والعلامة هي ما يستدل بها

١ - «مصباح الهداية»، ص٨٩.

على شيء آخر. وأن الطبيعة بكل ما فيها تسمى، بالإجمال، العالم بمعنى أنه بالنظر إلى العالم تتجلى الصفات والأسماء الالهية، ويتم التنبه لها على هذا النحو. هكذا يتضح لك رويداً رويداً مضمون الآية التي نحن بصدد تفسيرها.

﴿سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق﴾.[١]

---

١ - سورة فصلت، الآية ٥٣.

«كلمة الله»

استمع لمثال آخر: هل تعلم كيف يـحدث لديك النـطق؟ إن كـنت شخصاً ناطقاً فإنك تتفوه في كل ساعة بآلاف الكلمات. وبإلحاق هذه الكلمات ببعض تكوّن العبارات والجمل، فتخلق مـن هـذه العـبارات والجمل مئات المفاهيم والمعاني. فكم كلمة تتردد عـلى لسـان كـل شخص على مر حياته، لا سيما إن كان من الخائضين غـمار التـعليم والتعلم؟ إنك بتردد أنفاسك بين عضلة اللسان وسقف الفـم والأسـنان والشفاه تخلق (٢٨) حرفاً عند النطق باللغة العربية و(٣٢) حرفاً فيما لو تحدثت باللغة الفارسية. فتكوِّن منها كل هذه الكلمات والعـبارات والمفاهيم.

وإن كنت تجيد التحدث بعدة لغات فكم هو عدد الكـلمات التـي بمقدورك أن تخلقها؟ سوف تبلغ ما لا نهاية له. حسناً. كـم شـخص أنت؟ سوف تقول: شخص واحد. فيا ايها الوحيد العزيز! كيف لك أن تبتدع ملايين الأصوات من نَفَسك الصامت وأضفيت كل هذه المفاهيم

على نتاج هذا النَفَس؟ كل هذه المفاهيم كانت موجودة في ذاتك أنت. فالخطيب يستخرج ما في حوزته من كلام عند تحدثه.

هكذا التفت كيف تتأتى الكثرة من الوحدة فتتجلى في سياق الكثرة كل هذه الصفات والعلوم من حقيقة واحدة.. وأنت تتنبه إلى هذه الحالة. إعلم ان الآفاق برمتها إنما هي كتاب الله المنشور:-

﴿والطور وكتاب مسطور في رق منشور﴾.[١]

تؤيد أحدث النظريات الكيميائية وجود (١٠٤) عناصر يتكون منها الفباء عالمنا. وكل الموجودات: حجر، شجر، حيوان و...، كلها كلمات الله.

ولما تنبهت إلى تعذر حساب كلمات أي ناطق، فهل تخبرني كيف يمكن عد كلمات الله جل جلاله:-

﴿قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ولو جئنا بمثله مدداً﴾.[٢]

فمثلما تظهر صفات أي ناطق وعلومه وخصائصه من خلال كلامه، تتجلى صفات الحق تعالى -وهي جميعاً من المجردات- في مخلوقاته المادية. ويسمى هذا النَفَس (النفس الرحماني) وهو عام من جهة الشمول.

وبما أن كل مكنونات وجود أي ناطق هي غيبيات يظهرها الكلام

---

١ - سورة الطور، الآيات ١ - ٣.

٢ - سورة الكهف، الآية ١٠٩.

هكذا يوصف الحق تعالى بأنّه «هو الباطن، هو الظاهر». فذاته المتنزهة النائية عن أية كثرة تتلبس بلباس الكثرة، وتتأطر بقالب أسمائه، لتظهر صفاته العديدة.

واعلم أنك لو عزمت أن تكون عبداً شاكراً لله لا بد أن تعرف النعمة بادئاً ثم تأتي على ذكر المُنعم. وأول نعمة وُهِبَها كلُّ موجود هو وجوده. وكل نعمة أخرى رُزِقَها بعد وجوده إنما تنبثق من نفس هذا الوجود. فليس هنالك من نعمة وآلاء سلبت هذا الوجود. ففي الواقع تنشأ النعم الظاهرية والباطنية جميعاً من الصفات والأسماء. وكل شيء ينال من هذه النعم الظاهرية والباطنية على قدر استيعابه. من هنا وجه لك الأمر:-

﴿تفكروا في آلاء الله﴾.

فبمثل هذا التفكير المتعمق تتجلى لك أسماء وصفات ذاته القدسية. قال الإمام علي ﷺ:-

«بها تجلى صانعها للعقول وبها امتنع عن نظر العيون».[1]

استمع لإشارة أخرى. فإضافة إلى كون أي شيء مظهر أسماء مختلفة في الوقت الحالي فإنه يغدو تجلياً لأسماء أخرى أيضاً على مر الزمان:-

﴿كل يوم هو في شأن﴾.[2]

---

١ - نهج البلاغة، الخطبة ٢٢٨.

٢ - سورة الرحمن، الآية ٢٩.

فشتلة التفاح مثلاً عندما تغرس في التراب ينفلق حبها فيتجلى فيها اسم (فالق الحب والنوى)، وباهتزازها وظهور علامات الحياة فيها اسم (المحيي)، وبانبثاقها من التراب الفاقد للحياة اسم (يخرج الحي من الميت)، وبنشرها ظلاً وارفاً اسم (اللطيف)، وبتنقيتها الجو بما ترفده به من اوكسجين اسم (المُطَهِّر)، وباجتذابها كربون الجو اسم (المزكي)، وبإزهارِها اسم (الجميل)، وبإثمارها اسم (الرزاق)، وبسقوط أوراقها المصفرة خريفاً وعودة الحياة إليها باخضرارها ربيعاً اسم (يا من أظهر الجميل وستر القبيح)، وبجفافها وذبولها اسم (المميت). قبل أن توهب الشجرة الوجود بادئاً، سيّرتها مشيئة «الأول»، ولما يسقط عنها الوجود ختاماً تسيّرها مشيئة «الآخر»، ومشيئة «المبدأ» تحكمت بكل شيء عندما كانت الأشياء عدماً، وسوف يؤول أمرها إلى «المُعيد» بعد عودتها إلى العدم. فهل لك أن تقول بعد كل هذا أن هنالك أساساً مشيئة غير مشيئة الله تؤثر في ظهور أي من الموجودات؟

فردد معي:-

فالحق خلق بهذا الوجه فاعتبروا

وليس خلقاً بذاك الوجه فادّكروا

من يدر ما قلت لم تخذل بصيرته

وليس يدريه إلا من له البصر

جمع وفرق فإن العين واحدة
وهي الكثيرة لا تبقي ولا تذر[١]

١ - نقلاً عن كتاب «مصباح الهداية»، الإمام الخميني (قده)، ص١٤٩.

«وحدة الأسماء»

في مثالنا السابق حول ظهور صفات أي شخص فنان، قرأت أن إحدى السيدات رغم ما تتميز به من وحدة ذاتية، لها في كل مجال ابداع، وقد تعددت تجليات ابداعاتها في كل ركن من المنزل. هنا تبدو في هذا الركن فنانة، وفي ذاك الركن خياطة، وهنا صانعة حلوى ممتازة، وهناك ربة بيت بارعة، وفي ركن آخر طاهية ماهرة و... ولكنها جميعاً تمثل في الواقع مظاهر شخص واحد. ﴿تعالى عما يصفون﴾. على أية حال، جميع الصفات في عالم الشهود ورغم تنوعها تعود لموصوف واحد، يضمر جميع الصفات في ذاته. وحتى الاسم قد لا يذكر في هذا المجال. فعندما يدعو شخص ما الله أما باسم «الله» او «الرحمن» أو «الرحيم» فإنه إن كان مريضاً يقصد في دعائه «الشافي»، وإن كان غريقاً فإنه يعني «المنجي» والفقير يقصد «المغني» والمبتلى يقصد «الناصر». ولكن اعلم أنه لو كان على اطلاع بمفهوم الأسماء ودعاه بما يقصد لكان من الأفضل بكثير. ما عليك ان تتنبه له هو ان لا توقعك

هذه الكثرة الإسمية في متاهة النأي عن وحدته الذاتية.

عــباراتــنا شــتى وحســنك واحــد
وكــلٌ إلى ذاك الجــمال يشــير[١]

يُشبّه هذه الحالة الكثير من العرفاء الإسلاميين وحتى الحكيم اليوناني فيثاغورس بوحدة ذات العدد واحد المتجلي في جميع الأعداد.. فرغم وجود أعداد لا حصر لها إلا أنها جميعاً تجليات للعدد واحد.

الآن وقد أينعت براعم روحك، اعلم أنه لولا مقام «رحيميته» لما رزقت حنان الأم في الصغر، ولولا مقام «رزاقيته» لما وفق أبوك في طلب الرزق. ابتسمت في وجه أمك واجتذبتها إليك لتلبي نداء بكائك عندما يدب فيك الجوع. وأنت تعلم الآن معنى «يا من هو أضحك وأبكى». كنت تتصور أن العين واليدين والساقين تحفظك، ولكنك الآن استوعبت أنه هو «الحافظ» دون غيره. وكلما تذكرته لا يكون هو المذكور فقط بل الذاكر أيضاً. كم أعدُّ وأحصي من الصفات؟! فإن اسهبت، ينبغي لي أن أتلو دعاء الجوشن الكبير حتى آخره موضحاً كل منها على انفراد حتى أعدَّ فيها مؤلفاً كاملاً. هكذا تفهم أن عالم الوجود برمته في قبضته هو وتدرك معنى «لا حول ولا قوة إلا بالله».

وبالرغم من اختلاف معاني الصفات، ولكنها -ولكونها جميعاً تفنى

---

١ - عن كتاب «مصباح الهداية».

في ذات الموصوف - فإنك بأي من هذه الصفات تتفوه تنادي موصوفاً واحداً دون غيره، فالشجاع، الفاتح، العالم، العابد، الزاهد، كل منها تحمل مفهوماً خاصاً. إلا أنك عندما تقول: علي عليه السلام رجل شجاع في سوح القتال، فاتح في المعارك، عالم في البحث والنقاش، عابد في المسجد، زاهد في شؤون الحياة فلإنها جميعاً صفات تعود إليه، لك أن تنادي علياً عليه السلام بأي منها تشاء، فهي كلها أسماؤه دون غيره.

﴿قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أياً ما تدعوا فله الأسماء الحسنى﴾.[١]

بتعبير آخر لكل اسم حقيقة. وهنا تدل الأسماء كلها على حقيقة واحدة، أي أن جميع الأسماء تهدي فكرك إلى ذات الحق تعالى. وبالطبع في هذه الذات أسماء أخرى أيضاً وبهذا يتوحد كل من الاسماء مع الأسماء الأخرى.

---

١ ـ سورة الإسراء، الآية ١١٠.

«الصفات هي عين الذات»

اتضح مما سلف ذكره وما مر بنا، أن صفات الحق تعالى هي عين ذاته. وانفكاكها وتجردها عن الذات من المحالات. فأينما ظهرت صفاته، فإن المتجلي في الحقيقة هي ذاته بعينها.

فتمام ذاته هو وجود وتمام الوجود هو ذاته. وأي صفة حميدة تراها هي أمر وجودي يتأتى من ذاته ويُظهر في الحقيقة تلك الذات المقدسة. من هنا، فإن علمه هو حقيقة العلم وقدرته حقيقة القدرة وبصيرته هي حقيقة النظر والرؤية.

على أية حال، علمه نافذ ومؤثر في أعماق السماوات، وفي جوف الذرات.. وقدرته كذلك وهكذا بصيرته.

فالموجودات الحادثة انبثقت بادئاً من العدم. وكان هو موجوداً و(هو الأول)، وينتهي أمرها إلى العدم وهو الذي يبقى حياً: (هو الآخر).وما مبتغاها في ظهورها المرحلي لعدة أيام إلا الدلالة على خالقها ومُبدئها، فيبصرون ببصيرته ويسمعون بسمعه ويكسبون القدرة

من قدرته والحياة من حياته حيث قال الإمام محمد الباقر ﷺ:-

«.. وهو حياة كل شيء».

وهكذا القدرة والبصيرة وبقية صفات الموجودات. أمعن في الآيات التالية:-

﴿وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى﴾.[١]

و﴿قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم﴾.[٢]

و﴿وما تشاءون إلا أن يشاء الله﴾.[٣]

وقد قرأنا ورددنا معاً:-

- «لا حول ولا قوة إلا بالله».

وأنت تردد يومياً في صلواتك:

- «بحول الله وقوته أقوم واقعد».

وقد قال تعالى في كتابه الحكيم:-

﴿أفرأيتم ما تحرثون. ءأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون﴾.[٤]

وينسب الله تعالى في القرآن برمته أية صفة وعمل حميد والخلق أيضاً إلى نفسه، كل ذلك ليس من باب الجبر ولكن الموضوع يعود لوحدة الصفات في عالم التكوين. والخوض في بحثه لا يناسب المقام

---

١ - سورة الانفال، الآية ١٧.

٢ - سورة التوبة، الآية ١٤.

٣ - سورة الدهر ، الآية ٣٠.

٤ - سورة الواقعة، الآيتان ٦٣ و٦٤.

هنا. ما عليك أن تعرفه هو أننا نتمتع بنوع من الخيار مع أننا فقراء لا لبس في حقيقة فقرنا، وكل ما لدينا هو من عند الله.

فمفردة «الصمد» تعني الامتلاء وانعدام أي خلأ وتجويف في الموجود. وقد ذكرت في سورة التوحيد باعتبارها من أسماء الله. ومفهومها هو أن ذاته محيطة وشاملة وحاضرة تحيط علماً بكل ما سواها فلا تخرج أية ذرة من عالم الوجود من إطار قدرته أو ارادته أو علمه وبالتالي نفهم أنه ليست هنالك حتى ذرة واحدة في عالم الوجود تخلو منه:-

- ﴿وما تسقط من ورقة إلا يعلمها﴾.[١]
- ﴿إن الله على كل شيء قدير﴾.[٢]
- ﴿وهو بكل شيء عليم﴾.[٣]
- ﴿وكان الله على كل شيء مقيتاً﴾.[٤]
- ﴿إن الله كان على كل شيء حسيباً﴾.[٥]
- ﴿ولله ما في السماوات وما في الأرض وكان الله بكل شيء محيطاً﴾.[٦]

---

١ - سورة الأنعام، الآية ٥٩.

٢ - سورة البقرة، الآية ٢٠.

٣ - سورة البقرة، الآية ٢٩.

٤ - سورة النساء، الآية ٨٥.

٥ - سورة النساء، الآية ٨٦.

٦ - سورة النساء، الآية ١٢٦.

- ﴿وأنت على كل شيء شهيد﴾.[١]
- ﴿وسع ربي كل شيء عِلماً أفلا تتذكرون﴾.[٢]
- ﴿ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شيء فاعبدوه وهو على كل شيء وكيل﴾.[٣]
- ﴿قل أغير الله أبغي رباً وهو رب كل شيء﴾.[٤]
- ﴿إن ربي على كل شيء حفيظ﴾.[٥]
- ﴿أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت﴾.[٦]

أمعن في هذه الآية فإنها تدل على أن الله ليس بحافظ للنفوس جميعاً فقط بل أنها توحي لنا بمفهوم أوسع وهو أن قيام كل نفس في اكتساباتها إنما هو قيام الحق تعالى نفسه، وكل ما لديها من حياة وقدرة وعلم إنما اكتسبه في واقع الأمر منه هو:-

﴿قال ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى﴾.[٧]

تبين هذه الآية أن الموجودات تخوض حركة جوهرية. ومن هنا

---

١ - سورة المائدة، الآية ١١٧.

٢ - سورة الأنعام، الآية ٨٠.

٣ - سورة الأنعام، الآية ١٠٢.

٤ - سورة الأنعام، الآية ١٦٤.

٥ - سورة هود، الآية ٥٧.

٦ - سورة الرعد، الآية ٣٣.

٧ - سورة طه، الآية ٥٠.

فإن الخلق والهداية هما أمران مستمران، فوجود الخالق والرب الهادي في حياة أي من الموجودات ضروري لتواصل حياته:-

﴿لا إله إلا هو كل شيء هالك إلا وجهه﴾.(١)

والمفهوم الدقيق للآية لا يقتصر على الدلالة على زوال كل شيء فقط، للتأكيد كذلك على ان كل شيء هو حالياً قائم وحيّ بوجهه هو فلولا وجه الله للبثت كل الأشياء حيثما كانت أي في عالم العدم:-

﴿وكان الله على كل شيء رقيباً﴾.(٢)

وهذه الرقابة ليست كرقابة شرطي الحي بل تتمثل بالحفاظ على الحياة والبصر والسمع والعلم والقدرة وجميع مظاهر وجوده.

---

١ - سورة القصص، الآية ٨٨.

٢ - سورة الأحزاب، الآية ٥٢.

«التجلي الأول»

تتفق آراء الفلاسفة والعرفاء وجميع الباحثين في العالم الإسـلامي حول أن التجلي الأول تحدد بتجلي نور محمد ﷺ. فهذا النور هـو لجميع فيوض الحق تعالى على الموجودات كلها، في عالمي التجريد والشهود على حد سواء. والمقصود من كلمة «العقل» أو «النور» اينما تذكران في الأحاديث المروية هو عقل محمد ﷺ ونوره.

في هذا السياق أمعن في الحديث التالي:-

روى جابر بن عبد الله الأنصاري انه سأل رسول الله ﷺ عـن أول شيء خلقه الله فأجابه:-

«نور نبيك يا جابر خلقه الله ثم خلق منه كل خير».[١]

ويرى الإمام الخميني ﵀ في كتابه الشريف مصباح الهداية بأن هذا الظهور تم في عالم المشية لا عالم الخلق. انقل لك كلامه ﵀ بنصه من هذا الكتاب:-

---

١ - بحار الأنوار.

«إن الأحاديث الواردة عن أصحاب الوحي والتنزيل في بدء خلقهم عليهم السلام وطينة أرواحهم اشارة إلى تعين روحـانيتهم التـي هـي المشية المطلقة والرحمة الواسعة تـعيناً عـقلياً لأن أول الظـهور هـو أرواحهم عليهم السلام والتعبير بالخلق لا يناسب ذلك فإن مقام المشية لم يكن من الخلق في شيء بل هو الأمر المشار إليه بقوله ﴿ألا له الخلق والملك﴾ وأن يطلق عليه الخلق أيضاً كما ورد منهم خلق الله الأشياء بالمشية والمشية بنفسها. وهذا الحديث الشريف أيضاً من الأدلة على كون المشية المطلقة فوق التعينات الخلقية من العقل وما دونه ونحن نذكر رواية دالة على تمام المقصود الذي أقمنا البرهان الذوقي عـليه بحمد الله تيمناً بذكره وتبركاً به.

في الكافي الشريف عن أحمد بن علي بن محمد بن عبد الله بـن عمر بن علي بن أبي طالب عن ابي عبد الله عليه السلام قال ان الله كان إذ لا كان وخلق الكان والمكان وخلق الأنوار وخـلق نـور الأنـوار الذي نورت منه الأنوار وأجرى فيه من نوره الذي نورت منه الأنوار وهو النور الذي خلق منه محمداً وعلياً فلم يزالا نورين أولين إذ لا شيء كُوّن قلبهما فلم يزالا يجريان طاهرين مطهرين في الأصلاب الطاهرة حتى افترقا في أطهر طاهرين في عبدالله وأبي طالب..».[١]

ويرى البعض أن الاسم الأعظم للحق تعالى هو النور المحمدي صلى الله عليه وآله وسلم عينه.

---

١ - مصباح الهداية، ص١٣٣ - ١٣٤.

جاء في الحديث المشهور:-

«كنت نبياً وآدم بين الماء والطين».

والمقصود هو نفس النور الأولي.

واعلم ايها العزيز، كما لعالم الشهود باطن وكذلك حقيقة تتجسد في الجسم والروح، للأسماء اللفظية أيضاً حقيقة وروح. وهكذا للاسم الأعظم. فاينما أشير إلى الاسم الاعظم في سياق الأسماء اللفظية أو الأدعية فإنه ظل الحقيقة المحمدية ﷺ، وهو الانسان الكامل والمرآة الواضحة والدقيقة للوجود المطلق، حيث قال ﷺ:-

«من رآني فقد رأى الله».

ويروي الكليني في الكافي عن أحد المعصومين في تفسيره الآية ﴿ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها﴾.

أنه قال: «نحن والله الأسماء الحسنى التي لا يقبل الله من العباد عملاً إلّا بمعرفتها».

فاعلم أن التوسل بهذه الأسماء إنما هو التوسل بالاسم الاعظم للحق تعالى.

دعني اقرأ عليك حديثاً للإمام محمد الباقر عليه السلام يخاطب به جابراً:-

«يا جابر! كان الله ولا شيء غيره، ولا معلوم ولا مجهول. فأول ما ابتدأ من خلق خلقه، أن خلق محمداً ﷺ وخلقنا أهل البيت معه من نوره وعظمته، فأوقفنا أظلّة خضراء بين يديه، حيث لا سماء ولا

أرض ولا مكان ولا ليل ولا نهار ولا شمس ولا قمر».[١]

وكلاماً عن الشيخ الأكبر في «الفص الشيثي»:-

«.. فكل نبي من لدن آدم إلى آخر نبي،ما منهم أحد يأخذ إلا من مشكاة خاتم الانبياء، وان تأخر وجود طينته، فإنه بحقيقته موجود، وهو قوله ﷺ كنت نبياً وآدم بين الماء والطين».[٢]

وفي الباب السادس من الفتوحات المكية يقول الشيخ بعد حديث رائع له حول التجلي الاول والنور المحمدي:-

«وأقرب الناس إليه علي بن أبي طالب رضي الله عنه امام والعالم سر الأنبياء أجمعين».

أمعن أيضاً في الحديث النبوي الشريف:-

«لما أراد الله أن يخلقنا تكلّم بكلمةٍ، خلق منها نوراً، ثم تكلّم بكلمة أخرى، فخلق منها روحاً، ثم مزج النور بالروح، فخلقني وخلق علياً وفاطمة والحسن والحسين فكنا نسبّحه حين لا تسبيح، ونقدّسه حين لا تقديس».[٣]

أتيتك بهذا البحث في هذا المجال لتعلم أن جميع الآفاق تجلت من اشعاع واحد، من ذات الحق تعالى وذلك الإشعاع الفاتن هو اشعاع نور الجمال المحمدي ﷺ.

---

١ - بحار الأنوار، المجلد ٢٥، ص١٧، الحديث ٣١.

٢ - فصوص الحكم، ابن عربي، فص «حكمة نفيسة في كلمة شيثية».

٣ - بحار الأنوار، المجلد ١٥، ص ١٠، الحديث ١١، باب بدء خلقه وما جرى..

«إشارات حول الأسماء»

ما يتوجب التنبه له في الأسماء هو أن الاسماء تعود إلى ملكوت العالم فلا ماهيات لها بل أنها تنتمي إلى عالم المجردات.

التفت إلى أن لكل شيء ربّاً وإلهاً وجبروتاً وملكوتاً وأدنى عوالمه هو عالم الشهود أي عالم المادة. والعوالم العلوية هي سماوات عـالم الشهود. هكذا تدرك معنى:-

(الأسماء تتنزل من السماء).

أمعن في نفسك، فقدرتك وعلمك وكرمك ومحبتك أمور تضمرها وتحملها معك، ولكنها لا تكون ظاهرة. لك أن تكشف للآخرين عـن جميع أعضائك خلافاً لأوصافك. فإنها لا تُرى بعين الرأس وما يُشاهد منها هي تجليات الصفات.. فإن ظهر الحب والوداد أو إشارات العـلم من ثنايا كلامك، انكشفت صفاتك هذه للآخرين. ما يرتبط بعالم المُلك هو الكلام، وبعالم الملكوت هي صفاتك. بنفس الوتيرة فكر في الحق تعالى أيـضاً. فـالعالم هـو اسـمه الظـاهر والمـلكوت اسـمه البـاطن

والجبروت اسم مريده والله اسم ذاته. والحقيقة أن جميع هذه الأسماء هي تجليات اسم «الله» وهي ذاته.

تنبه لملاحظة أخرى أثبتها الفلاسفة وهي أن العاقل هو المعقول ذاته والعالم هو المعلوم بعينه.. أنت ومعلوماتك، أنت وعلمك، أنت ومشاعر ودّك، أنت وكرمك... لا تنفكان عن بعض أبداً. مادمت قد اطلعت على هذه الظاهرة فاعلم أن صفات الله لا تنفك عنه قط. فصفاته في الواقع هي ذاته تجلت على هذا النحو.

فهذا علي عليه السلام يريق الدماء بسيفه يوماً بين صفوف الكفار وتارة يحمل كيس الدقيق في بعض الليالي يمد الايتام والمعوزين به.. في وقت آخر يقدم دروس معرفة الحق لأصحابه وأحياناً ينشغل بغرس شتلة ما. فمن رأيته في مقام المنتقم هناك تجده رزاقاً في موقع ثان ومعلماً حيناً وبستانياً تارة أخرى. فهل تخبرني كم شخصاً كان علياً عليه السلام؟ تعلم أنهم جميعاً شخص واحد اختلفت مظاهر تجلياته.

هكذا الله. فمع وحدانيته البحتة تتلبس مظاهره في كل ركن من عالم الوجود وفي أية لحظة وظرف بصفة خاصة.. تلزمنا ألف عين باصرة لنرى بها آلافاً من تجلياته. ولا بد لنا من الفناء في ثمالة المعرفة لتتفتح مثل هذه العين النافذة الى بواطننا. فالشاعر حافظ الشيرازي يقول:-

چـو آفـتاب مـی از مشـرق پـیاله بـرآیـد
ز باغ عارض ساقی هزار لاله بر بـايد[1]

والله سوف يتراقص بناء وجودك بأكمله إن داعبت نفسك اشعاعة واحدة من عطاء هذه الشمس.

والآن إن حققت هذه المعرفة في نفسك تعلم أن الأسماء والصفات هي في الحقيقة كلها أسماء هو مسمّاها. وإن تعددت اسـماء أي مـن الموجودات، فالاسم دون مسمى هو تصور واهٍ. إنها عدة حروف من حروف الالفباء، مجرد صوت بلا مدلول.. فصاحب الوجود الواقعي هو المسمى. من هنا، فإن الأسماء كلها وبجميع مظاهرها هـي تـجليات ذاته، ليس إلا. هكذا فنت الأسماء جميعاً في بـحر وجـوده المـطلق وكأنها قطرة ماء. وهذا هو ما نستوحيه فيما جاء في كتاب نهج البلاغة خلال العبارة الرائعة:-

«كمال إخلاصه نفي الصفات عنه».

ولمِن بليغ الفائدة أن تودع هذا الكلام عن أمير المـؤمنين الإمـام علي عليه السلام في بالك:-

«أول الدين معرفته، وكمال معرفته التصديق به، وكمال التصديق به توحيده، وكمال توحيده الاخلاص له، وكمال الاخلاص نفي الصفات

---

١ - معناه:

- «متى ما أشرقت شمس الشراب من مشرق الكأس تـلالأت آلاف الورود عـلى وجنات السقاء».

عنه. لشهادة كل صفة أنها غير الموصوف وشهادة كل موصوف انه غير الصفة».

واستزادة في الايضاح أمعن في حديث آخر نرويه لك عن الإمام جعفر بن محمد الصادقعليه السلام:-

«إن معرفة عين الشاهد قبل صفته ومعرفة صفة الغائب قبل عينه. تعرفه وتعلم علمه. تعرف نفسك به ولا تعرف نفسك بنفسك من نفسك. وتعلم أن ما فيه له وبه. كما قالوا ليوسف إنك لأنت يوسف. قال أنا يوسف وهذا أخي فعرفوه ولم يعرفوه بغيره ولا اثبتوه من أنفسهم بتوهم القلوب».

تستوحي من هذا الحديث الشريف ملاحظات ملفتة للانتباه ينبثق من كل ملاحظة منها اشعاع من اشعاعات شمس المعرفة:-

أ - إخوة يوسف كانوا برفقته، يتحدثون إليه ويتناولون الطعام معه، ولكنهم لم يعرفوه. هكذا الله فهو في ذاته شاهد، هو معك ولكنك لم تعرفه حق المعرفة حتى الآن. لزاماً عليك أن تزيح حجاب الجهل عن بصيرتك. اسلك الى الفهم طريقاً آخر، لعل شمس المعرفة تشرق في آفاق نفسك.

ب - فيما لو نستثني التوهمات، كل ما تعرفه عن نفسك تعرفه بالاستناد إلى الله. أنت تعرف نفسك بالله. تنبه إلى أن هذا العلم علم شهودي وحضور الله في العلم الشهودي لازم وصادق. أي أن هذا العلم الشهودي بالذات هو في الحقيقة من علمه أيضاً.

ج - قال الإمام عليه السلام: «.. تعلم ان ما فيه له وبه..» أي أنك تتنبه إلى

أنك في غاية الفقر، وأن كل ما في جسمك ونفسك هي جميعاً مواهب إلهية. هنا تدرك حقيقة فقرك الذاتي، وتسقط عن نفسك شموخ التكبر وتتوسد التراب خشوعاً لعظمته، وترقى معرفتك بنفسك وبه كلما سجدت له:-

﴿يا ايها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغني الحميد﴾.[1]

د - يبدأ العالم رحلته بالاطلاع على نفس العلم ليهتدي بعد ذلك الى المعلوم. أي أن عبارة «من عرف نفسه فقد عرف ربه» تفسر في الحقيقة بالاستناد إلى الحديث الآنف بأن من عرف نفسه يكون قد عرف ربه مسبقاً أي أنك تعرف نفسك بالله وانك كنت قد عرفته أولاً دون شك ثم تعرفت على نفسك بالاستناد إليه.

فالحقيقة تأخذ بيدك إلى حيث تغيب عنك نفسك فلا تراها إلا من خلال الله وبالله، فتجد أنك لا تملك لنفسك شيئاً إلا به وتلغي اعتبارات نفسك.

---

١ - سورة فاطر، الآية ١٥.

«ما هو مفهوم الحمد؟»

الآن وقد عرفت معنى الاسماء، اعلم ان نفسك تحيط علماً تماماً بالأسماء، فجميع صفات الحق تعالى محبوبة إلى الفطرة الانسانية السليمة.

في الحقيقة نفسك تعرف الصفات وتستأنس بها على مر حياتها. فأصل التوحيد يستدعي في مقام الظهور أن تنسب الأفعال كلها إلى الحق وأصل باطن التوحيد هو أن توحد بين الصفات والذات. فبهذا يعود كل ما تنطق به من حمد وشكر إلى الله وإن كنت تمتدح جمال وردة أو تطري على طراوة خضرة، أم تتحدث عن حب الأم أو تسرد حكاية عن معاضدة الأب. فكل هذا يتأتى منه. ولتعلمن أن أي حمد وإطراء في أي ظرف ولأي شخص إنما هو حمد لله ولو جهل ذلك الناطق بالحمد نفسه. فالمعرفة هي أن تعلم من صميم نفسك وقلبك أن «الحمد لله رب العالمين». فكل ما تملكه الموجودات جميعاً إنما هو من «الرب». وحمد صفاتها والإطراء عليها يعود إلى ربها.

ركز تفكيرك على أن ترسل مشاعر حبك لكل صاحب صفة وتسخر له ركناً من قلبك فسوف ترى، يوم تطلق شمس المعرفة أنوارها إلى آفاق نفسك، أن جميع هذه المودات واحدة والمحبوب واحد، ويبرأ القلب الممزق إرباً بعد خلاصه بحلول موعد الوصال حيث يتحقق معنى الآية:-

«إلا من أتى الله بقلب سليم».[١]

يفسر احد المعصومين عبارة «قلب سليم» بأنه القلب الذي يلقى الله ويخلو من سواه. فبتوحد أشلاء الحب ينبثق في نفسك ولهٌ يهتف:

شيوه وناز حسن اگر اينست
ميرد از عشق هر كه را جانست[٢]

انك لترى الكمال والعلم والجمال مع نظرك إلى كل موجود وتتنبه إلى روعة وتفنن الرسام الأزلي صاحب اللوحات البديعة في توظيف أصباغه: السماء زرقاء تتفتح لها القلوب، السهول خضراء تطري لها الأرواح، الأزهار زاهية الألوان تستنطق الآخرين للحديث عن جمالها:-

---

١ - سورة الشعراء، الآية ٨٩.

٢ - معناه:

- «لو كان هذا أسلوب الحسن ودلاله، قضى في الحب كل ذي روح».

﴿صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة،ونحن له عابدون﴾.[١]

فليس هنالك من شيء يمكنك ان تتجاوزه دون أن تنساب عبارات حمده في وجودك. نقرأ في دعاء العشرات:

«لك الحمد على كل أكلة وشربة وبطشة وقبضة وبسطة وفي كل موضع شعره».

فاسأل أهل الذكر في هذه الديار، إسأل باذلي النفس والقلب منهم في هذا المجال. إسألهم من خالق كل هذا الحسن والمحاسن؟

سيجيبونك بلا أدنى شك، لو كانت لهم فطرة سليمة لم يتعكر صفوها:-

الله. فقل: إذاً، لمن الحمد؟

﴿ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن الله، قل الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون﴾.[٢]

ولأن الحمد يتعلق بصفات الكمال و(لله الاسماء الحسنى)، فإنه جل وعلا خص نفسه به: (الحمد لله رب العالمين).

---

١ - سورة البقرة، الآية ١٣٨.

٢ - سورة لقمان، الآية ٢٥.

«مراحل الحمد»

صنف أداء الحمد إلى مراحل، في أولاها يكتسب حمدك ثراء بالاتصال بحقيقة المعرفة أي أن تعلم أنه لا محمود في العالم غير الحق تعالى، والأمر لا يقتصر على أن كل ذي صفة ينال صفته من مقام «الربوبية» فقط بل أن تلك الصفة تمثله هو ذاته. وبهذا يعود كل حمد تنطق به إلى ذات الباري تعالى.

والمرحلة الثانية هي أن ينساق ذكر هذا الحمد على لسانك فتواصل تسبيحك له على امتداد الخط.

والمرحلة التالية هي مرحلة استغراق التفكير في الحمد حيث يكف اللسان وينشغل القلب بذكر الحمد.

وهذه المرحلة هي مرحلة الحال نفسها وهي البحر الذي ترتمس فيه نفس العارف.

أما المرحلة الرابعة فهي مرحلة التخلق بهذه الأخلاق الحميدة والاصطباغ بصبغة الرب فيما تسمى «صبغة الله»:

﴿صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة﴾.[١]

هنالك تعرف أنك لا تملك أي شيء بنفسك، وكل ما لديك هو من عنده.. وتدرك أن الحمد هو والحامد هو والمحمود أيضاً هـو. وهـذا مقام عظيم يوجهنا الله (تعالى شأنه) إليه.

١ - سورةالبقرة، الآية ١٣٨.

«أسماء تتجلى مع جميع موجودات العالم»

اعلم ان كل موجود من موجودات العالم مظهر لأسماء خاصة تتحكم بظهوره وسَيره، فإسم «العظيم» يسير المجرات، واسم «اللطيف» الذرات والخلايا، واسم «الرحيم» سلوك الأم، واسم «الرزاق» سلوك الأب، إلا أنه هنالك أسماء تتجلى في جميع موجودات العالم، أسماء لا يحرم منها أي من الموجودات وهي الاسماء التي يتوسل بها مولى الموحدين علي عليه السلام في دعاء كميل بن زياد إلى الله:-

«وبأسمائك التي ملأت أركان كل شيء».

وأنا في هذا البحث بصدد التحدث إليك بما وسعني علمي حول هذه الأسماء عساك، وبنظرك إلى أي موجود، أن تحظى بانكشاف هذه الأسماء -وهي التي تمثل ذاته ليس إلا - لك وتظفر بانزياح حجاب التوهمات عن بصيرتك.

أول هذه الأسماء هو «العلم». فأنت لا تجد أي موجود لا يسيّر بالعلم. إذاً، للعالِم يد في خلقه. وأنت تقرأ في الفقرات الأولى من دعاء

كميل بن زياد «وبعلمك الذي أحاط بكل شيء»، إلا أنني ولخـوضنا الكلام مسبقاً حول العلم والعالم، لا أرى بنا حاجة للتكرار.

وهكذا بالنسبة للقادر والقائم والأحد، فهي أسماء أربـعة تـرافـق جميع الموجودات.. وكان لنا حديث فيها في الصفحات السابقة وأما بقية تلك الأسماء:

«الرحمن»

﴿ورحمتي وسعت كل شيء﴾.[1]

الرحمن صفة عامة لا تنحصر موجوديتها بشيء من المـوجودات بل تنشر ظلالها الوارف على جـميع المـوجودات، وهـي أول صـفة اختارها رب العالمين تعالى شأنه ليصف بها نفسه ضمن الآية ﴿بسـم الله الرحمن الرحيم﴾. ففي البداية كان الله ولم يكن هنالك سـواه. لمّـا أزاح الستار عن جماله الفاتن تجلى للجميع باسم «الرحـمن» فـبذل رحمته الواسعة هذه للوجود.

وأنت تتحدث عن عالم الوجود أخبرني هل الوجود خير أو شر؟ وما هو العدم ليتعلق به خيرٌ أو شرٌ؟ كل من تمتع بالوجود ينال نصيبه من الرحمة الالهية. فمن ذا الذي لا يتوله بالوجود؟ وكل خير ينبثق في عالم الوجود إنما ينشأ أولاً من صفة «الرحمن». ومرده آخراً أيضاً إلى نفس الرب مانح الوجود، فهوَ المسيّر لأمـر المـجيء والرواح وليس سواه:-

---

١ - سورة الأعراف، الآية ١٥٦.

﴿إن كل من في السماوات والأرض إلا آتي الرحمن عبداً﴾.[١]

والملفت أن الملائكة من حملة عرش الله عندما يعتزمون طلب المغفرة للمؤمنين والتائبين، فإنهم يدعون الله أولاً بصفة «الرب» ثم يعرجون على صفة «الرحمة» و«العلم». وهذه الصفات ثلاثتها هي صفات كلية عامة. أمعن في الآية التالية:-

﴿الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلماً فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم﴾.[٢]

الآية الآنفة تضمنت اسم «الرب» مرتين. فالملائكة تقول في الحقيقة: إلهنا! أنت الرب. نشأتنا جميعاً بيد ربوبيتك.. ثم تذكر رحمته مرة وعلمه مرة أخرى. أي: أنت أنشأت وتعلم ما أنشأت وماذا كان منه، تعرف أسراره الباطنية وشؤونه الخارجية ومع كل ما فعل فأنت تتعامل معه برحمتك.

فلما كانت جميع تجلياته، دون استثناء، تظهر صفة رحمانيته، دعوه: «الرحمن».

في الآية ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ لما كان «الله» اسم الذات وللذات جلال لا يرقى إليه أحد تنطلق سهام غيرة اسم «الغيور» من حريم ذاته تستهدف كل من عزم بلوغ مقامها، فلما عمّ الخوف وجود

---

١ - سورة مريم، الآية ٩٣.

٢ - سورة المؤمن «غافر»، الآية ٧.

العبد وهمّ بالفرار ترشحت عن سويداء ذاته صفة «الرحمن» ليستأنس بها العبد الفار من حضرته ويهدأ روعه. ولما أسلم العبد وجوده لحضرته تعزف ترنيمة صفة «الرحيم» على مسامعه وتمسح رأسه بحنان ليسكن هذا العش الهانيء.

في الحقيقة تجلى «الله» بكل جلاله وعظمته في اسم «الرحمن» وأعلن نفيراً عاماً لجميع مخلوقاته أن يختار كل منهم أنيس رحلته حتى ميقات لقائه «الرحيم» وانضمامه إلى سلك خواص عباده.

وهو، «الرحمن» ذاته، تجلى بصفة «الخالق» و«الهادي» عندما منح كل موجود خَلَقه «هداية تكوينية» وبصفة «الرحيم» ببذل الهداية الخاصة.

﴿قل إن هدى الله هو الهدى﴾.(١)

فالرحمن الرحيم هو الله يتجلى تارة بهذه الصفة وأخرى بتلك. فالوجود تبدو مظاهره في آلاف الأشياء ولكنها جميعاً تعلن نفس الحقيقة. حقيقة الوجود المطلق.

استمع لسر آخر:-

الآية ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ كلها تتكون من (١٩) حرفاً والعدد (١٩) هو في الحقيقة العدد الأبجدي لمفردة «وجود»، وكذلك مفردة (واحد) وبالنتيجة تدل الآية ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ على الوجود الواحد.

١- سورة البقرة، الآية ١٢٠.

حدثتك أيضاً أن أسماء الله هي روح العالم الجسماني وأن الصفات أما عامة أو خاصة.. أي أنها أما شاملة تعم الجميع أو أنها تخص شريحة معينة. فالعام منها هي الصفات الرحمانية ذات الفيض العام للجميع، والخاص منها هي الرحيمية. فهذان الاسمان الشريفان هما «أم الأسماء». وبهذا تكون قد تعمقت في درك مفهوم حديث مولى المتقين الإمام علي‌عليه‌السلام:-

«ظهرت الوجودات عن بسم الله الرحمن الرحيم».

فبإسم «الرحمن» وهب الموجودات وجودها وبإسم «الرحيم» هداها سبيلها نحو الكمال.

يقول صاحب فصوص الحكم:-

«واما المنح الاسمائية، فاعلم ان منح الله تعالى خلقه رحمة منه بهم، وهي كلها من الأسماء..

فأما رحمة خالصة: كالطيب من الرزق اللذيذ في الدنيا، الخالص يوم القيامة، ويعطى ذلك الاسم الرحمن. فهو عطاء رحماني، وأما رحمة ممتزجة: كشرب الدواء الكريه الذي يعقب شربه الراحة. وهو عطاء إلهي. فإن العطاء الالهي لا يتمكن اطلاق عطائه منه، من غير أن يكون على يدي سادن من سدنة الاسماء».

من هنا نلتفت: كم من منفور هو في واقعه رحمة رحمانية بحد ذاته وكم من مطلوب يكون عين نقمته:

﴿عسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم﴾.[1]

في نفس السياق أودع هذا الحديث الشريف للإمام علي عليه السلام في بالك:-

«سبحان من اتسعت رحمته لأوليائه في شدة نقمه، واشتدت نقمه لأعدائه في سعة رحمته».

فبالتجلي ظهرت قدرة «الله» وتبين الجلال والعظمة من لدنه، وبإسم «الرحمن» خلق الكائنات جميعاً، ورزقهم وهداهم السبيل، وبإسم «الرحيم» نشر ظل رحيميته الوارف على رؤوسهم ودعاهم لوصاله وقربه. والآن أمعن التفكير هل أنت الواله به أو هو بك؟!

جاء في حديث قدسي:-

«احببتكم قبل أن تدعوني وأعطيتكم قبل أن تسألوني».

الآن وقد ارتمست في بحر ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾، دعني اسلط عليك من هذه الآية اشعاعاً من نور الولاية لتعلم ما أعظم الأسرار المخبوءة وراء هذه الآية ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ بالذات:

يروى عن الإمام علي عليه السلام أنه قال:-

«اسرار كلام الله في القرآن وأسرار القرآن في الفاتحة وأسرار الفاتحة في بسم الله الرحمن الرحيم واسرار بسم الله الرحمن الرحيم في باء بسم الله الرحمن الرحيم واسرار الباء في النقطة التي تحت الباء وأنا النقطة التي تحت الباء».

---

١ - سورة البقرة، الآية ٢١٦.

يحتمل أن يعود مفهوم الحديث حول كون كل كلام الله وعالم الوجود من تجليات الله سبحانه وتعالى إلى أنه تجلى في مظهري الرحمانية والرحيمية اللذين منهما نشأت جميع صفاته وهما تجليان من نور الجمال المحمدي ﷺ فإن (أول ما خلق الله نور محمد ﷺ). وبهذا النور انكشفت أنوار مظهري الرحمانية والرحيمية وهو ما ينطوي عليه الباء في بسم الله والباء لا يكون باء إلا بنقطته التي تمثلت بشخصية أمير المؤمنين الإمام علي عليه السلام. وهو حقيقة، كان الساعد الأيمن لابن عمه وأفضل أعوانه في ظهور جميع فيوض الرحمانية والرحيمية، (والله أعلم).

ولهذه الاسماء تجلياتها في جميع الموجودات.. فكلها نالت ما نالته من فيض الوجود. والوجود بحد ذاته رحمة، والرحمة من صفات الرحمن. وأنت تقرأ في أول عبارة من عبارات دعاء كميل الشريف:-

«اللهم إني أسألك برحمتك التي وسعت كل شيء».

اسم الرب

من الأسماء الأخرى ذات الأثر في وجود جميع الموجودات، هو اسم «الرب». فالخلق هو التحول من طور الكمون إلى طور الفعل ولتحقيق ذلك تكون الموجودات بحاجة إلى الربوبية، ففقرها الذاتي يستوجب استنادها إلى لطف الرب. ألم تتنبه إلى أن الله سبحانه وتعالى، وبعد ذكر صفتي «الرحمن» و«الرحيم» في سورة الفاتحة، وصف نفسه بالربوبية حيث قال:-

﴿الحمد لله رب العالمين﴾.

وشمول ربوبيته عالم الوجود برمته مشهود في الكثير من الآيات، منها:-

- ﴿ذلكم الله ربكم فتبارك الله رب العالمين﴾.[١]
- ﴿قل أغير الله أبغي رباً وهو رب كل شيء﴾.[٢]

---

١ - سورة غافر، الآية ٦٤.

٢ - سورة الأنعام، الآية ١٦٤.

فأينما تصوب اتجاه تفكيرك تجد الموجودات جميعاً تُسيَّر بيد ربوبيته. فهل لك أن ترى رباً فوق شأنه؟!

تعمق في أيّة نعمة رزقت بها، أي ثراء تحظى به، أية عزة ترتمس فيها، كلها من تمهيداته إليك، وهو الآن الحفيظ عليها لتدوم لك:-

﴿وربك على كل شيء حفيظ﴾.[١]

و﴿اولم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد﴾.[٢]

إنه خلق كل شيء ووهب كل شيء كماله، ومنه انطلقت الموجودات كلها، وإليه مصيرها جميعاً، فهل يا ترى تليق العبودية لسواه؟! هيهات:-

﴿ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شيء فاعبدوه وهو على كل شيء وكيل﴾.[٣]

من سداد الفعل أن توجه نظرك إلى هذه الناحية، ففي كل مكان حديث عنه، فما أعذب التناجي معه.

اسمع ملاحظة أخرى: لما كان أثر اسم الرب وحدوده تشمل كل ما سوى الله فإنها تعمّ كلا الملك والملكوت أي عالمي الأمر والخلق معاً، وكذلك عالم الظاهر والباطن معاً.

---

١ - سورة سبأ، الآية ٢١.

٢ - سورة فصلت، الآية ٥٣.

٣ - سورة الأنعام، الآية ١٠٢.

﴿ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين﴾.[(١)]

من هنا فالجميع بحاجة إليه. حتى الملائكة راحت تقول:-

﴿سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا، إنك أنت العليم الحكيم﴾.[(٢)]

وكذلك الانسان:-

﴿فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه، إنه هو التواب الرحيم﴾.[(٣)]

وظاهر جسمك، لا في مبدئه وأدائه فقط بل على مر اللحظات وفي جيمع الأحوال، بحاجة إليه، فلا نبض لقلبك ولا شهيق ولا زفير يتردد في صدرك لولا قدرة ربك. به تمشي على قدميك وبه ترى وبه تسمع ومنه تأخذ إلهاماتك وايحاءاتك.. روحك تستضيء بنوره. فهل لك من شيء سوى الرب؟

عنقاء ربوبيته نشر اجنحته.. حتى ضم إليهما الكون من أقصاه إلى أقصاه بل تجرأ الشيطان أيضاً أن يتشبث بأذيال ربوبيته فيطلب منه:-

﴿قال رب فأنظرني إلى يوم يبعثون﴾.[(٤)]

والملفت أنه هو الآخر لا يعود خائباً لمّا يخوض هذا الغمار:.

﴿قال فإنك من المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم﴾.[(٥)]

---

١ - سورة الأعراف، الآية ٥٤.

٢ - سورة البقرة، الآية ٣٢.

٣ - سورة البقرة، الآية ٣٧.

٤ - سورة ص، الآية ٨١.

٥ - سورة ص، الآيتان ٨٠ و ٨١.

والنبي آدم ﷺ جنح إلى هذه الحقيقة وهو يتضرع اليه بالقول:-
﴿ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين﴾.[١]
هكذا بذل له ربه الغفران.

* * *

وعن النبي لوط ﷺ، فانه عندما قاسى الأمرَّين من قومه تقدم إلى ربه مناجياً:-
﴿قال رب انصرني على القوم المفسدين﴾.[٢]
فنزل على قومه عذاب من السماء.

* * *

وناداه النبي نوح بهذا الاسم يشكو إليه قومه:-
﴿وقال نوح رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديّاراً﴾.[٣]
فابتلعت أمواج الفيضان الالهي جميع الضالين.

* * *

١ – سورة الأعراف، الآية ٢٣.
٢ – سورة العنكبوت، الآية ٣٠.
٣ – سورة نوح، الآية ٢٦.

ودعا به زكريا:-

﴿قال رب هب لي من لدنك ذرية طيبة انك سميع الدعاء﴾.[١]

فلم يمر وقت طويل حتى قرت عينه بميلاد النبي يحيى عليه السلام.

* * *

وموسى عليه السلام عندما وقف إلى جانب مدين وحيداً فريداً يعتلج مشاعر الغربة، وقد أضناه التعب والجوع، نادى ربه:-

﴿رب إني لما أنزلت إليَّ من خير فقير﴾.[٢]

فجاءه من ربه الرزق والمربي معاً، فالتقى آل شعيب الذين دعوه إلى دارهم حيث مُنح السكن والمأوى والزوجة واتصل بمعرفة الحق حتى نال مقام النبوة.

* * *

وانسابت هذه اللفظة على لسان النبي سليمان عليه السلام وهو يتضرع.

﴿رب اغفر لي وهب لي ملكاً لا ينبغي لأحدٍ من بعدي، إنك أنت الوهاب﴾.[٣]

والملفت أنه نال سلطاناً من ربه سخّر له الجن والإنس والطيور، وهو

---

١ - سورة آل عمران، الآية ٣٨.

٢ - سورة القصص، الآية ٢٤.

٣ - سورة ص، الآية ٣٥.

ما لم يظفر به غيره قط.

* * *

وسلام على ابراهيم الذي تقدم إلى ربه بدعاء كان نعم الدعاء والطلب حيث جاء في القرآن الكريم لسان حاله:-

﴿ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم، إنك أنت العزيز الحكيم﴾،[١]

فاستجيب له دعاؤه بعد عدة آلاف من السنين في حق ذريته إذ بعث إليهم ربه ما أراد في ذلك الدعاء:-

﴿هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة﴾.[٢]

أما ترى كيف أثمرت شجرة الدعاء بعد آلاف السنين ودرت بثمارها على الخلق. أمعن التفكير في فقرات الدعاء والاستجابة، والتزم الصبر وأنت تنتظر تلبية دعائك من قبل الله بناء على ما جاء في الآية:-

﴿إن الله بالغ أمره، قد جعل الله لكل شيء قدرا﴾.[٣]

لم آت إلا بقبضة من كومة متكدسة.. تصفح القرآن، تجد أن أنبياء الله

---

١ - سورة البقرة، الآية ١٢٩.

٢ - سورة الجمعة،الآية ٢.

٣ - سورة الطلاق، الآية ٣.

ورسله ﷺ، لم يتقدموا بطلب إلى الله إلا ونادوه بهذا الاسم. سوف يؤول بنا الامر لتأليف كتاب كامل حول ذلك فيما لو ارتأينا عرض جميع تلك الحالات. إنما أردتك تغرف من نبع الرب فإنه غني كريم.

تعلم أن كل نعمة نلتها إنما أنشأها هذا «الرب»، وأنت نفسك منذ قبل تكوُّن نطفتك وحتى الآن تحولت أطواراً وأطواراً ولم يكن لك ذلك إلا بتسيير من هذا الرب. فمن لك سواه؟ ومن تطلب غيره.. فلو أبيت أن تعفر وجهك في التراب سجوداً له وخشوعاً لعظمته، تكون قد استبدلت الرب بالمربوبين وهو:

﴿رب السماوات والأرض وما بينهما فاعبده واصطبر لعبادته هل تعلم له سمياً﴾.[1]

عفّر وجهك بتراب هذه الساحة المقدسة، ففيها الحياة، وفيها السعادة، وفيها النعمة والعزة. ردد بثقة:-

﴿إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين﴾.[2]

المسالك لم يخفَ أعوجاجها، والأذواق اشتد انحرافها. وهو، بالتحديد، الصراط المستقيم. فإلى أين أنت مولٍّ وجهك؟

﴿إن الله ربي وربكم، فاعبدوه هذا صراط مستقيم﴾.[3]

إنما البصيرة والهدى، على مر الحياة، من الرب. والنعماء تتنزل على

---

١ – سورة مريم، الآية ٦٥.

٢ – سورة الأنعام، الآية ١٦٢.

٣ – سورة مريم، الآية ٣٦.

العباد في كل آن بفيض من الرب.. والاستغاثة موجهة دوماً إلى الرب وسمفونية المآب تعزف على آلات قدرة الرب. وبقرب موعد الرحيل في مثل هذه الحياة ما أن تسدل ستار جفنيك على هذه العين حتى تفتح عينيك فترى حلم الحياة قد انتهى وأنت تستهل حياة طيبة. هنالك وفي غمرة ابتهاجك بكل هذه النعم تواصل حياتك كما وصفها الباري تعالى في الآية:-

﴿دعواهم فيها سبحانك اللهم وتحيتهم فيها سلام وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين﴾[١].

وما ألذ ردّ المحبوب على هذه التحية. ذكرته الآية:-

﴿سلام قولاً من رب رحيم﴾.[٢]

فأنت عندما تسلم أمرك لهذا الرب صاحب المربوبين جميعاً، تُحصِّن نفسك إزاء الانحراف والانجراف بلوذك بالصراط المستقيم:-

﴿وهذا صراط ربك مستقيماً﴾.[٣]

وعند انضمامك فكرياً إلى مسلكه ومذهبه يقدم لك كتاباً يعرض لك تعليمات تطبيقية حكيمة:-

﴿والذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنه منزل من ربك بالحق﴾.[٤]

١- سورة يونس، الآية ١٠.

٢- سورة يس، الآية ٥٨.

٣- سورة الأنعام، الآية ١٢٦.

٤- سورة الانعام، الآية ١١٤.

وأنت في هذه المدرسة الفكرية معرض يـومياً لابـتلاءات ربك الذي يردف ابتلاءاته بنظام تشجيع وإثابة في غاية الروعة:-

﴿وربك الغني ذو الرحمة﴾.(١)

وإن خرجت مرفوع الرأس من الابتلاء، تنال يومياً مكافأتك وجزاءك.. فترى مبلغ الدقة في سياق التقييم:-

﴿ولكل درجات مما عملوا، وما ربك بغافل عما يعملون﴾.(٢)

ثم يدعو إليه من يشاء ويكافئه بالقرب منه وبلقائه:-

﴿نرفع درجات من نشاء، إن ربك حكيم عليم﴾.(٣)

---

١ - سورة الأنعام، الآية ١٣٣.

٢ - سورة الأنعام، الآية ١٣٢.

٣ - سورة الأنعام، الآية ٨٣.

الشهيد

الشهيد هو الشاهد الحاضر، الشاهد الموصوف، في الوقت نفسه بصفة «التعليم» أيضاً. فالقول بأن فلان شهيد على موضوع ما يعني أنه حضر الموقف وأشرف على ذلك الحدث وهو عالم به. من هنا، فإن الله هو الشاهد العليم.

اسمع إشارة أخرى:-

يُعبَر عن المحبوب في المجال الأدبي بالشاهد.. فهل كشفت عن السر في ذلك؟ المحبوب يكون دائم الحضور في قلب المحب، فاينما حل المحب يصحب محبوبه في قلبه. فلا اختلاء له بالنفس دون محبوبه. ما أن يستيقظ من النوم صباحاً حتى يراه ماثلاً في وجدانه، وكلامه في الحقيقة موجه إليه في كل ما يتفوه به.

هكذا سمي المحبوب شهيداً وشاهداً. على أية حال نعود الى شاهدنا:-

﴿لِم تكفرون بآيات الله والله شهيد على ما تعملون﴾.[١]

والحق تعالى شهيد على أفعال الانسان:-

﴿أوَ لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد﴾.[٢]

وهو كذلك شاهد شهيد على جميع الموجودات في العالم أيضاً.

أحياناً يجعل من الأشخاص مظهراً لاسمائه كما غدا النبي عيسى ابن مريم عليه السلام مظهراً لاسم (المحيي)، ومحمداً صلى الله عليه وآله وسلم لاسم (الشهيد) حيث قال في محكم كتابه المجيد:-

﴿ويكون الرسول عليكم شهيداً﴾.[٣]

فلما كان المحبوب شهيداً، ومحمد صلى الله عليه وآله وسلم شهيداً فما حاجتك لتقصي أنيس غيرهما؟ فشهوده ووجوده إلى جانبك ومعك أفضل قرين، وذكره أعذب لحن.. فلا رهبة وهو العضيد.. ولا حاجة لك إلى التملق للغير وهو النصير.

سمعت حكاية شخص عقد العزم على تحسس برودة الليل القطبي على مدى ستة أشهر، وتحملها ببدنه.. فقضى ليلة ظلماء استغرقت ستة أشهر يكابد برودة تبلغ خمسين درجة مئوية تحت الصفر وحيداً فريداً بانتظار طلوع الشمس سُئل: كيف صبرك وتجلدك في هذه الحارة الظلماء دون نصير وأنيس؟ هلا تحدس بم أجاب؟ قال: سلواي

---

١ - سورة آل عمران، الآية ٩٨.

٢ - سورة فصلت، الآية ٥٣.

٣ - سورة البقرة، الآية ١٤٣.

الوحيدة التي مكنتني من مواصلة الحياة هي علمي بأنني لست وحيداً وهو معي.

فالذلة في بابه عزة وإن قيل:-

«ليس لمؤمن أن يذل نفسه».

فالقضية في هذه الحالة، يحللها القول:-

«كمال العزة في التذلل على بابه».

فيا رفيق الرحلة أمعن في هذه الألفاظ الثلاثة: المحبة والجنة والجنة. فالمحبة متى ما حصلت، فإنها ثمرة المحنة.. فإن حصلت وهبت روحك الرفعة. هكذا ارتقت نقطة الباء من حضيض اللا شيء إلى سماء العزة وجاءت المحنة بالمحبة ولكن.. فداء لمحنته فما أفرزت إلا الجنة.

قيل وما أعذب ما قيل:-

«البحار خزانة الجواهر والسماء خزانة الملائكة والجبال خزانة الذهب والفضة والجنان خزانة الحور وقلوب الأحباب خزانة الأحزان».

يا أيها العزيز! طريق الحب البيداء. إنهض فقد يتأخر موعد اللقاء.

إنه طريق وعر، في كل خطوة منه مائة شوكة.

فإن هممت بسلوكه، فلتعلم انك سوف تلقى مئات المبتلين في كل من مقاماته.

اطلب أولاً الثمالة في حبه لتهتدي السبيل لوصاله.

ألم تتأمل في حال نبي الله يعقوب ﷺ لما ابتلي في كـيان حـبه وثبت على مشاعره ثم سُلب أنيسه الوحيد. بنيامين فلم يبق لقلبه ما شغله سوى الرفيق الأعلى. فلما خلت نفسه من جميع تعلقاته ووطأت قدماه ميقات الوصال دوعبت أحاسيسه أولاً بشميم قميصه لتـتأجج نيران الأمل في نفسه، وآخراً أعيد النور إلى بـصره بـقميص مـحبوبه الدنيوي لينهل من ثم من بـصيرة مـحبوبه الأزلي ويـفوز فـيما بـعد بلقائه:-

﴿يا أيها الانسان إنك كادح إلى ربك كدحاً فملاقيه﴾.[١]

فيا صاحب النفس الكريمة! لو لفحتك نفحة من هذا الكلام احمد الله واشكره، فقد وهبك مطيبة من خير العطور. فلا يرتاح لمثل هـذا الكلام من الناس إلا واحداً من المائة. تمهل حتى تُهتدى بشذاه السبيل إلى القميص ومنه إلى لقاء الحبيب.

فهل تجيبني: هل يداعب مشامك عطر من هذا العالم؟ كـل شـيء يعبق بشـميمه. ولكـن، مـا العـمل فـقد فسـدت المشـامات وتـعذر الاستشمام؟! فالمطلوب شامة كشامة المجنون فبعد فقدانه البصر كمداً على فراق ليلى صار يهتدي السبيل إلى مثواها بعبير مرقدها. شـوهد يترك القبور وراء ظهره قبراً قبراً حتى يأتي قبرها. سئل كيف تـهتدي السبيل بعين بصيرة؟ قال بأنه يقف عن كل قبر يطلب عـبيرها حـتى يجده. فأنت أيضاً اطلب عبير المحبوب في كل لقاء لك أو حوار أو

---

١ - سورة الانشقاق، الآية ٦.

مكتوب.

وحتى أنت، نعم أنت الراغب في قراءة هذا المكتوب أنا واثق أنك كثر ما شممت من هذا العبير ولكن غبار انشغالات دنياك تكدس على هذا العبير وحرمك ثانية من الاستئناس به:-

﴿وإنا إذا أذقنا الإنسان منا رحمة فَرِح بها وإن تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم فإن الإنسان كفور﴾[1].

أمعن في الآية الآنفة لتتوثق من أن الرحمة منه ومنشأ السوء منا.. هو المحفز، والمتقاعس الانسان.. هل تريد الانتهال من نبع اسم الشهيد؟ يؤكد القيصري في شرح الفص الشعيبي من فصوص الحكم عند تفسيره الآية:-

﴿إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد﴾.[2]

... (وهو يعني هذا الذي ألقى السمع، شهيد) أي المؤمن الذي ألقى السمع بالأخبار الالهية، شهيد. و«للشهيد» معنيان: أحدهما: حاضر، أي حاضر ومراقب لما يبلغه الأنبياء من الأخبار النازلة عليهم، وثانيهما، شاهد...»

وأنت أيضاً متى ما حفظت قلبك وصنته من كل ما لا يليق به، إضافة الى ما نوّهنا إليه من أحاديث وإشارات، سوف تصبح شهيداً أيضاً.

---

١ - سورة الشورى، الآية ٤٨.

٢ - سورة ق، الآية ٣٧.

«الظاهر»

من الأسماء الأخرى المؤثرة في كل الموجودات هو اسم الظاهر، وفيه اختلاف يسير مع اسم الشهيد. فكم من شاهد شهيد غير ظـاهر ولكن الحق سبحانه وتعالى شهيد ظاهر.

فلماذا ينكر البعض وجود هذا الشاهد الشهيد؟ الجواب هـو أنـهم فقدوا البصر وكأنهم العمي.. إنهم لا يـتنبهون لوجـود الحـاضرين إلى جانبهم ومعهم. فلآتيك بهذا الحديث عن أحد المعصومين عليهم السلام:

«ما من عبد إلا ولقلبه عينان وهما غيب ويُدرك بهما الغيب فـإذا أراد الله بعبد خيراً فتح عيني قلبه، فيرى ما هو غائب عن بصره».

ويصف الحق تعالى عباده المنكرين لوجوده بأن:-

﴿لهم أعين لا يبصرون بها﴾.[1]

وقد سمعت دون شك تأكيد امير المؤمنين عليه السلام في أحد أحـاديثه

---

١ - سورة الأعراف، الآية ١٧٩.

على أنه لا يعبد رباً لم يره. ومن المسلم به أن هذه الرؤية إنما تتم بعين القلب التي لا تقع في خطأ الحواس. أمهلني آتيك بمثال:

وأنت تستقل طائرة ما تجد أنها وبوزنها البالغ آلاف الأطنان تنتقل بك من مدينة لأخرى. لا يمكنك ان تنكر لكونها مظهر علم عالم ما، أي أن هذا الجهاز العظيم يمثل برمته في الواقع تجل للعلم. والآن هل بوسعك أن تصدق فكرة وجود علم دون عالم؟ سوف تـقول: لا. انك تتنبه بالفعل إلى وجود العلم والعالم من خلال هذه الأداة.

وأنت تتبنى هذه النظرة هل تجد موجوداً يخلو من مظاهر العلم؟

بعد أن أدركت مفهوم هذا الاسم، تنبهت لحقيقة وحدة العـلم مـع العالم والتزامهما هكذا رأيت أن الله ظاهر يتجلى للسالك إليه من خلال جميع المظاهر.

والإشارة الأخرى هي أنك أشرف المخلوقات وخليفة الله وتجل من تجلياته. أمعن في أن ما تسميه «الأنا» له ظاهر وباطن، فجسمك ظاهره وروحك باطنه. تنبه أن لا تسمح بانفكاك ظاهرك وباطنك عن بعض على مدى حياتك. إن كل ما يظهر منك هو ظاهر لذاك الباطن. أنت ترى يدك ورجلك وتتمتع في جميع الأحوال بوعي فيما يـخص علمك وعواطفك. فوعيك ورؤيتك لكليهما متوحدان في واقع الحال. هكذا هو ظاهر الله وباطنه. أسماء الله هي جميعاً أرباب عالم الشهود، فكل عالم الشهود يقوم عليها وكل ما في عالم الشهود هو من تجليات أسماء الله. فذاك الاسم الباطن وهذا الاسم الظاهر. وقد حـدثتك أن الاسم شيء يدل على المسمى. وهذان الاسـمان (البـاطن والظـاهر)

كلاهما يدلّ على الله عز وجل.

أمعن تفكيرك. ما تراه من الظاهر قائم بالباطن والباطن قائم بالحق سبحانه وتعالى. والروح قائمة بربها، وهي بدورها رب الجسم وثلاثتها معك وكل منها تجلٍ للآخر. وهذا هو معنى:-

﴿هو معكم أينما كنتم﴾.[1]

اسمع إشارة أخرى في غاية اللطافة في معنى الظاهر والباطن: تعلم أن كل ما عند العالم أو الفنان من علم وفن هو باطن وفي باطن كليهما تمنٍ ورغبة في تجلي العلم والفن. أي أن كل شخص محب لعلمه وفنه، معجب بهما وفيه رغبة للنظر فيهما وإظهارهما. ما أكثر الشعراء الذين يرددون أشعارهم يومياً والرسامين الذين يتأملون لوحاتهم على مر اللحظات.

والحق تعالى أراد أن ينظر إلى أسمائه. عالم الملكوت هو مرآة جماله، فأرادت الأسماء أن تنظر إلى شهودها، فعالم الشهود مرآة للأسماء. وهذا هو مفهوم الحديث:-

«كنت كنزاً مخفياً فأحببت أن أعرف فخلقت الخلق لكي أعرف».

بهذا تتنبه كيف ظهرت تلك الوحدة المطلقة متلبسة بهذه الكثرة. إليك كلام آخر حول الظاهر والباطن:

یک دایره فرض کن جهان را

هر نقطه از او میان نماید

---

١ - سورة الحديد، الآية ٤.

این دایره بیش، نقطه‌ای نیست
لیکن به نظر جنان نماید
تو نقطه آتشین بگردان
تا دایره‌ای عیان نماید
این نقطه به تو شهادت وغیب
هم ظاهر وهم نهان نماید
هر لحظه به تو کمال هستی
در کسوت ناقصان نماید[1]

إنه شعر رائع لا أعرف شاعره. يقول الشاعر: إنك إن أمعنت النظر في نقطة من نار يتمّ تحريكها دائرياً وبسرعة فائقة تظهر لك دائرة نارية يختفي فيها ذلك المركز المرئي.. ولكنك واثق أن مركز هذه الدائرة هو يد محرك النقطة النارية. بالاستناد إلى هذا التشبيه تصور عالم الشهود

---

١ - معناها:
- «افترِض العالم دائرة، منها يتراءى لك كثرة من نقاط ظاهرة»،
- «وهذه الدائرة نقطة ليس إلا، تظهر للعيان هكذا»،
- «أدر نقطة من نار، يراها دائرة من معها نظره جال»،
- «من هذه النقطة يظهر الغيب والشهود لك، ويبدو الظاهر والباطن لك»،
- «كمال الوجود يتجلى لك على مر اللحظات، متخذاً من مظاهر ذوي النقص له تجليات».

بدلاً عن الدائرة وعالم الملكوت المركز أي يد المحرك. فتكون ذات الباري تعالى محركها ومسيرها جميعاً ﴿تعالى الله عما يصفون﴾. وفي البيت الأخير يؤكد الشاعر أن ذوات الممكنات وجميعها يتسم بالنقص تجليات لموجود كامل تراه من خلالها.

وقد قال أهل العلم:-

«سبحان المتجلي في كل جهة...».

في مثال النقطة المتحركة دائرياً إشارة أخرى وهي أن الوجود الخارجي للدائرة هو نقطة واحدة ليس إلا. فهذه النقطة تبدو من خلال الحركة الدورانية السريعة كأنها دائرة. وعالم الشهود هكذا فإنه في مقام الكثرة توهم وخيال ليس إلا. فهذه الكثرة إنما توحي بالوحدة نفسها.

وقد وصف الله نفسه بأنه نور:-

﴿الله نور السماوات والأرض﴾.[١]

فالنور يُظهر الأشياء جميعاً وبدونه يتعذر رؤية أي شيء. إنك في الحقيقة ترى النور والضوء بادئاً ثم الأشياء نفسها ولكنك مع هذا لا تتنبه إلى النور نفسه عند رؤية الأشياء. فالنور ورغم كونه أظهر من الأشياء كلها ولكنه عين الباطن.

---

١ - سورة النور، الآية ٣٥.

«المحيط»

إحاطته بالأشياء إحاطة وجودية فكل ما عندك لم تكسبه إلا منه وكأنك ضوء الشمس بالنسبة للشمس ذاتها، فأنت مرتبط به في أصل الوجود وكذا في المظاهر كما في الأسماء والصفات.

قال الإمام الصادقعليه السلام:-

«إن روح المؤمن لأشد اتصالاً بروح الله من اتصال شعاع الشمس بها».

وبهذا ندرك أنه شاهد محيط ومحيط قادر وقادر عالم. فمن أنا ومن أنت في حضرته؟ وعلامَ نقوى في ساحته؟:-

﴿إن الله بما يعملون محيط﴾.[1]

ولما كان هو الظاهر فإنه محيط بظاهرك أنت.. ولما كان الباطن، فإنه محيط بباطنك.. ولما كان الأول، فانه مبدؤك.. ولما كان الآخر،

---

١ - سورة آل عمران، الآية ١٢٠.

فمآبك ومصيرك.

وهذه الإحاطة تشمل الإحاطة بالأعمال وكذلك الإحاطة بالنوايا.

والجانب الآخر من هذا الاسم يشمل إحاطته بكل شيء فهو القيوم وقيام كل موجود منه وبه.

ومن هنا أخبرني: وهل كان بينكما فراق ما دام يتجلى لك أينما تصوب نظرك؟

ومن الأسماء الأخرى المتجلية في كل الموجودات: الخالق، الوكيل، الحفيظ، القائم، الهادي والرقيب. ولأني أخشى أن تمل من موضوع الأسماء لن أتوقف معك في مقامنا أكثر من هذا. ولكن اعلم أن المعرفة كلها تكمن في بحث الأسماء الالهية. تمهل وازدد إمعاناً في تفكيرك حول هذا الأمر.

أعود لأؤكد خاصة أن الأسماء غير محسوسة لأنها ليست من الماديات بل من المعقولات التي تدرك بالعقل ولكن جميع العالم قائم على الماديات والماديات لا تعدو كونها تجليات للأسماء الإلهية.

«إشارات حول الأسماء الإلهية»

بادئاً ينبغي لك أن تعلم إن كمالات الممكنات هي عين كمالات الحق تعالى. وهذه الكمالات هي بالتحديد الأسماء الإلهية، أي أن حياتك وحياة جميع الموجودات هي في الحقيقة حياته.

قال الإمام محمد الباقر عليه السلام:-

«وهو حياة كل شيء».

وعلمك علمه وبالنظر لهذه الحقيقة. لا تتصور فيما يخص ما صدر منك من آثام وأنت عالم وملم به، أن الملائكة هي التي تسجله وتنقل نبأه إلى الله. أنت خضت غمار الخطيئة بما أودعه الله لديك أمانة من تجليات قدرته، ثم أنك عالم به دوماً بما تجلى فيك من علم الله. فكل ما تعرفه يعرفه الله لأنك، أساساً، عالم بعلمه هو:-

﴿ما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم﴾.

قال تعالى:-

﴿ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل

الوريد﴾.[١]

فالوجود المطلق الذي أوجد جميع الصفات الوجودية يحيط بكل شيء، وما من شيء يخرج عن دائرة إحاطته. والأمر نافذ في موضوع وجود الصفات. فالعلم مثلاً لا يكون علماً خالصاً لحقيقة العلم إلا إذا خلا من أية حقيقة حيثية تعارض حقيقة العلم وتخالفها. فهو، عندئذ، يكون علماً بتمام الأشياء. وعلى هذا المنوال قس حقيقة القدرة والحياة والإرادة.

ولكي لا تقول إن علم الممكنات هو جزئي وناقص نوعاً ما وعلم الله كامل، اعلم أن كل صفة وإن كانت جزئية نوعاً ما لا تخرج عن كونها صفة فأنت تنعت الضوء المنبثق من دودة اليراع (الحباحب) بأنه نور، وضوء الشمس الساطعة بأنه ضوء ونور. وتسمي ضوء النجوم وكذلك نور وضوء البدر الوهاج نوراً أيضاً. أي أن الجزئية والكلية، في الواقع، لا سبيل لها إلى صفته. فالجزئي منه هو والكلي كذلك. على هذا فإن حياته هي حقيقة الحياة ويكون لزاماً أن يشمل حياة الأشياء كلها وإلا فإنه يلزم أن تكون هنالك حياة مستقلة عن حياته. وهذا هو الشرك بعينه.

واعلم كذلك أن قيمومية الحق تعالى هي خالص حقيقة القيام. أي أنه لا قيام في عالم الوجود خارج عن قيامه وقيموميته. فإن حصلت على تمام المعرفة في هذا الموضوع تلتفت إلى أن جميع اسمائه هي

---

١ – سورة ق، الآية ١٦.

اسمه الأعظم الذي يضم إليه العالم كله. فأنت متى ما ذكرت هذين الاسمين أي الحي والقيوم وتعلم أنه هو الوجود المطلق وأنك أنت العدم البحت، وأن قيامك منه وهو القيوم، وحياتك منه وهو الحي، إنما تذكر أعظم الأسماء والاسم الأعظم.

وكان العارف ابو يزيد البسطامي يرى أنه ليس للاسم الأعظم حدٌ معينٌ ولكن لا بد أن نفرغ عش القلب لوحدانية الحق عندئذ نجد أن كل اسم هو الاسم الأعظم.

والإشارة الأخرى حول الأسماء هي أنه لكل منها على انفراد، شأنها شأن الأدوية، خاصية متميزة يحددها اتجاهك أنت. فالنداء «يا شافي» يفيد المريض و«يا تواب» التائب، و«يا غفار» المذنب، و«يا مجير» المشرد، و«يا مغيث» المستغيث. وتركيبياً، للأسماء أيضاً خواص متميزة أخرى.. وقد حدثتك أن أعداد الأسماء أيضاً متباين حيث يشبه العارفين الأسماء والاعداد في الأذكار بحزات المفتاح حيث ينبغي أن لا يتم التلاعب بها على أدنى قدر، فلكل عدد خاصية. ولكننا في هذا المجال لسنا بصدد الخوض في هذا الموضوع.

حسناً، لو كان هنالك نور يتعشعش وميضه في خبايا روحك، ووسعك ـ بالنظر لما مر بنا ـ أن تزيح ستار عالم الملك عن عينيك، والتفت إلى أن قيام الموجودات جميعاً وحياتها بيد الحي القيوم، فليظهرن لبصيرتك المحبوب في عالم الوجود وتسترسل حياتك في الجنة الأولى منذ الآن:-

﴿إن في ذلك لذكرى لمن كان لَه قلب أو ألقى السمع وهو شهيد﴾.[١]

واستمع لإشارة أخرى: لك ظاهر ولك باطن. وظاهرك لا يقوم إلا بقيام باطنك. فبذهاب الروح لا يبقى للجسم ذكر أساساً بل هيكل منسوب إلى الانسان، فوجوده على وجه الأرض إنما هو نتاج ذلك الباطن. وما أن يفقده يتلاشى في غضون عدة أيام. جئتك بهذا المثال لتعلم أن للعالم أيضاً روحاً تطلبه. وهذه الروح هي روح الجميع. ونحن بدورنا ننتسب إلى هذا العالم. وسوف يكون العالم عدماً لولا هذه الروح مثلما الجسم دون الروح. وكما الإنسان الحي القائم يُظهر تجليات روحه ويؤكد بالبداهة أن روحي ترافقني، فعالم الوجود أيضاً ظهور لاسم الظاهر والاسم الظاهر هو تجل لاسم الباطن. أي أن الظاهر هو عين الباطن والباطن هو عين الظاهر. والآن إصغ إلى حديث لصدر المتألهين في تفسيره لسورة النور:-

«. فتيقن أن الله تعالى هو ظاهر بذاته، إذ ذاته عين ظهور ذاته لذاته، وعين ظهور جميع الأشياء له، كما أنه مظهرها من مكمن الخفاء، وموجدها من كتم العدم إلى عالم الوجود. فبذاته النيرة يتنور غسق الماهيات المظلمة الذوات، وينتشر به النور في أهوية الهويّات، وتطلع شمس عظمته على آفاق حقايق الممكنات، ويطرد العدم والظلمة عن اقليم المعاني والمعقولات. فلو لم يكن طلوع ذاته النيّرة في آفاق هويات الممكنات، واشراق نوره على السماوات والأرض وما فيها، لم

١ - سورة ق، الآية ٣٧.

يكن لذرة من الذرات وجود، ولا لأحد من الموجودات حصول، لا في العقل ولا في العين».

الفهرس